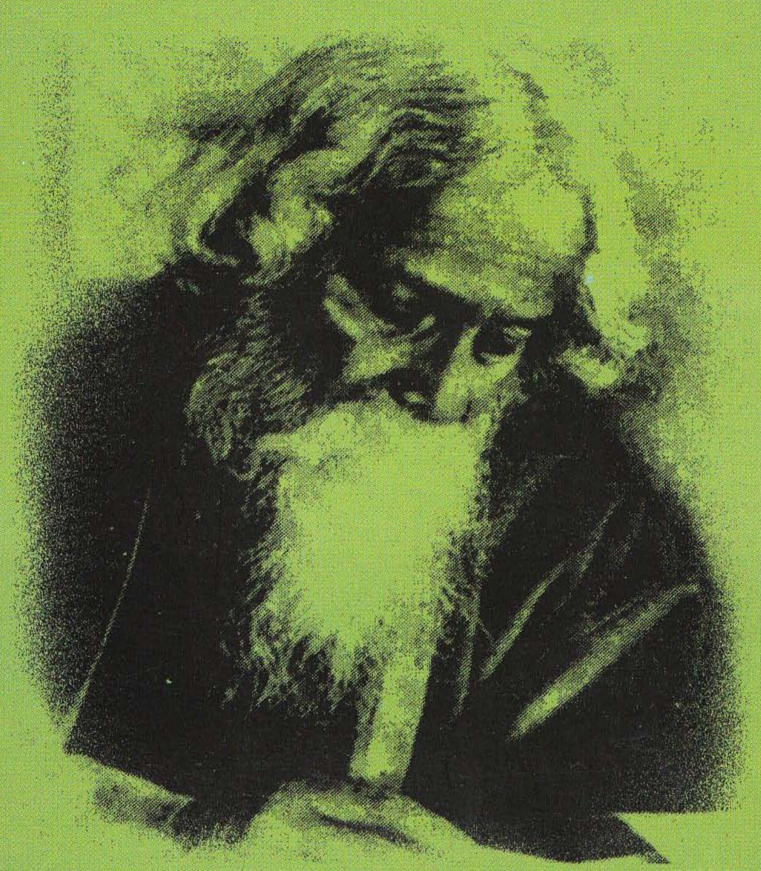
١٩١٣

مكتبة نوبل

رابندرانات طاغور

روائع في المسرح والشعر



ترجمة
بديع حقي







روائع في المسرح والشعر



١٩١٣

مكتبة نوبل

رابندرانات طاغور

روائع في المسرح والشعر

ترجمة

د. بديع حقي





مكتبة نوبل

Author:Rabindranath Tagore — اسم المؤلف : رابندرانات طاغور
Title:Masterpieces of Drama and Poetry — عنوان الكتاب : روائع في المسرح والشعر
Translator:Dr. Badi Haqi — المترجم : د. بديع حقي
Al- Mada P.C. — الناشر : المدى
First Edition : 1998 — الطبعة الاولى : ١٩٩٨
Second Edition : 2010 — الطبعة الثانية : ٢٠١٠

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

شاعر الهند

رابندرانات طاغور

مائة عام تمضي على مولد الشاعر الهندي (رابندرانات طاغور) ويحتفل العالم كله بذكرى الشاعر العظيم .

أفما خالستْك النظر ، من قبل ، قصيدةٌ له منشورةٌ في مجلة أو ديوان ؟

بلى . وإنك لتذكر معنىً نادراً إنسانياً عميق الغور قد نغش له فؤادُك ورفَتْ له نفسُك ، وتذكر أنك أعجبت بطاغور ، وظللت ، بعد هذا ، تلوب على قصائده وكلماته ، لتلهَج بها وتوسّدَها شغاف قلبك .

فإذا التمست عيناك صورةَ (طاغور) ، مطلاً عليك بطلعته المهيبة ، فإن في ميسور نظراتك أن تستشف وهي راكعة أمام خطوطها ، كلّ ما يزخر به قلب هذا الإنسان الشاعر من محبة وطيبة وحكمة .

وإنك لتراعي جُمّتَه ، تنزلق من قمة رأسه الى قذاله وتنثال على كتفيه ، وحفةً بيضاءَ ، كأنها حزمةٌ من الأشعة طريّةُ ، ثم تلتقي بسبال لحيته وشاربيه وتحيط بوجهه الأسمر ، كإطار من غيوم ، لتعانقه ، لتحبوَ عليه ، لتستمدَ منه صفاءً جديداً ترفد به بياضَها .

أما عيناه السوداوان الغانمتان بالحنان والرأفة فتبدوان في بهرةِ هذا البياض

اللُجّي ، نبعي نورٍ يفيضان أغانيَ ومعانيَ ، تترفّقُ منسابةً الى قرارة نفسك ، لتهب لك طمأنينةً سابغةً قريرة .

هذا هو الشعور الذي يخالجك ، إن اتفق لك أن تجيل طرفك في صورة (طاغور) ، فكيف كنت تشعر لو أن الحظ أسعدك فاجتمعت إليه ؟ لعلك كنت تردد ما أورده الكاتب الفرنسي (رومان رولان) الذي جلا لقاءه بالشاعر الهندي بهذه الكلمات :

«حين تقترب من (طاغور) ، يناسم نفسك شعورُ أنك في معبد ، فتتكلم بصوتٍ خفيضٍ ، وإن أتيح لك ، بعد هذا ، أن تتملّى قسمات وجهه الدقيقةَ الأبيّةَ ، فإنك واجدُ خلف موسيقا خطوطها وطمأنينتها ، الأحزان التي هيمن عليها ، والنظراتِ التي لم يداخلها الوهمُ ، والذكاءَ الجريءَ الذي يواجه صراعَ الحياة في ثبات» .

* * *

في ٦ مايس عام ١٨٦١ ، في قصر (جوروسنكو) الشامخ القائم في مدينة (كلكتا) رزق المهارش[1] (دافندرانات طاغور) سليل أسرة هندية عريقة في النبل وشرف النّجار ـ رزق صبياً هو أصغر اخوته السبعة فسماه (رابندرا) أي الشمس ، تيمناً بأنه سيشرق كالشمس وبأن الأرض ستنعم ، ذات يوم ، بنوره الوضيء .

وعرف (طاغور) في فجر طفولته بُلَهْنيةَ الحياة وهناءتها ، واستمد من الجو الذي عاش فيه ، كل ما كانت نفسه الطّلعةُ تتشوّف إليه ، فقد شدا أفراد أسرته كلهم فنوناً مختلفةً ، بين رسم وغناء وشعر ، وعبّ (طاغور) من هذه الينابيع الثرّة ، مستصفياً أطيبها وأعذبها وألصقها بروحه .

---

(١) أي القديس في اللغة البنغالية . وقد لقب به والد (طاغور) ، لما أثر عنه من ورع وتقى .

وكان أبوه أحد أعلام نحلة (اليوبانيشاد) الدينية التي تركت في الهند ، أثراً صوفياً بالغاً ، وكان يفزع الى العزلة أحياناً ، ليرتّل أناشيده البرهمية بصوته الهادئ العذب .

وأتمثّل (رابندرانات) طفلاً صغيراً ، يعدو في أرجاء القصر الرحب ، لاعباً لاهياً ، ثم يستوقفه صوت أبيه يلهج بنشيده الديني ، ويتسمّت الطفلُ اللحنَ الشجيَّ ، ويمثُلُ أمام حجرة أبيه ، ليجده قد انتبذ ركناً منها ، ينغّمُ نشيدَه خاشعاً متبتِّلاً .

وترتشف أذناه الواعيتان ، هذه الأناشيد الصوفية العميقة وتمتزج أنغامُها بروحه ، لتنبجسَ ذات يوم وتوشّيَ شعرَه وألحانَه وأغانيه .

ويغازل الطفلُ الحرفَ والوزنَ والقافيةَ وهو بعد في منبلج عمره ، ولم يكن آنئذٍ ، قد بلا الحزنَ وعرف الألم ، فقد كان أبواه يرعيانه بالحب والحنان .

لم يكن له إذن بدُّ من تجربة عاطفية تحرّكُ الوترَ الغضّ من موهبته الوليدة وتطلق النغمَ المبدعَ وتستلُّ نسيماتِ الشعر المهيمنةَ المتململةَ في أغوار نفسه .

وتعرض له هذه التجربة... ولعلها أن تحملنا على الابتسام ونحن نستمع إليه يقصها من كتاب ذكرياته : «قبض ذات مرة على لص في دارنا ، فحملني التطلع الممزوج بالخوف على أن أخفّ الى مكان الحادث لأرشق اللص بنظرتي الطُلعة المتسائلة ، فإذا أنا أجد إنساناً كالآخرين ، وما إن رأيت البوّاب يجذبه بعنف وقسوة ، حتى شعرت برأفة تمسُّ شغاف قلبي ، واشتهيت أن أنفضَ رأفتي شعراً ، وكانت تجربتي الأولى التي حملتني على النظم ، وجعلت أقرزم أبياتاً من الشعر ، مردفاً كلمةً في إثر كلمة ، كيفما اتّفق لها أن تأتي ، والآن حين أذكر تلك الأبيات المسكينة وأقسو عليها فإن الرأفة تجاذبني ، كما جاذبتني حين بصرت بذلك اللص المسكين» .

* * *

وسهر أبوه على تعليمه فندب له بعض المعلمين ، ليقدموا الى ابنه المعرفة ، بإشراف منه ، إذ لم يكن يتوفّر في المدارس الهندية آنذاك ، التعليم الصحيح الضروري للطفل .

ولم يجتزئ أبوه بالدراسة النظرية يزوّد بها ابنه ، بل حرص على أن يفسح آفاق معرفته بالتنقُّل والسفر فاستصحبه في رحلات كثيرة كان أبعدها أثراً في نفس الطفل النابه رحلته الى جبال (الهيمالايا) .

ها هو ذا يتوقَّل مع أبيه في شعاف الجبل الشامخ ، وتتلقّف ذراه الذاهبة في الفضاء ، نظرات الطفل المتطلِّعة المعجبة .

وبذل الجبلُ العملاقُ لعينيه تهاويله الساحرة الوحشية ليدرك الطفل الشاعر عظمةَ الكون وجماله ، واستمسكت ذاكرته الغضّة بالصور المذهلة الرائعة تترادف في حواشي الأفق ، بالطيوف المهوّمة في القنن السابحة مع قزعات الغيوم ، بالظلال الرهيبة تجثم في شعاب الجبل وغيرانه . والتأمت الصورُ والطيوفُ والظلالُ ، متناغمةً ، مؤتلفةً ، لتتسابق ذات يوم في قصائده ولوحاته الى قلمه الصناع وريشته الملهمة .

وكذلك عبّت عينا الطفل الظامئتان ، من مناظر الطبيعة ، وانعقدت بين نظراته الرقيقة البريئة وبين الكون ألفةٌ وانسجامٌ ، فهذه شجرة (البانيان) التي كانت تنتصب في فناء الدار وهذه النخلة السموق التي كانت تنتصب خلف جدار القصر كانتا تحدثانه عن الصداقة الخالدة التي تهبها الأشجار للإنسان ، وكانتا تهمسان في مطاوي نفسه نداءَ الطبيعة الصافي العميق .

وأخذ قلبه الصغير ينبض بالشعر ويهزَجُ به ، وقد احتفظت ذاكرته ، حين تقدم به العمر هذا البيت من قصيدة :

وينساقُ ، في الجو ، هَمس المطرْ   ليرعشَ بالحُبِّ غُصْن الشَّجرْ

يقول (طاغور) :

ـ « حين أفكر في الغبطة التي تبعثها هذه الكلمات في عطْفيَ ، أدرك قيمة

الدور الذي يؤديه الجرس اللفظي والقافية في القصيدة ، أن الكلمات تفيء الى الصمت . ولكن موسيقاها تظل ممتدّةً . ويبقى صداها موصولاً بالسمع ، وهكذا فإن المطر مايزال يهمس وأوراق الأغصان ما تني ترتعش حباً ، حتى الآن في ذاكرتي » .

ويكبر الطفل ويصلب عوده ، ويصبح في مقدوره أن يذهب الى الصيد مع أخيه (جيوتير يندرا) ، وكان هذا ، الى ولعه بالغناء والموسيقا ، فتىً شجاعاً كلفاً بالقنص والطِّراد ، وكان يحلو له ، وهو يمتطي فرساً من صافنات الخيل ، أن يردف أخاه (رابندرانات) خلفه ، لينطلق به في المدى الرحب المنفسح أمامه .

وقد صحب (رابندرانات) أخاه ، ذات مرة ، في رحلة لصيد نمر ، وضربا معاً في قلب الغابة الموحشة ، حتى اقتربا من وِجار النمر ، فلم يكد يبدو مزمجراً متوعِّداً ، حتى سدّد إليه (جيوتير) رصاصةً قاتلةً فأصماه وجندله . وكان الفتى الصغير خلف أخيه الجريء فلو لم يقتل النمر لافترسهما كليهما ، ولانطفأ ذلك النور الذي قُدِّر له أن يمنح الألق والخير .

وكذلك تعشّق (طاغور) منذ صغره الحريةَ مهما تكن محفوفةً بالأخطار .

* * *

وأبى القدر إلا أن يمتحنه وهو بعد فتى ، حين ماتت أمه الحبيبة ، وخلّف موتها ألماً لا يمّحي في نفسه ، وقد قص (طاغور) ذكرى وفاتها في هذه الكلمات الغميسة بالأسى : « كنا قد أوينا ليلة وفاتها الى النوم ، وقدمتْ في ساعة متأخرة خادمٌ عجوزٌ ، وهي تنشج باكيةً وتردّدُ :

ـ « ايه يا أطفالي لقد فقدتم كلّ شيء » .

فأسكتتها زوج أخي وصرفتها لتجنبنا وقع الفاجعة ونحن في موهنٍ من الليل . وكنت نصف يقظان ، وأحسست بقلبي يذوي وينهار بين جنبي ، دون

أن أعي ، على نحوٍ ظاهرٍ واضحٍ ماذا جرى ، فلما انشقّ الفجر ، أدركت معنى الموت الذي كنت أسمع بخبره .

ولما خرجنا الى الشرفة رأينا أمنا مسجاةً فوق سريرها ولم يكن مرآها يشي بأن الموت رهيب ، كان محياها عذباً آمناً ، كما لو أنها خلدتَ الى نوم هنيء ، ولم يكن أي شيء يبصّرنا بالهوة السحيقة التي تفصل الموتَ عن الحياة .

وحين نقل نعشها وسعينا مع الموكب الحزين في الطريق المظللة بالشجر هصر قلبي ألمٌ ممضٌ ، وأنا أفكر في أن أمي لن تعود بعد الآن الى البيت .

وقد مضت الأعوام وظللت أذكر في أيام الربيع ، كلما تمشيت في الحديقة ، وداعب زهرُ الياسمين جبيني ظللت أذكر مداعبة أنامل أمي وهي تمسُ جبيني مساً رفيقاً ، مفكراً في أن الحنان الذي كان يحدو تلك الأنامل الساحرة يتجلى في نقاء زهر الياسمين وأن ذاك الحنان مايزال باقياً لا ينفد ولا يفنى .

لقد حرمني القدرُ أمي وأنا بعد فتى صغير ، فأصبحت وحيداً ، ألوذ بنافذتي وأتأمّل في الطبيعة وأرتسم في مخيلتي ما يترقرق في الكون من صورٍ شتّى .

لقد كانت الطبيعة رفيقي الذي وجدتُه الى جواري دائماً » .

أجل . لقد أضحت الطبيعة رفيقاً وأماً ثانيةً له ، يناجيها ويأنس إليها ويغرف منها ، يوماً بعد يوم ، صوراً خلابة .

ويكبر الطفل الصغير ، وتترعرع معه قصائده الشجيّة الطليّة ، لتمهّد له طريق المجد .

* * *

ونوّرت عبقرية (طاغور) الشعرية وهو مايزال في ريِّق العمر ، وكان يجد من أفراد أسرته تشجيعاً متصلاً ، غير أن أباه كان يُعِدُّه لدراسة القانون ، فبعث به الى كلية (برايتون) في انكلترا .

ولم يجد (طاغور) في دراسة القانون ، ما يرضي نفسه النزّاعة الى الفن

والأدب ، بيد أنه أفاد من إقامته في انكلترا الشيء الكثير ، فقد غدَى نزعته الأدبية وارتضخ اللغةَ الانكليزية بطلاقة وإجادة ، مما أعانه ، فيما بعد ، على نقل بعض مؤلفاته الى الانكليزية .

ونهل (طاغور) من معين الأدب الانكليزي الخصب ، فرفد ثقافته الشرقيةَ بالثقافة الغربية ، وعاد الى وطنه دون أن ينهي دراسته الحقوقية ، وانتسخ أمل أبيه في إغرائه بمتابعتها .

* * *

وأهلَّ ديوانه الأول (أغاني المساء) فتلقفته الأوساط الأدبية بالتشجيع ، وتلقاه النقاد بالثناء الذي يستحق وظفر (طاغور) وهو مايزال في ريعان الشباب ، بإعجاب كبار شعراء عصره الذين توسّموا فيه شاعراً ملهماً ينتظره المجد .

وأردف ديوانه هذا بديوان (أغاني الصباح) ، وتغيم فيه ظلالٌ رمزيةٌ ، تضفي عليه مسحةً من الغموض حلوةً ناعمة .

* * *

وفي الثانية والعشرين من عمره ، انتقت له أسرته زوجاً ، فتاةً صغيرةً ، لا تتجاوز سنها الثانيةَ عشرةَ هي (مريناليني ديفي) ، فاستجاب (طاغور) لرغبة الأسرة ، فقد كانت التقاليد في الهند تقسر الفتاة والفتى على الانصياع لإرادة الأسرة في اختيار رفيق الحياة . وقد انتقد (طاغور) فيما بعد هذه العادة البالية انتقاداً عنيفاً في مقالاته وقصصه ، وفي رواية (حطام السفينة) بوجه خاص .

على أن حياته الزوجية كانت رغيدة ، فقد محضته زوجه المحبةَ الصادقةَ وتذوّقا معاً أفاويقَ السعادة وترادفت قصائده مشعشعةً بالهناءة الغامرة :

«لقد هلّت الفرحةُ مسرعةً من جميع أطراف الكون لتسوّي جسمي .
لقد قبّلتْها أشعة السماوات ثم قبّلتْها حتى استفاقت الى الحياة .
إن ورد الصيف المولّي سريعاً قد تردّدت زفراتُه في أنفاسها ؛
وغنّت وسوسةُ المياه وهينمةُ الرياح في حركاتها ،
إن الألوانَ المتّقدةَ من الغيوم والغابات قد انثالت الى حياتها ،
وداعبت موسيقا الأشياء كلها أعضاءها لتمنحها إهابَ الجمال .
إنها زوجي... لقد أشعلت مصباحها في بيتي وأضاءت جنباته» .

ورزق (طاغور) ثلاثة أطفال ، أفعموا قلبه غبطةً وبهجة ، بيد أن سعادته لم تدم طويلاً ، فإن كارثةً عتيّةً لم تلبث أن دهمته ، فقد ماتت زوجه وهي بعد في ميعة الصبا ، ولحق بها ابنه وابنته وأبوه ، في فترات متتابعة ، متقاربة ، وخلّفت هذه المصائبُ في نفسه جرحاً رغيباً ، وكادت تهدُّه وتفضي به الى اليأس ، لولا إيمانه بأن الموت هو صفحة تطوى لتُفتح صفحةٌ خالدة أنضرُ وأحلى .

وعلى حافة سرير ابنه المريض المدنف ، نظم (طاغور) ديوانه (الهلال) مفتلذاً من قلبه الحزين المعنّى قصائده الساذجةَ المؤسية . يقول (طاغور) :

- «إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتني زوجي واختطفت زهرة أولادي ، أضحت لي نعمةً ورحمةً ، فقد أشعرتني بنقصي وحفزتني على نشدان الكمال وألهمتني أن العالم لا يفتقد ما يضيع منه» .

بيد أن حزنه الذي استبدّ بقلبه ، تسلّل الى شعره فطبعه بطابع الأسى ، وانسابت الى جانب قصائده السابقة المفوّفة بحب الحياة ، قصائدُ شفّافةٌ بحزن دفين - ضمّها الى ديوانه الرائع (جيتنجالي) - قصائدُ مترعةٌ بمعاني الموت ، يقول عنها الكاتب الفرنسي (أندره جيد) : «ليس في الشعر العالمي كله ما يدانيها عمقاً وروعة» .

اصغ إليه يقول :

« ايه أيها الموت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، تعال واهمس في أذني يوماً بعد يوم سهرت في انتظارك ، من أجلك تذوقتُ هناءَة الحياة وعانيت عذابها .

إن الكفن المنسدل فوقي هو كفن التراب والموت ، وإنني لأكرهه ولكنني أشدّه وأجذبه في شغفٍ ووجْد »

* * *

وكذلك حلّق شعر (طاغور) ، بعد أن استمسك واستحصد ، مجنحاً بالحب والألم ، والفكرة والنغم ، لتتجاوب به آفاق الهند ، ثم يفرع جبالها ، ويجوز حدودها ويضطرب في كل مَرادٍ من الأرض ، وينحدر كالشعاع النقي ، فيغسل بكلماته الحلوة القلوبَ الحزينةَ المتشوّقةَ الى الطمأنينة والمحبة والسلام .

وفي عام ١٩٠١ ، أنشأ (طاغور) في إحدى ضواحي (كلكتا) مدرسةً سماها : (شانتينيكيتان) أي مرفأ السلام ، وقد اختار أن تكون في قلب الغاب ، بين الأشجار المتواشجة المتعانقة .

ويتّسق منهج الدراسة فيها على هذا النحو :

يستيقظ الطلبة ، عند منبثق الفجر ، فيرتلون الأناشيد العذبة ثم يمضون الى حجراتهم فينَسقون فُرُشَهم وينظفون الأرض وينطلقون الى الملاعب ، حيث يزاولون تمارينهم الرياضية ثم يلوذ كل طالب بركنٍ يفكر ويتأمل ، فإذا انتهت فترة التأمل ، أقبلوا على فطور الصباح ، ومنه الى الصلاة فالدراسة النظرية .

وللطالب ، إما شرع الأستاذ في إلقاء درسه ، أن يعلو غصنَ شجرة أو يقتعد عشبَ الأرض ، مستمتعاً بجمال الطبيعة وطلاوة الدرس معاً .

وفي الساعة الثانية عشرة ينتهي برنامج الدراسة النظرية ، وبعد الغداء ،

يبتدئ برنامج الدراسة العملية ، وينصرف الطلبة الى الحدائق ينسقونها ويزرعونها ، ويتخذ بعضهم سمتَه الى القرى المجاورة لتعليم الفلاحين وإرشادهم حتى يغلبَ الليل .

ويعكف الطلبة ، بعد العشاء ، على قراءة القصص أو تمثيل المسرحيات أو ترتيل الأغاني ، وفي الساعة العاشرة يأوي الجميع الى النوم .

هذه هي المدرسة التي أنشأها (طاغور) جنةً ممرعةً للنشء ، يقبلون فيها على الدراسة المجدية ، دون قسرٍ أو إكراهٍ وتتفتح فيها قلوبهم على محبة الطبيعة وتقدير الإنسان ، وتنضج فيها شخصياتهم بالعمل والتعاون والاعتماد على النفس .

وفي هذه المدرسة ألقى (طاغور) محاضراتٍ شتى جمعها في كتابه الشهير (سادهانا) .

* * *

وتعاقبت آثار (طاغور) من فلسفة وشعر ورواية وقصة ومسرح ، غزيرةً سخية ، تحمل رسالته الإنسانية السامية القائمة على المحبة والأمل ، وتشرئبُ قمماً شوامخَ في الأدب العالمي كله ، فلا عجب أن تسعى إليه جائزة (نوبل) للأدب عام ١٩١٤ .

لقد أصبح (طاغور) ، كما يقول عنه (غاندي) بحق ، منارةَ الهند ، ولعله أن يكون منارةَ الشرق كله ، منارةً تبذل نور المحبة وتعيد الى الإنسان المشرّد في متاهات المادية والإلحاد ، إلى الإنسان الذي افترست الحروب والطغيان ، أحلامَه الحلوةَ وأمنَه واستقراره ، تعيد إليه الأملَ والايمانَ والسلامَ والثقةَ بمستقبل أفضل .

* * *

وقام (طاغور) برحلات عديدة في أوروبا والشرق الأقصى والاتحاد السوفييتي وأميركا وأفريقيا ، ينثر أنّى مضى بذور المحبة والطيبة والأمل ، وظلّ دائبَ الظعن والرحيل ، حتى بعد أن تقدمت به السن . كانت عيناه الظامئتان الى النظر والمعرفة معلقتين بآفاق العالم كله ، وكان يقابل حيثما حل بترحاب شعبي حار ، قيل إنه تجمّع في ساحة (كولوسيوم) في (روما) أكثر من ثلاثين ألف شخص ، جعلوا يحيّونه ويهتفون له ، هتافاً هادراً مدوّياً .

ولك أن تتمثل الشاعرَ العظيمَ ، رابندرا ــ الشمس المشرقة ، واقفاً بطلعته المهيبة ، ودموعُه تغيم في مآقيه ونظراتُه المجبولة بالحنان ، تتطامن الى الجموع المحتشدة الهاتفة ، وقلبُه الكبير الطيِّب ، ينبض بالحقيقة نفسها التي تجبُ بها قلوبهم جميعاً .

* * *

ولم يتوانَ (طاغور) وهو يرى الى الاستعمار البغيض يعيث في وطنه فساداً وعسفاً ، عن مقاومته بشعره ومقالاته وخطبه فلم يقتصر شعره على تلك الخيوط اللطيفة الناعمة التي ألف أن يغزلها في معاني المحبة ، بل كان يتعالى حراً صريحاً مزمجراً ليدكّ صروح الطغيان . كان كالفراشة التي نسجت خيوطها الحريرية في فيلجتها واستمرأت العيش فيها أمداً ثم حطمت سجنها وانطلقت حرةً في منفسح الفضاء ، فإذا هذا الشعر الصافي المعطاء يحوّر في شفتيه الى صيحةٍ مدوّيةٍ تدعم صيحةَ زعيم الهند (غاندي) وتوقظ أبناء وطنه من سبات الاستسلام ، مهيبةً بهم أن ينزعوا الخوف من نفوسهم حاملةً لهم مشعل الحرية الموعودة فيقول :

«ايه يا وطني ، اطلب إليك الخلاصَ من الخوف ،
هذا الشبح الشيطاني الذي يرتدي أحلامَك الممسوخة ،
الخلاصَ من وقر العصور ، العصور التي تحني رأسك وتقصم ظهرك .
وتصمُ أذنيك عن نداء المستقبل» .

ولما قامت في الهند عام ١٩١٩ ثورة (البنجاب) وقمعتها انكلترا بالدم والنار ، احتج (طاغور) على ذلك بمقالاتٍ تتأجج عنفاً ، وأعاد الى ملك انكلترا لقب (سر) الذي كان قد منحه إياه تقديراً لعبقريته .

* * *

ولما ذرف (طاغور) على السبعين ، وكان في أوج عظمته الأدبية والفكرية والموسيقية ، بدا له أن يزاول فن التصوير . وكان على الشاعر أن يفسر لوحاته ، فقد كانت مزيجاً من الألوان غريباً . ولكنه كان يجيب دوماً : « إن على الصورة أن تفصح عن المعنى وأن تنفضه ، وليس عليها أن تفسّره ، فالفن يماثل الحب في كونه غير قابل للتفسير » .

كتبت السيدة (دونواي) في أسلوب تصويره فقالت :

« إن لوحته تلد كالفكر حين يدخل في سُباتٍ ، مغلّفةً بسُحُبٍ حالمة مبهمة ، ثم تتضح وهي في سبيلها الى التكوين ، وإن المرء ليعجب من دقة التصوير ورحابته معاً ، وتنبثق الألوان وتنساب : بقعةٌ ضبابيةٌ فبياضُ ثلجيٌ تليها خضرةٌ موشاةٌ بلون بنفسجي ، وتأتلف الألوان لتفسح عالماً حياً » .

وكذلك اكتشف الناس جانباً آخر من عبقرية (طاغور) حسرت لهم ، من قبل ، عن أسرار النغم وها هي ذي تحسر ، الآن ، عن أسرارِ اللون ، لتريقها لوحاتٍ رائعةً ساحرةً .

وأقيمت للفنان (طاغور) معارضُ جمةُ ظفرت بإعجاب نقاد الفن والتصوير في العالم أجمع .

كأني بطاغور ، بهذه العبقرية التي جرت من الفلسفة والأدب والفنون كلها على عِرْقٍ ، كأني به قد وافى ، كما يقول (راجاراو) . الى عصرنا هذا من عصر النهضة ، العصر الذي كانت تخفق فيه طيوف دانتي وليوناردو دافنشي ومايكل

انجلو ، العصر الذي كانت تتمايل فيهٔ كلمات القصيد على رعشات الريشة الملهمة ، وتترنح على ضربات الإزميل البارع ، وتلهث أمام مخططات الاختراعَ ووساوس العلم .

* * *

وفي ٨ آب ١٩٤١ ـ وكان (طاغور) قد تخطى الثمانين ـ مدّ الموتُ يدَه ، وقطف في هينةٍ ورفقٍ ، روحَ الشاعر الإنساني العظيم ، وهو بين أفراد أسرته ورفاقه ورواده .

« أنا أعلم أنه سيأتي يومٌ ، أضيّع فيه هذه الأرض عن ناظري .
إن الحياة تغادرني ، في صمت ، بعد أن تسدل على عيني الستارَ الأخير ،
ومع هذا فإن النجوم ستتلامح ساهرةً في الليل ،
وسيسفر الفجر ، كما أسفر أمس ،
وستمتلئ الساعات ، كما تمتلئ أمواجُ البحر ، حاملةً اللذات والآلام » .

* * *

أجل ، لقد غربت شمس (رابندرا) ، كما سماه أبوه ، بعد أن منحت الخير والنور .

وأغمض الشاعر عينيه اللتين أدامتا النظر الى الكون وأحبتاه وتغنّتا بآيات فاطره .

انطفأ النغم الرائع الحنون في لهاة الشاعر العظيم ، الى الأبد ، ولكن صداه سيظل دوماً مهوى كل قلب ينشد المحبة والأمل والسلام .

مات (رابندرانات طاغور) وافتقدت الهند ، بغيابه الأبدي ، أكبر شاعرٍ عرفته عصورُها كلُّها .

* * *

«أي هدية تقدمها الى الموت ، يوم يقدم ليقرع بابك ؟
آه ، سأضع أمام زائري كأسَ حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .
كلَّ قطوف كرومي العذبة ، من أيام خريفي وليالي صيفي .
كل حصاد حياتي الدؤوب وجناها ، سأضعه أمامه ،
حين ينتهي أجَلُ أيامي ، يوم يقدم الموت ليقرع بابي» .

* * *

أجل لقد بسط (طاغور) ، حين قدم إليه الموت ، قارعاً بابه ، كأسَ حياته المترعة حناناً ومحبةً ووضع أمامه قطوف كرومه العذبة الشهيّة وحصادَ حياته الجادة الدؤوب .

أجل ، لقد أزجى إليه باقةً ناضرةً مونقةً تضم شعره وأغانيه وخواطره ومسرحياته ولوحاته ورواياته ومقالاته ، وآب الموت ، محملاً بأثمن هدية يمكن أن يظفر بها من إنسان شاعر .

* * *

وتتلع زهرةُ الشعر رأسها من الباقة المؤتلقة المونقة ، فلعلها أن تكون أجمل الزهرات وأطيبها شميماً ، فإلى صفة الشاعر ينسب (طاغور) وبها يُزهى ويفخر .

وشعر (طاغور) كله ، يطاوع روحَه الخيّرةَ ، ويزخر بموسيقا لفظية ، قبست رعشاتها من خفقات قلبه .

ولعل ولع (طاغور) برقة اللفظ وموسيقاه يفسر لنا ، على الجملة ، شغفَه بالغناء والموسيقا ، ويتضمن شعره ، حتى بعد نقله الى لغة أخرى ، موسيقا خفيفةً ناعمةً ، تذكرنا ، كما يقول (أندره جيد) ، بأغنية لشومان أو بلحن (آريا) لجان سباستيان باخ .

«إن نور الموسيقا يضيء الدنيا ، وإن لهاث موسيقاك المفعم بالحياة ، ينسرب من سماء الى سماء .

ايه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في الشّباك الممتدة من موسيقاك» .

وقد تأثر (طاغور) بالرمزية ، وعانقت ظلالُها الغامضة بعضَ شعره ، كقصيدة (الصدى) ، فتأبّت معانيها الكامنةُ على التفسير ، وتعلّل (طاغور) بإيثار الرمز ، انك لو استنشيت أريجَ زهرة ، وقلت : «لا أفهم شيئاً» ، فالجواب يعني أنه ليس ثمة شيء يتطلب الفهم ، فليس هناك سوى الأريج ، وكذلك الشعر المبهم الرمزي الذي تطرب له ولا ينقاد معناه لفهمك .

وكثيراً ما يعمد (طاغور) الى القصص والأساطير فيرويها شعراً ويرمز بها الى شيء ويخلص منها الى فكرةٍ مستجدةٍ رائعةٍ ، فما أحلى هذه القصة الشعرية! :

«لقد مضيت أستجدي من باب الى باب على طريق القرية ،

حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد ، كأنها حلم رائع .

ورفّت تَعِلاّتي ، فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظر العطايا العفويةَ والخيرات المنثورةَ ، هنا وهناك على التراب .

وتوقفت المركبة ، حيث كنت أنتصب ، وصافحتني نظرتك فنزلت وأنت تبتسم ،

وشعرتُ بأن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ،

ومددتَ فجأة يدك اليمنى وقلتَ لي : ماذا لديك من عطاء ؟

آه . يا لعبثك الملكي وأنت تبسط راحتك الى المتسول لتستجدي منه .

وقد ارتبكتُ وحرتُ ، وتناولتُ في خفةٍ ، حبةَ قمح صغيرة من جرابي وأعطيتك إياها ،

ولكن كم كان عجبي كبيراً ، آخر النهار ،

حين وجدت ، وأنا أفرغ جرابي على الأرض حبةً صغيرةً من الذهب بين كوم من الحبات الحقيرة ، وبكيت أحر بكاء ، وتمنيت ، لو أوتيت الجرأة لأهبَ لك نفسي كلّها » .

* * *

وقد طَبَع الرمز صوَره الشعرية بالخصب والحركة ، على أن هذه الصور تتراءى آبدةً موشحةً بالوهَم ، معلّقةً بغوارب الحلم والخيال ، فإنها تظل منسجمةً متناسقةً ، تستروح فيها عبق الأرض وترابَها وتحسُ فيها خلجةَ الحياة الطيبة السخية .

والى جانب الظلال التي تسفحها رمزيته الرقيقة ، فإن النور يلعب في صوره ويوشّيها بالألق والإشراق :

« أيها النور الذي يغمر الكون ، يا قبلة العيون ، يا عذوبة القلب ،
النور يرقص في مركز حياتي ، وحبي يتجاوب مع دفقة النور .
السماوات تنفسح والريحُ تهبُ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .
إن نور الصباح قد غسل عيني ، تلك هي رسالتك الى قلبي ،
فانحنت طلعتك ، من عل ، وغابت عيناك في عيني ولامس قلبي قدميك » .

وفي الحق إن شعر (طاغور) ليس شعراً يتّعد فيه اللفظ والنغمُ والمعنى ، بل هو رسالة فكرية إنسانية تماثل ، في نبلها وصفائها ، رسالة المفكرين المصلحين العظام .

وقد اتّسق له أن يجنّح رسالته هذه بالشعر ، فوهب لها دماً جديداً ، وأمدّها بنسغ الحياة وبث فيها رِعشةَ وحركةً وانطلاقاً ، فلا تسعى وأنت تقرأ شعره الى الفكرة التي تضمنتها ولكنها هي التي تأتي وتسلس لك وتدخل أغوار نفسك ، فكأن شعره الطلي ثمرةُ شهية ، تريد أنت منها في الظاهر استطابةً ولذةً وتريد هي لك في الواقع فائدةً ومنفعةً وعبرةً .

ويقوم جذع آرائه الفكرية على مفهوم المحبة بمعناها الثر الرحيب ، فهو يحب أخاه الإنسان ، دون أيّما فارق في المنزلة والدين والنّجار فيقول :

« إن قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم ،

بل نحو من لا رفيق لهم ، بين الفقير والحقير والضائع » .

وهو يحب الكون ويشغف به حين يتحد معه في كلٍ واحدٍ فيقول :

« إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ليلَ نهارَ ،

هو الذي ينساب في الكون ، ويرقص على إيقاعٍ موزونٍ .

إن شباب الأرض والماء يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ،

ولهاث الوجود كله يتردد ضمن أفكاري ، كما يتردد في ثقوب الناي » .

ولا يريد (طاغور) لهذا الحب أن يكون نزوة عارضة عابرة ، بل حباً نديّاً مستمراً :

« هبْ لي ذلك الحبَ الذي يود أن ينفذ الى أغوار الوجود ،

ثم ينساب نسغاً خفياً في أغصان شجرة الحياة ليبعث الثمار والأزهار » .

وهو يحب ربّه متغنياً به ، باحثاً بفكره ، بقلبه ، بأغنياته . لا يحمله على الاستقصاء في البحث ، القلقُ أو الشكُ ، بل الحب النقي المصافي البريء من أوضار اللذة ومن التصوف معاً ، الحب الذي لا يصدف عن الحياة ويهرب منها ، زاهداً بها متجانفاً عنها ، بل الحب الذي يغريه بالحياة الحرةِ الباسمةِ الجذلى ، يقول :

« ليس الخلاص في الزهد ، أنني أشعر بضمة الحرية في ألف رباط من اللذات ،

لا ، لن أغلق أبواب حواسي ، إن لذات البصر والسمع واللمس سوف تنتظم لذتَك ،

أجل إن أوهامي سوف تحترق في ألقة الفرح ، وإن رغباتي كلها سوف تؤتي ثماراً من الحب » .

وهو يحبُ وطنَه المتشوّف الى الاستقلال ، فيرجو له الحرية ويعمل على إيقاظه :

« هناك حيث لا يلابس الفكر خوفٌ ويكون الرأس متلعاً الى العلاء ،
هناك ، حيث تكون المعرفةُ حرةً ،
هناك حيث لم يجزّأ العالمُ بين حواجزَ ضيقةٍ مشتركةٍ ،
هناك حيث لا يضل العقل النّيّرُ في الصحراء الموحشة من العادات البالية ،
أجل . في نعيم الحرية ، أبتاه ، دع وطني يستيقظ » .

* * *

يقول (طاغور) :

« إن الزهرة الأولى التي نوّرت وتفتّحتْ على الأرض قد حملت الأغنية على أن تولد » .

وتتطاول زهرةٌ ريّا ، من الباقة اليانعة ، تريد أن تعانقَ زهرةَ الشعر ، أن ترتشف منها نداها ، إنها زهرة الموسيقا والغناء توأم زهرة الشعر ، وقد نوّرتْ على شفتي (طاغور) ورشفت منها أعذب الأنغام وأحلاها ، أجل ، لقد حملت الأغنية على أن تولد وتهزج وتنطلق .

كان لطاغور صوتٌ نديٌ ، وكان كأخيه (جيوتير ندرا) مولعاً بالموسيقا والغناء ، وكانا يتعاونان على تلحين قصائده وتنغيمها ، فكان ، (جيوتير ندرا) يضع اللحن ، و(رابندرانات) يصغي إليه وهو يعزف على البيانو ، فيستوحي من اللحن ما يناسبه من الشعر ، وكان يؤثر هذا الأسلوب في التلحين . فقد كان يرى أن على اللحن أن يسبق الشعر وأن على الشعر أن يحمل اللحن ويخدمه لأنه الجذع والأصل .

وفي الحق ان فنّيْ الشعر والغناء هما من بين الفنون كلها ، أكثرها ألفةً وانجذاباً ، فالشعر يتمّم الغناء ويمتزج به على نحو وثيق مترابط .

وقد تعانق الشعر والغناء ، لدى (طاغور) في انسجامٍ وتناغمٍ عجيبين ،

حتى لقد وضع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية ، كان لها أثر كبير في الموسيقا المعاصرة الهندية ، وقد اتّسق له خلال إقامته في لندن ، أن يستمتع بالموسيقا الغربية ، فأعجب بما فيها من عمقٍ وانسجامٍ وتنوعٍ ، وأفاد منها كثيراً في تلوين أغانيه الشجيّة ، وكان (طاغور) يعتمد بعد أن امتدّ به العمر على ابن أخيه ، وكان مثله مشغوفاً بالغناء ، فكان يردد الأغنية ويرجّع فيها ويهزَج بها وابن أخيه يأخذها عنه ويذيعها ، لتلهج بها كل شفة .

يقول (طاغور) في كتاب (السادهانا) :

« إن الموسيقا هي أنقى أشكال الفن ، وهي أقرب تعبير عن الجمال ، وإننا لنشعر أن إفصاح اللانهاية في الأشكال المحدودة من الخلق ، هو الموسيقا نفسها تنساب صامتةً ظاهرةً . إن السماء الداجية التي تحصي النجوم دون ونى ، شبيهة بطفلٍ مشدوهٍ بكلماته الأولى المبهمة لا يني يردد لفظة واحدة ويصغي إليها بفرحةٍ لا تنضب » .

* * *

وتتواثب من الباقة زهرات مرحات ، لعلها أن تكون قد هربت من مسرحية (طاغور) : دورة الربيع ، بعد أن لهت وتغنّت وتضوعت ، وأدّت دورها وهرقت شذاها ، ثم بدا لها أن تستبق الى هذه الباقة ، لتغريك بقراءة المسرحية .

وهذه المسرحية ، أدنى الى فن الشعر والغناء من فن المسرح ، فحوارها يتسلسل صوراً شعريةً خلابة ، تهينم الموسيقا بين كلماتها ، هينمة النسيم بين عَذَباتِ الأغصان ، وتلعب الأزهار أدوارها في الربيع ، فتسعد وتشقى كالأناسي في الحياة .

ها هي ذي تتراءى براعمَ غضّةً ، تتغنى مع برعم (الشامباك) :

« إن حركتي تختبئ في سكون أعماقي ، في عذوبة ميلاد الأوراق الغضة ، في فيض الزهور ،

في الاندفاع الخفي من الحياة الجديدة نحو النور ،

إن هزتها تُرعش السماءَ وتحرّكُ صمتَ الفجر » .

ثم تنوّر البراعمُ وتزهر مع بشائر الربيع الطّلق ، وتنشد في مهرجانه ، وتمضي كالأطفال عابثةً لاغيةً لاهية .

وفي المسرحية تتألّق أفكارٌ فلسفيةٌ وحكمٌ ، كما تتألّق قطرات الندى على أفواف زهرة ، فتجدُ الى جانب الصورة الساحرة الأخاذة ، حكمةً بليغةً وفكرةً بعيدة الدلالة .

وكذلك تأخذ جل مسرحيات (طاغور) بمدرجة هذه المسرحية في مؤالفتها بين الصورة الشعرية والفكرة . وقد تطغى الفكرة على الصورة الشعرية في بعض مسرحياته ، كمسرحية (الضحية) التي يسود فيها حوار فكري ممتع ، ونرى فيها الى الملك (غوفيندا) يقرر تحريم الأضاحي ، بعد أن صدع قلبَه مرأى فتاة تنشج باكية حين أخذت عنزتُها لتقدم قرباناً .

وتجد الصورة الشعرية سائدةً في مسرحية (شيترا) دون أن تتحيّفَ من عمق الفكرة .

وقد قبس (طاغور) موضوعها من ملحمة (المهابهاراتا) انها قصة المرأة والرجل ، وترى فيها الى البطل (ارجونا) مشغوفاً متيماً بشيترا ، وكان أبوها الملك قد ربّاها كما لو كانت فتى ، فعلمها القتالَ والصيالَ والنّزعَ في القوس ، وقد صبا قلبها الى (ارجونا) ولكنها تأبّت عليه وقاومت حبه بإباء وكبرياء ، غير أن انوثتها لانت أخيراً ، وانحنت أمام قوة الرجل الذي تحب ، وانكفأ بأسها لتعود امرأة وحسب ، تغلب بسر وضاءتها وقسامتها ، وتقنع بالدور الأبدي الذي قسم لها ، دور الزوج المحبة والأم الرؤوم .

ولطاغور مسرحية رائعة ، يترقّق حوارها في دفءٍ انسانيٍّ عذبٍ معبرٍ ، هي (مكتب البريد) ، تجد فيها الطفل الصغير (امال) ، قد اتخذ مجلسه ، بعد أن أقعده المرض ، أمام النافذة ، ينتظر في أمل متصل ، مقدَم رسالة من الملك (هيرالد) ، وتتطامن نظراته الى الطريق ويتحدث إلى السابلة ، في حوارٍ ساذَجٍ

وإنهم ليضيقون ، في البدء ، ذرعاً بأسئلته ، ولكن الحديث يتصل ، رهواً سلساً ، كنغم طلي ، لينفي همومهم ، ويسرِّيَ عنهم .

بيد أن الرسالة المنتظرة لا تأتي ، والطفل مدنف ، ويمثُل الملك نفسه ، أخيراً ، أمام الطفل لتتسامى روحه مطمئنة سعيدة .

وكذلك ترادفت مسرحيات (طاغور) وعددها أربع وعشرون مسرحية ، تخطر فيها الصور والرموز والأفكار مسربلةً بنبضات قلبه . وأتت كل مسرحية تحمل جانباً من رسالته الفكرية والانسانية ، في إطار وتزويق جديدين .

ولم يكن (طاغور) يرى ضيراً في أن يمثل في مسرحياته ، حتى عدّه بعضُهم من أعظم الممثلين في عصره .

* * *

وتطلُّ من الباقة زهرةٌ ذكيةُ الأريج تهرق عطرَها وتغازل الشاعِر وتغريه بأن ينسى أوزانه وقوافيه أمداً قصيراً ، ليفسرها ويحوطها بمنطقه الهادىء العذب ، وها هي ذي تعطو غصنَها الفينانَ ، متطلعةً إلى كتابه (السادهانا) الذي يجلو فلسفته في الحياة والحب والجمال والروح ، لتُزهى ، تيّاهة ؟ معجبةً ، وهو يتحدث عنها حديث المفكر الفيلسوف :

« انظروا إلى الزهرة ، إنها مدعوة ، مهما بدت رفافةَ الحسن إلى أداء دورٍ وانجاز مهمةٍ كبيرةٍ .

ان شكلها ولونها موصولان بعملها ، وان عليها أن تؤتي أكُلَها جيداً ، لئلا توقف ديمومة حياة النبات وتدع منظر الأرض قفراً يباباً . ان لون الزهرة وأريجها متصلا السبب بذلك ، فما تكاد النحلة تلقح الزهرةَ حتى يأزف أوان الثمر ، وتتساقط أفواف تويجها الرقيقة ، وحتى يلجئها توفير قاس الى التخلي عن أريجها العذب . بعد هذا ، لن يتاح لها فسحة تبسط فيها للشمس زينتها ، فهي مشغولة بجماع كيانها .

ان الضرورة تتراءى من الخارج ، كأنها عامل الطبيعة الأوحد الذي يحدو كل شيء ، ويدفعه . فالبرعم يفضي بالضرورة إلى زهرة وبها تحور الزهرة إلى ثمرة وتنشر الثمرةُ البذرَ في الأرض ، والضرورة تنبت البذرَ من جديد ، وبه لا تأتلي السلسلة المتصلة تنتقل من جهد إلى جهد .

ولكن هذه الزهرة نفسها ، حين تخاطب قلب الإنسان فإن قضية نفعها العملي تتوارى ولا تعود موضع بحث ، وها هي ذي تضحي رمزاً للمسرة والراحة .

وهكذا فإن الشيء نفسه الذي يتجلى فيه الجهد المتصل ، هو من نحوٍ آخر ، تعبيرٌ كاملٌ عن الأمن والجمال » .

بهذا المنطق الهادئ الذي يخاطب القلب والعقل معاً ، يسلسل (طاغور) آراءه وخواطره في كتابه (السادهانا) ، فإذا بالشاعر الذي ألف أن يهدهد اسماعنا بقصائده الحلوة الشجية ، يوافينا في سَمْتِ المفكر المتأمل ليبسط لنا خواطره وفلسفته القائمة على المحبة المتممة لفلسفة (اليوبانيشاد) .

وحين يروق لطاغور أن يجلو سمات الفكر الهندي الأصيل الذي يمتح من الطبيعة والكون ويتحد معهما في كلٍّ واحدٍ منسجمٍ فإنه يصفه بالشمول ، ويؤول اتحاده الوثيق بأن المدنية الهندية قد نشأت وترعرعت في قلب الغاب ولم تنشأ كالمدنية الغربية ، ضمن اسوار المدن .

يقول (طاغور) :

« يرى الفكر الغربي ان كل شيءٍ منخفضٍ دانٍ في سلم الإنسان هو الطبيعة ، وان كل شيء يحمل سمةَ الكمال الفكري والخلقي هو إنساني ، وبالمقابل فإن الفكر الهندي لا يتردد في الاعتراف بصلته وقرابته من الطبيعة واستمرار وشائجه بكل شيء » .

ويرى (طاغور) ان الهند قد اختارت المجالي الحافلة بمظاهر الجمال لتكون اماكنَ حجيجها ، حتى يتيسر للفكر ان يجاوز افق المنافع الضيق ويشعر بأن مكانه هو في اللانهاية .

ولهذا السبب ايضاً ، نجد في الهند وحدها شعباً بأسره يمتنع عن أكل اللحوم ، رجاةَ ان ينمي شعور المحبة الشاملة لكل شيء حي ، وهو حادث فريد في تاريخ الإنسانية .

* * *

في الباقة اليانعة المخضلّة ، زهرة رشيقة لعوب ، تأتمر بريشة الشاعر الشيخ ، فتسارقها النظرَ ثم تثب إليها فتتودّدُ إليها ، ضاحكةً ، مريقةً ألوانها ، باسطةً أفوافها ، مستجديةً نظرةَ عطف .

وتسلس الريشةُ العجوزُ لاغراء الزهرة العابثة المرحة ، وتمتد إلى الاصباغ فتمزجها وتؤالف بينها ، وتنسرح نظرات الفنان إلى الألوان الرفافة ثم تنكفئ إلى نسيجة لوحته ، وتواكب نقلةَ ريشته وتهديها وتفسح أمامها عالماً من الزهر طريفاً مبدعاً .

وكذلك حلا لطاغور ان يدخل جنةَ الألوان ، وهو شيخٌ ، ليجوّد في فن التصوير ويترك قرابة ألفي لوحة تُعَدُّ تراثاً فنياً ذا شأن .

وكان كثيراً ما يعمد إلى مخطوطات قصائده ، فيمد يراعُه خطوطَ بعض الأسطر التي شطبها ويمنحها شكلاً عجيباً ، فتتراءى كأنها أشباح غريبة وافت من عالم آخر لتستقي من جداول كتابته المنمقة وتهب لحروفها معاني جديدة .

ثم طاب له أن يفزع إلى الاصباغ ويصور لوحات كبيرة ـ كان يدعوها بحق قصائدَ ملوّنةً ـ وكانت تنسجم في خطوط وألوانٍ وشياتٍ لا تسلكه في اتجاه معين من الرسم ، بل تجلوه مصوراً بارعاً ذا اسلوب خاص به ، تنساق فيه الألوان لريشته وتنقاد ، طيّعةً راضية .

* * *

في الباقة زهرات ناضرات ، تشير إلى مقالاته ورواياته وقصصه ، وتدلّك على النبع الشهي الذي تنهل منه ، انها تنفض لك ملامحَ المجتمع الهندي ، بأسلوب واقعي ، موشًى بالصور الشعرية ، وتنتقد بعض عاداته وعيوبه ، وتشقُّ له طريقاً لاحبةً مشرقة .

أجل ، كان حصاده غزيراً ، كبيراً ، فقد أزجى (طاغور) كأسَ حياته المترعة حناناً ، وقطوفَ كرومه العذبة وجني حياته ، يتلخص في مائة وعشرين مجلداً .

وغاب (طاغور) ولكن اسمه يظل ينبوعاً من نور ومحبة ، وكأني به مايزال حياً بين ظهرانينا ، يطلُّ علينا طلّةَ الشمس ، بجبينه الرحب ، ينفسح كالسماء ، بعينيه الوديعتين المتألقتين ، بابتسامته الحلوة تأوي إلى شفتيه ، وكأني بشفتيه ترتلان هذه الكلمات التي لهج بها ذات يوم :

« من أنت أيها القارئ ، أنت الذي سوف تقرؤني بعد مائة عام ؟
ليس في مكنتي أن أبعث إليك بزهرة واحدة من الاكليل الربيعي ،
ولا بشعاع مذهب واحد من تلك السحب هناك .
افتح الأبوابَ وتأملْ في المدى القصي ،
واجنِ من حديقتك الزاهرة الذكرياتِ العاطرةَ الفاغمةَ من الزهر المصوّح منذ مائة عام ،
فقد يكون في ميسورك ان تشعر والسرور يملأ عطفيك ،
بالفرحة الحية التي تغنّت ذات صباح ربيعي ،
مريقةً صوتَها الهنيءَ ، عبر مائة عام » .

بديع حقي

جيتنجالي



١

لقد جلعتني لا نهائياً ، تلك هي لذتك .

هذه الكأس الرقيقة ، انك ترتشف منها دوماً ، وتفعمها دوماً حياةً ندية .

هذا الناي الصغير من القصب ، لقد حملته معك إلى التّلاع والسهول ونفخت في ثقوبه أناشيد لا تبلى جدتها .

بلمسةِ خالدةٍ من يديك ، فان قلبي الصغير قد فرع حدوده ، جذلان ، وهفا في مناجاة غائمة .

أما هباتك التي لا تنتهي ، فليس لدي سوى راحتيّ الضنيلتين للامساك بها ، بيد ان العمر يمضي ، وأنت تهرق لي ، وسيبقى دوماً مكان ينتظر ان يمتلىء .

٢

حين تأمرني بأن اغني ، يخيَّل إليّ ان على قلبي أن ينشقّ تيهاً ، وأحدّق إلى وجهك ، فتستبقُ الدموع الى عيني .

ان كل ما في حياتي من بحةٍ وتنافرٍ يذوب ويصير إلى تناغمٍ عذبٍ ، وتبسط عبادتي جناحيها كطائرٍ فرحٍ في هيمانه عبر البحر .

إنني اعلم بأنه يسرُّك غنائي ، واعلم بأنه يؤذنُ لي كمنشد فحسب ، بأن أمثل أمامك .

إنني ألامس ، بأطراف الجناح المنبسط من غنائي ، قدميك اللتين لم يكن في ميسوري ان آمل الوصول إليهما .

وانني لأنسى نفسي ، وأنا سكران في نشوة الغناء فأناديك :

ـ ايها الرفيق ، أنت يا مولاي .

٣

اما كيف يتردد الغناء في لهاتك ، أيها المعلم ، فذلك ما لا أعلمه البتة وما عليّ إلا أن أصغي دوماً في طرب صامت .

إن نور موسيقاك يضيء الدنيا ، ولهاث موسيقاك المفعم بالحياة ، ينسرب من سماءٍ إلى سماء .

ان الموجة المقدسة المنثالة من موسيقاك تعبر الحواجز الحجرية ثم تهدر ماضيةً مسرعة .

ان قلبي يتشوّف إلى الاتصال بغنائك ، ولكنه يجهد عبثاً في الوصول إلى الصوت ، وأود أن أتكلم ، بيد أنه لا يتّسق من كلامي أي أغنية ، وانتحب باكياً ، مرتبكاً .

آه أيها المعلم ، لقد جعلت قلبي أسيراً في شباك موسيقاك التي لا نهاية لها .

٤

يا حياةَ حياتي ، سأحاول دوماً ان احتفظ بجسدي نقياً ، عالماً بأن لمستك الحية تستروح الغفوَ فوق اعضائي كلها .

سأحاول ان اجعل أفكاري بمنجىً من أي زيف ، عالماً بأنك أنت الحقيقة التي توقظ نور الحق في فكري .

سأحاول أن اقصي دوماً الشرور من قلبي ، وان ادع حبي مفوّفاً بالزهر عالماً بانك تسكن في المذبح الخفي من قلبي .

وسأجهد في ان اجلوك في اعمالي ، عالماً بأن قدرتك هي التي تمنحني القوة في العمل .

٥

أطلب إليك أن تمنّ علي فتأذن لي بأن أستريح لحظةً إلى جانبك ، أما الاعمال التي شرعت فيها فسأنهيها إثر ذلك .

إن قلبي المحروم من التطلّع إلى وجهك لا يعرف راحةً ولا استقراراً ، وان جهدي ليس إلا عناءً متصلاً في بحر من العناء غير محدود .

اليوم وافى الصيف إلى نافذتي ، مصحوباً بزفراته وهمساته ، وشرعت النحلات المتسابقة تغازل الباقة المزهرة .

أزف وقت الاستجمام ، ووجهي قبالة وجهك ، وحان وقت الغناء الذي تُنذر له الحياة ، في ذلك الصمت وذلك الفراغ الخصيب .

٦

أقطفْ هذه الزهرة الصغيرة ، أمسك بها سريعاً ، لئلا يدهمها الذبول وتتناثر أفوافُها في التراب .

وإذا لم تحظ بمكانٍ من إكليلك ، فلا تضنّ عليها ، مع ذلك ، بشرف اللمسة الموجعة من يدك : اقطفها .

أنا أخشى أن يتصرّم النهار قبل أن اعرف ذلك ، وقبل أن يفوت وقتُ تقديم الهدايا .

ورغم ان لون هذه الزهرة ناصلٌ نحيلٌ ، ورائحتها وانيةٌ ، فخذْها لخدمتك واقطفها في أوانها .

٧

لقد تجردّت أغنيتي من حليها ، فلن تُزهى بها بعد الآن ، ان الحلْيَ قد يعيق اتحادنا ويفصل بيننا ، فالجلبة التي تخلص من وسوسته قد يطغى على همساتك .

ان زهوي كشاعر ينكفئ من الخجل أمام نظرتك ، آه أيها المعلم الشاعر ، لقد اتخذت مجلسي بحذاء قدميك ذرني اجعل حياتي بسيطةً مستقيمةً شبيهةً بقصبة الناي حتى تقدر أنت أن تملأها بموسيقاك .

٨

ان الطفل الذي يرتدي ثوب الإمارة ، ويضع حول عنقه الاطواق ، ويفقد لذته كلها في اللعب . فان ثوبه يعيق كل خطوة يخطوها .

انه لينتبذ مكاناً بعيداً ، لا يجرؤ ان يريم ، خشية ان يبلى ثوبه وان يعلو حَليه الغبار .

اماه . ايجدر به ان يكون حبيس هذا الترف ، بمنأى عن غبار الأرض النافع ؟ أفما تحرمينه هكذا من حق مشاركته في العيد العظيم من الحياة الانسانية المشتركة ؟

٩

ايها المخبول الذي يحاول ان يحمل نفسه على كتفيه ، ايها المتسول الذي يقدم ليستجدي من باب بيته نفسه .

ضع اعباءك بين يدي من يستطيع ان يحمل كلّ شيء واياك أن تلقي بنظرةٍ حسيرةٍ إلى خلف .

ان اشتهاءك يطفئ شعلة المصباح إمّا لامستها أنفاسه ، انه مدنس ، فلا تقبل أي عطاء تعرضه يداه الملوثتان ، وارضَ بما يقدمه إليك الحب المقدس فحسب .

١٠

ههنا المتكأ الذي تستريح فوقه قدماك ، حيث يعيش ذو المتربة والحقير والضائع .

حين احاول أن انحني امامك ، فإن طاعتي لن يتأتى لها الوصول إلى ذلك الغور العميق ، حيث تستريح قدماك بين الفقير والحقير والضائع .

حيث لا تُزهى الكبرياء ثمة تسير أنت ، في شملة المتواضع ، بين الفقير والحقير والضائع .

ان قلبي لن يجد سبيله نحو من ترافقهم بل نحو من لا رفيق لهم ، بين الفقير والحقير والضائع .

١١

اصدفْ عن تراتيلك وذرْ غناءك واهجر سبحتك ، من ذا الذي تتعبد له في تلك الزاوية المظلمة من معبدٍ نوافذه كلها مغلقةٌ ؟ افتح عينيك وانظر لترى ان الله ليس امامك ، ههنا .

إنه هناك ، حيث الفلاحُ يحرث الأرض الجاسية ، وعلى طول الطريق ، حيث يجهد العامل في كسر الحجارة انه معهما ، بثيابه المعفرة ، تحت أشعة الشمس ووابل المطر ، انضُ معطفك التقي واهبط مثله ايضاً إلى التراب .

الخلاص ؟ أين تزعم انك تجدُ الخلاص ؟ أفلم يُغْنَ مولانا نفسه وهو مغتبطٌ ، بروابط الخلق ؟ لقد اتصل بنا إلى الأبد .

اترك تأملاتك ودع زهورك وبخورك ، ماذا يضر إن تمزقت ثيابك أو تلوّثت ؟ اذهب وألزم جانبه في جهدك وفي عرق جبينك .

١٢

إن الوقت الذي تستغرقه رحلتي طويلٌ ، فالدرب طويلة . لقد خرجتُ وعلوتُ المركبة ، عند انسياب أول شعاع من النور ، وتابعت سفري في قفار الدنى ، تاركاً أثري فوق شتيت النجوم والكواكب .

إن أبعد مرحلة هي التي تجعلني أكثر دنواً منك ، وان أكثر الانغام التياثاً هي التي تقودُ إلى بساطة اللحن الكاملة .

على المسافر ان يقرع مختلف الأبواب قبل ان يصل إلى بابه ، ينبغي له

الضرب في جميع العوالم الخارجية حتى يصل أخيراً إلى أعماق المعبد .

لقد تركت عيني تنظران بعيداً ، فترة طويلةً ، قبل أن أغمضهما وأقول : أأنت هنا ؟

هذا السؤال ، هذا النداء : آه أين هو ؟ ذاب في دموع آلاف الجداول وغمر العالم في موجة هذا اليقين : هآنذا .

١٣

ان النشيد الذي كان علي أن أغنية ، لم تهتف به شفتاي حتى اليوم ، لقد امضيتُ أيامي في ضبط أوتار معزفي وارخائها .

لم يتأتّ لي الوقوعُ على الضرب الصحيح ، فالألفاظ لم تكن متساوقة جيداً ، غير أنه قد تبقى في قلبي احتضارِ أمنية .

إن البرعمَ لم يتفتح ، بيد ان الهواء ينسمُ قربه .

لم أرَ وجهه ، لم أعرْ اذني إلى صوته ، لكنني سمعت خفق خطاه الهادئة أمام بيتي .

إن نهار حياتي كله قد انقضى ، وأنا أعِدُّ في بيتي مكانَ جلوسه ولكن المصباح لم يشعَل ولا أقدرُ أن أدعوه إلى دخول بيتي .

انني أحيا على تعلّة لقائه ، بيد أن هذا اللقاء لم يتسق بعد .

١٤

ان رغباتي جمةٌ وشكاتي قمينةٌ بالرثاء ولكنك تنقذني دوماً برفضٍ متصلٍ قاسٍ ، وقد حيكت هذه الرحمة القاسية طوال حياتي كلها .

انك تهيئني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بهذه العطايا الكبيرة

الساذجة : ـ السماء والنور والجسد والحياة والفكر ـ التي تقدمها إليَّ عفواً والتي تقيني مخاطرَ الرغبة الجامحة .

وإنني لأتخلف حيناً وقد استبدّ بي السأم واستيقظ حيناً آخر فأبادرُ بالسعي خلف هدفي ، ولكنك تتوارى عن وجهي في قسوة .

انك تهيئني ، يوماً بعد يوم ، لأكون جديراً بلقائك كله وذلك برفضك إياي دوماً ، وانقاذك إياي من مخاطر الضعف والرغبة المتقلِّبة .

١٥

إنني ماثلٌ هنا ، لأهزجَ لك بالأغاني ، ان لي في هذه الغرفة التي تخصك ، مكاناً اتخذ مجلسي فيه .

ليس لديّ أيُّ عمل أقوم به في عالمك ، إن حياتي العقيمة لا تعرف إلا أن تتسلسل انغاماً لا غاية لها .

حين تأزف ساعة صلاتك الصامتة في حلكة معبد منتصف الليل ، مرني يا مولاي ، أمثل أمامك لأغني لك .

حين يُعدُّ المعزف الذهبي ، عند هبوب نسيم الصباح ، هبْ لي شرفَ استدعائك إياي .

١٦

لقد تلقيت دعوتي إلى عيد هذا الكون ، وهكذا ظفرت حياتي بالبركة . لقد رأت عيناي وسمعتْ أذناي .

لقد كان نصيبي من هذا العيد ان أضرب على معزفي وقد قمت بكل ما كان في مقدوري أن أفعل .

وإنني لأسأل الآن : تُرى أيوافي الزمن الذي أستطيع فيه أن أقدم وأنظر إلى وجهك وأزجي إليك تحيتي الصامتة ؟

١٧

إنني انتظر الحب فحسب ، لأهب نفسي بين يديه ولهذا فقد فات الوقت ، ولهذا فقد أضحيت مسؤولاً عن مثل هذا التخلي .

انهم يأتون بقوانينهم ونظمهم ليقيدوني ، ولكنني انجو منهم دوماً ، اذ انني انتظر الحب فحسب لأهب نفسي بين يديه .

يلومني الناس ويرمونني بالاهمال ، انني لا اشكُ في أنهم محقون في اللوم .

لقد مضى يوم البيع والشراء ، وتمت صفقة الأعمال ، إن الذين يطالبونني ، عبثاً ، قد انكفأوا غاضبين ، انني انتظر الحب وحده . لأهب نفسي ، أخيراً ، بين يديه .

١٨

إن شتيت الغمام يزحم بعضه بعضاً ، السماء مظلمة ، آه أيها الحب ، لِمَ تركتني وحيداً انتظر أمام الباب ؟ .

في زحمة عمل النهار أكون مع جموع الناس ، بيد أنني في يوم مظلم موحش كهذا اليوم ، لا أتمنى سواك .

اذا لم ترني وجهك ، وتخلّيت عني ، فإنني لا أدري كيف أمضي هذه الساعات الطويلة الممطرة .

وأبقى لأتأمل في ظلام السماء المنتشر ، وقلبي الشاكي يرود ، دون راحة ، مع النسيم .

١٩

إن لم تتكلم ، فسأتحمل ، في الحق ، صمتك ، وسأملأ به قلبي .

سأنتظر ساكناً ، في الليلة المتلامحة النجوم ، ورأسي حانٍ مطرق .

سيقبل الفجر ، بلا ريب ، وستنقشع الظلمة ، وسيسيل صوتك في رعشات مذهبة تنسرب عبر السماء .

حينذاك ، ستّتسق كلماتك في أغنيات حول أي عش من أعشاشي وتتشقّق أغنياتك زهوراً في جميع منعطفات غاباتي .

٢٠

في اليوم الذي تتنور فيه زهرة اللوتس ، فإن فكري وأسفاه ، سيهيم في مغامرته دون أن يتاح لي أن أعقله[١] .

كانت سلتي فارغة ، فظلت الزهرة مهملةً .

غير أن حزناً كان يستبدُ بي أحياناً ، فكنت استيقظ من حلمي ، مرتعداً وكنت اتنسم الأثر الناعم الذي يتركه العطر العجيب في ريح الجنوب .

كانت هذه النعومة المبهمة تجعل قلبي مريضاً بالرغبة وكان يخيل إليّ ، انني اتقرّى فيها زفرة الصيف المتّقد وهو يجهد مستشرفاً كماله .

لم اكن أعلم أن كل هذا كان دانياً قريباً ، وان ذلك كان لي ، وان هذه العذوبة الكاملة قد تفتحت في أغوار قلبي .

---

(١) اعقله : أشده .

٢١

عليّ أن أدفع زورقي : ان الساعات المضنية تمرُّ على الشاطئ ـ وأسفاه ـ من أجلي .

لقد أتى الربيع الطّلقُ ثم ولّى ، وأنا الآن مثقلٌ بالزهور الذاوية الذابلة ، انتظر واتخلف .

لقد أضحت الأمواج صخّابة ، ووراء الضفة ، ترتعش الأوراق الصفرُ وتتساقط في الدرب الظليلة .

في أي فراغ تتأمل ؟ ألم تشعر برعشةٍ تجوز الفضاء وتواكب أنغام النشيد البعيد الذي يتناهى من عُدوة الشاطىء الآخر ؟

٢٢

في الظلال الممتدة من شهر تموز الممطر ، تسير أنت منسرق الخُطا ، كتوماً كالليل ، متحاشياً كل العسس .

اليوم اغمض الصباح جفنيه ، غير ملتفت إلى نداءٍ ملحاحٍ من ريح الشرق ، وانتصب شراعٌ صفيقٌ في السماء الصاحية الزرقاء .

لقد خنقت الغابات أغنياتها ، وأوصدت أبوابُ كل بيت .

في هذا الشارع المقفر ، انت العابر المنفرد ، آه يا رفيقي الوحيد ، ياحبيبي الأثير ، إن أبواب بيتي قد فُتحت فلا تذهب وتنتسخ كالحلم .

٢٣

يا رفيقي ، هل كنتَ خارج البيت في هذه الليلة العاصفة ، متابعاً

رحلة حبك العاشقة ؟ ان السماء تنحبُ كالولهى اليائسة .

يا رفيقي ، لم يجد النعاس ، الليلة سبيلاً إلى جفني ، في كل لحظة ، افتحُ الباب واتقرى الظلمات بعيني .

لا ألمح شيئاً أمامي ، وانني لأحار أين تمتدُ دربك . يا رفيقي ، تُرى حول أي ضفة مبهمة من النهر الأسود كالمداد ، وفي أي طرف قصي من الغابة المتوعدة تنشد طريقك لتأتي إليَّ ؟

٢٤

إذا انقضى النهار وتوقفت العصافير عن لغوها وانهدّتِ الريح المتعبة ، فاسدل فوقي قناع الظلام مثلما سربلتَ الأرضَ بسجوف النوم ، وأطبقت في رأفة وحنان ، أفواف زهرة اللوتس الوانية في غسق الليل .

أبعد الخزي والفقر عن المسافر الذي فرغ مزوده[١] قبل أن يتم رحلته ، عن المسافر الذي تهلهلت ثيابه وتعفّرت ، عن المسافر الذي تخاذلت قواه ، وحَددْ حياته كالزهرة حين يشتملها ليلُك اللطيف الرقيق .

٢٥

في ليلة الضجر ، اسمح لي بأن أستسلم ، دون عناء إلى الرقاد ، ودع ثقتي تستمسك بك . لا تسمح لفكري المضنى بأن يهيىء لك عبادة تافهة .

أنت وحدك الذي يسدل قناع الليل على عيون النهار المتعبة لتتجدد غضةً جذلى في يقظتها .

---

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد .

٢٦

لقد جاء وجلس إلى جانبي ولكنني لم أستيقظ ، فلتحل اللعنة على ذلك الرقاد ، آه يا لي من بائس!

لقد جاء حين كان الليل ساجياً ، وكان معزفه بيده وجعلت أحلامي كلها تناغم أغنياته .

واحسرتي ، لماذا أصبحت لياليّ كلها هكذا ضائعة ؟

آه ، لماذا يتوارى عن ناظري دوماً ذاك الذي تدغدغ أنفاسه رقادي ؟

٢٧

النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلىء النور حياةً من نار الرغبة المتأججة .

هذا هو الصباح ولكن لا ترتعش فيه أي شعلة .

أهذا هو قدرك يا قلبي ؟ آه لعل الموت أفضل لك كثيراً .

ان البؤس يقرع بابك ورسالته إليك هي أن يكون مولاك ساهراً يقظان ، وان يدعوك إلى موعد الحب ، عبر ظلام الليل .

السماء تغصُ بركام الغيوم ، والأمطار لا تني أو تفتر ، لا أدر ي ما الذي يجيش في قلبي ولا أعلم ما يعنيه .

إن وميض البرق المفاجىء قد أزجى إلى عيني ظلمةً ممتدةً ، وان قلبي يبحث عن الدرب التي تناديني منها موسيقا الليل .

النور ؟ آه أين النور ؟ ليمتلىء النور حياةً من نار الرغبة المتأججة .

الرعد يتهزَّم والريح تهبُ عبر المدى مزمجرة ، الليل داجٍ كالحجر الأسود .

لا تدع الساعات تمر في الظلمة ، وأشعل مصباح الحب من قبس حياتك .

٢٨

ان عقباتي لعنيدة ، وان الألم ليحزُ في قلبي حين احاول أن اذللها .

انني احتاج إلى الخلاص فحسب ، بيد انني استشعر الخجل إما تمنيته .

انني موقنٌ ان في نفسك غنىً لا يمكن تقديره وانك آثر رفيق لدي ، غير أنني لا أجرؤ على أن أزيل من غرفتي بهرجة الرياش التي تملؤها .

ان الكفنَ المسدلَ فوقي هو كفن الترابِ والموت وانني لأكرهه ، ولكنني أشده وأجذبه إليّ بشغف ووجد .

ديوني جمة وخيبتي متصلةٌ وخجلي ثقيلٌ خفيٌ ، بيد أنني أرتعش ، حين أقبل مطالباً بثروتي ، خشية أن لا تلبي طلبتي .

٢٩

إن اسمي هو سجنٌ يبكي فيه من أحبسه بين جدرانه أنني أعنى دوماً ، برفع صرح حول نفسي ، وحين يسمق هذا الصرح ، متطاولاً ، يوماً فيوماً ، فإنني أضيع عن ناظري في ظله المظلم ، وجودي الحقيقي .

وانني لأتيه فخراً بهذا الصرح الكبير ، وأرمِم أطرافه بالتراب والرمل ، خشية حدوث ثغرة ، مهما تكن صغيرة

ولكنني ، في كل هذه العناية التي احيط بها اسمي فانني أضيّع عن ناظري وجودي الحقيقي .

٣٠

لقد خرجتُ وحيداً ، لأذهب إلى هذا الموعد ، ولكن من الذي يتبعني في الظلمة الصامتة ؟

انني أبتعد متجنباً لقاءه ، غير أنني لم أنجُ من تعقبه ، انه يهيج الغبار بصلفه وزهوه ، ويواكبُ بصوته الصاخب كلّ كلمة ألهجُ بها .

إنه تلك (الأنا) الحقيرةُ ، آه يا مولاي ، إنه لا يعرف الخجل ، ولكنني أخجل من مثولي على بابك بصحبته .

٣١

ـ أيها السجين ، قلْ لي اذن من الذي كبّلك بالقيد ؟ وقال السجين :

ـ إنه معلمي... لقد كنت احسب ان في استطاعتي أن أفوق أيّ انسان في هذا العالم ثراءً وسلطاناً وكنت أحتجن[١] ، في مخبأ كنوزي ، كلَّ المال الذي كان عليّ أن أؤديه إلى ملكي ، فلما غلبني النومُ ، تمددتُ فوق السرير الذي أعدّ لمعلمي ، فلما استيقظتُ ألفيتُني سجيناً في مخبأ كنوزي .

ـ أيها السجينُ قلْ لي من الذي صنع هذا القيد الذي لا يتحطّم ؟

وقال السجينُ :

ـ أنا الذي صنع هذا القيد ، بعنايتي ، وكنت أحسب ان سلطاني الغلاّب سيشدّ العالم الأسير ، مثبتاً إياه ، ومتيحاً لي حريةً لا يكدِّر صفوها شيء .

---

(١) احتجن : اختزن .

وهكذا كنت ، لا أني اصنعُ القيد ، ليلاً ونهاراً ، وأسوّيه بنارٍ متأججة وضربات قاسية ، فما كاد ينتهي العملُ وتتماسك حلقاتُ القيد حتى الفيتُني أنا الذي كُبّلتُ به .

٣٢

أولئك الذين يحبونني في هذا العالم ، يحاولون بجميع الوسائل ، أن يجعلوني بمأمنٍ ، وليس الأمرُ كذلك مع حبك الذي هو أكبر من حبهم ، فانك تتركني حراً .

انهم لا يجرؤون أبداً على تركي وحيداً لئلا أنساهم ، ولكن الأيام تتعاقب ، وأنت لا تبدو البتة ، وعلى أنني لا اذكرك في صلواتي ، وعلى أنني لا أجذبك للبقاء في قلبي فإن حبّك لي مايزال ينتظر حبي .

٣٣

حين متع النهار ، أقبلوا على بيتي وقالوا :

ـ لن نشغل هنا إلا أصغر غرفة .

ثم قالوا :

ـ سنمدك بالعون في عبادة ربك ، وسنقبعُ ، متواضعين راضين ، بنصيبٍ من رحمته فحسب .

ثم انتحوا زاويةً من الغرفة وقبعوا فيها ، هادئين .

ولكن ، حين جَنَّ الليلُ ، وجدتهم قد انتهكوا ، بجرأة وصخب وجشعٍ دنيءٍ ، حرمة معبدي المقدس وألفيتُ المذبح سليباً من قرابينه .

٣٤

أبق لي بعض نفسي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أدعوك : يا جماع نفسي .

أبق لي بعض ارادتي فحسب ، حتى يتيسر لي أن أشعر بوجودك إلى جانبي وأن أوافيك مع الأشياء كلها ، وأن أقدِّم إليك حبي في أي لحظة .

أبق لي بعض نفسي حتى لا يتأتى لي أن أخفيك .

أبق لي تلك الصلة الصغيرة ، صلة حبك ، التي تربطني إلى ارادتك والتي انسابت بغيتُك بواسطتها إلى حياتي .

٣٥

هناك ، حيث لا يلابسُ الفكر خوفٌ ، ويكون الرأسُ متلعاً إلى العلاء .

هناك ، حيث تكون المعرفة حرةً .

هناك ، حيث لم يجزّأ العالم بين حواجزَ ضيقةٍ مشتركة .

هناك ، حيث تنبثق الكلمات من أغوار الاخلاص .

هناك ، حيث الجهدُ الذي لا ينصبُ ، ويبسط ذراعيه نحو الكمال .

هناك ، حيث لا يضلُّ العقل النيِّرُ في الصحراء الموحشة من العادات البالية .

هناك ، حيث يتقدمُ الفكرُ ـ الذي تقوده أنت ـ في المدى الرحيب من الفكرة والعمل .

أجل ، في نعيم الحرية ، أبتاه ، دعْ وطني يستيقظ .

٣٦

هذه صلاتي إليك ، يا مولاي ، اضربْ ، اضربْ جذور ذلك الفقر في قلبي .

هب لي القوة لا تحمل في هينةٍ ويسرٍ ، آلامي وأفراحي .

هب لي القوة لأجعل قلبي مثمِراً في خدماته .

هب لي القوةَ لأعمل على ألا أتنكّر للفقير وألا أثني ركبتي أمام السلطان المتحدّي .

هب لي القوةَ لأرقى بفكري بعيداً عن السفاسف اليومية .

هب لي القوة لأضع قوتي ، في شغف ، تحت ارادتك .

٣٧

كنت أحسب أن رحلتي قد شارفتْ نهايتها ، حين توصلتُ إلى الحدّ الأقصى من سلطاني ، وأن الدرب الممتدة أمامي قد سدَّتْ ، وأن ذخيرتي قد نفدت ، وان الزمن قد أتى ليفيء إلى ظلامٍ صامت .

بيد أنني اكتشفتُ ان ارادتك لا تعرف نهايةً في نفسي ، وحين تذوي الكلمات القديمة في اللسان ، فان اغنيات جديدةً تتفجّر في القلب وحيث تمّحي آثار الأقدام القديمة ، فإن أرضاً جديدة تتراءى بمعجزاتها الرائعة .

٣٨

أنت الذي أريد ، أنت وحدك ، فليردّدْ قلبي هذا دون انقطاع .

إن كل لذاتي التي انعم بها ، ليلاً ونهاراً ، هي زائفةٌ حتى اللباب .

وكالليل الذي يخفي في ظلمته رغبة النور في الانبثاق . فان في أعماق شعوري تدوّي هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .

وكما تتشوّف العاصفة إلى نهايةٍ هادئةٍ ، حين تهب بجماع قوتها ، ضدّ الهدوء ، فإن ثورتي ، تهب ضدّ حبك وتدوّي منها هذه الصيحة : أنت الذي أريد ، أنت وحدك .

٣٩

حين يكون القلب جاسياً جافاً ، فاهبط عليّ في شؤوبٍ من الرحمة .

حين تفقد الحياة عذوبتها ، فأقبلْ عليّ في غناءٍ هادرٍ .

حين يرفع العمل الصاخب صوته في كل الأرجاء ، مبعداً إياي عن هناك ، فتعال إليّ يا سيد الصمت بأمنك وراحتك .

حين يجثم قلبي المعنّى ، لائذاً بزاويةٍ ، فادفع الباب يا ملكي ، وأقبلْ في مهرجانٍ ملكي . حين تُعشي اللذةُ فكري بسرابها وغبارها ، فتعال إلي أنت أيها القدس الأوحد ، أنت أيها اليقظ ، ببرقك ورعدك .

٤٠

آه يا رب ، لم يهطل المطرُ منذ أيامٍ عديدةٍ في قلبي القاحل ، ان الأفقَ قد عُرّي بقسوةٍ ، فليس فيه أيّ شيةٍ صغيرةٍ لسحابةٍ ولا إشارة قريبة إلى ديمةٍ رطبة .

ارسلْ عاصفتَك مغيظةً كالحةً ، مفعمةً بالموت ، ان كانت هذه هي رغبتك ، وشُقّ جنباتِ السماء بإلهابِ برقك .

ولكن اذكرْ يا مولاي ، اذكرْ ذلك الحرّ المقيتَ الصامتَ الشديدَ القاسيَ الذي يتلظّى به قلبي اليائس .

ارسلْ الينا من أعلى سمائك ، سحابةَ العفوِ الشبيهة بنظرةٍ دامعةٍ من عيني الأم ، حين يكون الأب حانقاً .

٤١

يا حبيبي ، أين تقفُ خلفَهم جميعاً ، موارياً نفسَك في الظل ؟ انهم يدفعونك وهم يمرون في الطريق المغبرّةِ ولا يعيرونك أيّ التفات .

انني أمضي ساعاتٍ مضنيةَ وأنا أقدّمُ إليك قرابيني ، ولكنّ العابرين يأتون ليأخذوا زهوري ، زهرةً فزهرةً ، وعما قريب ستصبحُ سلتي فارغة .

لقد ولّى الصباحُ ، وانقضت الظهيرةُ ، ان عينيّ مثقلتان بالنعاس في ظلّ المساء ، إن الرجال الذين يؤوبون إلى بيوتهم يخالسونني النظر ويبتسمون فأمتلىء خجلاً ، انني اجلسُ مثل الفتاة المتسولة مدانية ذلاذل ثوبي[1] إلى وجهي وحين يسألونني عما أريد فإنني أغضّ طرفي ولا أجيب .

آه كيف يمكنني ، في الحق ، أن أقول لهم إنك أنت الذي انتظرُ وأنك وعدتني بأن تأتي ؟ كيف أبوح لهم أنني قبلت فقري صداقاً ؟ آه انني أجذب كبريائي إلى حنايا قلبي .

إنني جالسةٌ فوق العشب ، أتأملُ في السماء ، واحلمُ بروعة مجيئك المفاجىء ، تحيطُ بك المشاعلُ وترفُّ حول مركبتك أجنحةٌ ذهبيةٌ ، إنهم يقفون على حيد الطريق وقد فغروا أفواههم وهم يرون إليك تتركُ مجلسك وتنتشلني من التراب ، لتضَعَ إلى قربك تلك الفتاةَ المتسولةَ المهلهلة الثياب ، وهي ترتعشُ خجلاً وزهواً ، كأنها عريشةٌ يجاذبها نسيمُ الصيف .

ولكنّ الزمن يتجرّم ولا أسمع دوماً ضجة عِجال مركبتك ، وتترادفُ

---

(١) ذلاذل الثوب : أطرافه .

مواكبُ جمةٌ ، يصحبُها ضجيج المجد وجلبته وسحره ، أفلا يوجد اذن سواك من يود البقاءَ ، صامتاً ، في الظل ، خلفَهم جميعاً ؟ أفلا يوجد إذن سواي من تود البقاء والانتظار والبكاء وإجهاد قلبي بالأمل العقيم ؟

٤٢

عند منبلج الفجر ، تردّد همس أننا سنبحر في زورقٍ وانه ليس ثمة روحٌ في الكون تعلم عن رحلتنا التي لا غاية لها ولا نهاية .

في هذا الخضم الذي لا شاطىء له ، وعلى ابتسامتك الصامتة اليقظى ، فإن اغنياتي قد تمتلىء انغاماً ، حرةً كالأمواج ، حرةً من أسر الكلام .

ألم يحن انوقت بعد ؟ ماذا تبقى من العمل هنا ؟ انظر ، إن السماء قد هبطت الى الشاطىء وعلى النور الناصل ، هفت عصافير البحر ، طائرةً نحو أعشاشها .

ألم يحن الوقت للاقلاع ؟ فليغب زورقنا أخيراً ، كآخر شعاع من أشعة الغروب ، في الليل .

٤٣

كان ذلك يوماً ، لم أكن متهيئاً فيه إلى لقائك ، ولقد وسمت يا ملكي وأنت تدخل دون دعوةٍ إلى قلبي كشخص من غمار الناس ، مجهولٍ من نفسي ـ لقد وسمت بطابع الخلود بعضَ اللحظات العابرة من حياتي .

والآن ، حين أعثر عليها ، مصادفةً وأرى فيها إلى ميسمك فإنني أجدُها مطروحةً في التراب ، منثورةً بين هناءات الأيام العادية المنسية وأحزانها .

إنك لم تهزأ بلعبتي ، لعبة الطفل ، فوق التراب ، وان خفق الخطا الذي كان يتناهى إلى سمعي من غرفة طفولتي ، هو الذي يتجاوب صداه بين نجمٍ ونجمٍ .

٤٤

تلكم هي لذتي : ان أنتظر وأرقب على عذار الطريق حيث يسعى الظل وراء النور ، ويوافي المطرُ في أعقاب الصيف .

ويحييني رسلٌ قادمون بالاخبار من سماوات مجهولة ، ثم يغذّون السير في مدى الدرب ، إن حنايا قلبي ممتلئةٌ بالغبطة ، ولهاثُ النسيم العابر عبيقٌ بالعذوبة .

من الفجر إلى الغروب أقف هنا ، أمام بابي ، انني أعرف ان اللحظة السعيدة ، ستقبل ، فجأةً ، حين يتيسر لي أن أرى .

ومع هذا ، فإنني أبسمُ وأغني ، في وحدتي ، ومع هذا فإن الفضاء معطرٌ بشذا الوعد .

٤٥

ألم تسمعْ خفق خطواته الصامتة ، إنه آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .

في كل لحظة ، في كل عمر ، في كل يوم وليلة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .

لقد غنيتُ أكثر من أغنية ، وعلى أكثر من ضرب ، ولكن كلّ نغمة منها ، كانت تنادي هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، دوماً .

في الأيام المضمخة بنيسان الضاحي ومن درب الغابة هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ أبداً .

في الليالي العاصفة المظلمة من تموز ، وعلى مركبة السحاب الصاخبة ، هو آتٍ ، آتٍ ، آتٍ ، أبداً .

اشعرُ بألمٍ يعقب ألماً ، تلك هي خطاه التي تضغط على قلبي وحين تتألَق فرحتي ، ففي اللمسة المذهبة من قدمه .

٤٦

انني لا ادري من أي الأزمان الخالية أنت تقدم إلى لقائي ، لتكون دوماً أكثر قرباً .

لن تقدر شمسك ونجومك أن تواريك عني إلى الأبد .

كم من صباحٍ ومساءٍ ، تناهى فيهما خفق خطاك إلى السمع وتسلّلَ رسولك إلى قلبي ، وأسرّ إليّ نداءه .

انني لا أدري علامَ تبدو حياتي ، اليوم ، مستوفزةً نشوى ، وعلام تنسرب إلى قلبي فرحةٌ راعشة .

وكأن الزمن قد قَدِمِ إلي ، لينهيَ عملي ، إنني استنشي في الفضاء أريجاً لطيفاً يضوع من وجودك العذب .

٤٧

يكاد الليل أن ينقضي في انتظاره عبثاً ، انني أخشى أن يقدمَ فجأة ، في الصباح إلى بابي ، وأنا نائمٌ متعبٌ منهوك القوى .

آه أيها الرفاق ، دعوا الطريق لاحبةً أمامه ولا تصدوه .

وإن لم يوقظني خفق خطاه ، فلا تحاولا إيقاظي . أتمنى ألاّ يُرنّق نومي بصداح الطير ولا بهينمة النسيم في نور الفجر الزاهي ، دعوني أغفُ ، في دعةٍ وهدوءٍ ، ولو أتى مولاي نفسه فجأة ، ومثلَ امام بابي .

آه ، يا غفوتي ، أيتها الغفوه الغالية التي تنتظر لمسته فحسب حتى اغيب .

آه ، ان جفنيْ عينيّ المغمضتين ، لن ينفرجا إلا على نور ابتسامته ، حين يقف امامي كحلمٍ منبثقٍ من ظلمة النوم .

دعوه يظهر امام بصري كأول شعاع وأول شكل بين الأشعة والأشكال .

دعوه يقبلْ بنظرته ، عند أول رعشة من يقظة روحي واجعلوا عودتي إلى نفسي تعقب ، على الفور ، عودتي إليه .

٤٨

كان الفجر الصامتُ الممتدُ كالبحر ، يرتعشُ بأغنيات الطيور ، وكانت الزهور جذلى ، على حيد الطريق . ومن فرجات الغيوم ، كانت الاشعةُ المذهبةُ تبذل خيرها ومع هذا فقد كنا نتخذ سمتنا في الطريق ، لا نعير انتباهنا لشيء .

ولم نكن ننشدُ أغنية فرحى أو نلهو ، ولم نكن نذهب إلى القرية لنتكسّب ، ولم نكن نتبادل أي كلمة بَله أي ابتسامة ، ولم نكن لنتخلفَ في الطريق ، فكنا نحثُّ خطانا ونغذُّ السيرَ والزمنُ يدفعنا .

واحتلت الشمسُ كبدَ السماء ، وجعلت طيور اليمام تهدلُ في الظل ، وكانت ورقاتٌ جافةٌ تتراقص وتتهاوى في ريح الظهيرة ، وكان الراعي الطفل يهوّم ويحلمُ في فيء شجرة التين ، وقد استلقيتُ على ضفة الماء ووسّدت اطرافي المرتهكة[١] على العشب .

وضحك مني رفاقي وأتلعوا رؤوسهم ، وقد ملأهم الاحتقار ثم مضوا دون ان يصيبوا راحة أو يلقوا نظرهم إلى خلف ، لقد اختفوا في زرقة الفضاء الغائم البعيد .

لقد جازوا سهولاً وفرعوا ربىً ، وضربوا في بقاعٍ من الأرض غريبةٍ نائية .

المجد لك يا كتيبة الابطال ، في الدرب التي لا تنتهي .

لقد غمز الهزءُ مني فنهضت على الاهانة ، بيد أنني لم أجد شيئاً أردُّ به ، واستسلمت ، وقد شملني خزيٌ هنيءٌ ، إلى ظل فرحةٍ قاتمة .

(١) المرتهكة : المسترخية من التعب .

ان راحة الحلكة الخضراء الموشاة بأشعة الشمس تتسلل كسلى الى قلبي ، لقد نسيتُ لِمَ رحلت وتركت فكري يستسلم دون مقاومة الى شبكة الظلام والاحلام .

ولما فتحت أخيراً عيني واستيقظت من غفوتي ألفيتك منتصباً أمامي ، وقد غمرت رقادي بابتسامتك .

لكم خشيتُ أن تكون الطريق طويلةً شاقةً . وان يكون الجهد المبذول في الوصول إليك صعباً قاسياً .

٤٩

من أعلى عرشك هبطتَ ، وامام باب كوخي الصغير وقفتَ .

وغنيت وحدي ، في زاوية ، فتأدّت أغنيتي إلى أذنك ، وهبطتَ من عل ، ووقفتَ امام باب كوخي .

ان المغنين في قصرك كُثرٌ ، والأغاني ترتّلُ في أي ساعة ، غير أنه قد استهواك ذاك الغناء الساذَج ، ينشده هذا الراهب الصغير .

وامتزج ايقاعٌ شاكٍ خفيضٌ بموسيقا الكون الكبيرة ، فهبطت مع زهرةٍ ، كجائزةٍ سنيةٍ ، وقفت امام باب كوخي .

٥٠

لقد مضيت استجدي من باب إلى باب ، على طريق القرية ، حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد كأنها حلمٌ رائعٌ ، وجعلت أرامق بإعجاب ، ذاك الذي كان ملك الملوك .

ورفَت تعلاتي فكنت أفكر في أن أيام بؤسي قد انقضت ، وهأنذا أنتظرُ

العطايا العفوية والخيرات المنثورة ، هنا وهناك على التراب .

وتوقفت المركبة حيث كنت انتصبُ ، وصافحتني نظرتك ، فنزلت وأنت تبتسم ، وشعرت أن حظ حياتي قد أقبل أخيراً ، ومددتَ فجأة ، يدك اليمنى ، وقلت : ماذا لديك من عطاء ؟

آه ، أي عبث ملكي في بسطك راحتك الى المتسول لتستجدي منه! ولقد ارتبكت وحرت ، ثم تناولت ، في خفةٍ ، حبة قمح صغيرة من جرابي واعطيتك اياها .

ولكن... كم كان عجبي كبيراً ، آخر النهار ، حين وجدت ، وأنا أفرغ جرابي على الأرض حبةً صغيرةً من الذهب بين كوم من الحبات الحقيرة وبكيت أحرّ بكاء ، وتمنيت لو أنني أوتيت الجرأة لأهب لك نفسي كلها .

٥١

دجا الليل ، وانتهى عملنا اليومي ، وكنا نحسب ان آخر ضيف قد قدم ، الليلة ، وان الأبواب كلها ، في القرية ، قد أوصدت ، بيد أن قائلاً قال : ان الملك بسبيل القدوم .

فضحكنا وقلنا : حسنٌ غير أن هذا غير ممكن .

وكان يخيل إلينا ان الباب يقرع فكنا نقول : هي الريح ولا شيء سواها .

وأطفأنا المصابيح ، وخلدنا إلى النوم ، بيد أن قائلاً قال : ها هو ذا الرسول .

فضحكنا وقلنا : بل هي الريح .

وترددت جلبةٌ ، في موهنٍ من الليل ، فكنا نحسبُها ونحن نائمون ، هزيم الرعدِ البعيدِ ، وارتجت الأرض ومادت الجدران ، واضطربنا في رقادنا ، غير أن قائلاً قال : إن هذا هو ضجيج العجالِ .

وهمسنا : لا ، بل انه وعيد الغيوم .

وكان الليل طاغياً ، حين قرع الطبل ، وتناهى إلينا صوتٌ يقول : استيقظوا ولا تضيعوا وقتاً .

وشددنا أيدينا الى قلوبنا ، وارتجفنا هلعاً ، وقال قائل : انظروا ، ها هي ذي راية الملك .

ونهضنا وجلين وهتفنا : ليس ثمة وقتٌ نضيّعه .

وقدم الملك ، ولكن أين الأنوار ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش الذي يتخذ مجلسه فوقه ؟

يا للعار! يا للعار الشديد! أين القاعة ؟ وأين الزينة ؟ وقال قائل : ما نفع النحيب ؟ حيّوه بأيديكم الفارغة واستقبلوه في غرفكم العارية كلها .

افتحوا الأبواب ، ولتهتف الأبواق ، لقد أتى ملك في موهن من الليل ، من بيتنا المظلم .

الرعد يتهزّم في السماء ، والحلكة يرعشها البرق ، هاتوا البساط الممزّق ومدوه في فناء الدار ، لقد أقبل ملكنا فجأة مع العاصفة ، وفي الليلة الرهيبة .

٥٢

كنت اود أن اطلب اليك واستهديك ـ بيد أنني لم اجرؤ ـ عقدَ الزهر الذي كنت تطوق به جيدك ، وهكذا فقد انتظرت في الصباح رحيلك ، لأجد اثارةً منه على سريرك ، وكالمتسولة جعلت أستجدي عند الغسق ، ورقةً أو ورقتين من زهرة .

مسكينةٌ أنا ، ماذا لقيت ؟ أي ضمان تركه لي حبك ؟ انه ليس بزهرةٍ ، ولا بقارورة طيب أو عطر ، انه سيفك القوي ، المتألق كاللهيب ، الثقيل كالصاعقة . ان شعاعة الفجر الفتية ، تتسلّل من النافذة وتتطامن من فوق سريرك ، وعصفور الصباح يلغو ويتساءل :

ـ أيتها المرأة ماذا لقيت ؟

لا ، انه ليس بزهرة ولا بقارورة طيب أو عطر ، رباه إنه سيفك الرهيب .

واجلس متأملة ، وأعجب ، أي عطاء منحتنيه ؟ إنني لا أجد مكاناً أواريه فيه ، واستخذي وأنا بعد طرية العود ، نحيلةٌ ، أن أحمله معي ، وإنه ليجرحني وأنا أضمه إلى صدري ومع هذا ، فعليّ أن أحمل في قلبي هذا الشرف الذي قلدتنيه في عطائك المثقل بالألم .

لن أبلو ، بعد الآن ، أيّ خوفٍ في الدنيا ، وفي أي خلافٍ يقوم بيننا ستكون أنت دوماً المنتصر ، لقد تركتَ لي الموت رفيقاً ، وسأكلل به حياتي ، إن سيفك هو معي لأفري به قيودي ، ولن أبلو ، فيما بعد ، أي خوفٍ في الدنيا .

منذ الآن ، سأعزف عن أي زينة باطلة يا سيد قلبي ، لن اعرفَ الانتظار ، ولا البكاء بنجوة من الناس ، لن اعرف التحفظ ولا لطف التكلف ، لقد اعطيتني سيفك لازدانَ به ، فما لي الآن وزينة الدُمى ؟

٥٣

رائعٌ سوارك المحلّى بالنجوم ، المرصع بآلاف الجواهر المختلفة الألوان ، ولكنني أجد سيفك أروعَ منه بظبته المحنية الشبيهة بطائر (فيشنو) الالهي ، وقد بسط جناحيه ، واستوى فوق أشعة الغروب المخضبة الثائرة .

انه يرتعش كأنه آخر جواب . الحياة تنتفض ، وهي في نشوة آلامها ، انتفاضة الموت الأخيرة ، انه يتألق كأنه شعلة الوجود النقية وهي تلهب بوميضها المتّقد ، إحساسنا الأرضي .

رائعٌ سوارك المرصع بالجواهر النجمية ، أما سيفك ـ اه يا سيد الرعد ـ فهو مصنوعٌ من جمالٍ أخّاذٍ يرهبه النظر والفكر .

٥٤

لم أسألك شيئاً ولم أخدش أذنك باسمي ، وحين تركتني بقيت صامتةً ، وكنت وحيدة قرب النبع ، حيث بسطت الشجرة ظلّها المنحرف ، وقد قفلت النساء ، عائداتٍ إلى بيوتهن ، بعد أن ملأن جرارهن السمر الترابية ، وكنّ يناديننى ويهتفن :

ـ تعالي معنا ، فالفجر قد مضى ، وحان وقت الظهيرة ،

ولكنني كنت اتخلف في فتور ، وأنا مستغرقةٌ في تأملاتٍ مبهمة .

ولم أسمع وقع خطاك ، حين قدمتَ ، وكانت عيناك حزينتين ، حين تطامنت نظراتك نحوي وكان صوتك متعباً خفيضاً حين قلت لي :

ـ آه ، أنا المسافر الظامىء .

وانتفضت من أحلامي وتأملاتي وسكبت من جرتي الماء في راحتيك المضمومتين وكانت الأوراق فوقنا ترتعشُ وطائر (الكوكو) يغرِّد في الظلمة الخفية ، وكان شذا زهور (الببلا) يوافينا من منعطف الطريق .

وظللت صامتةً خجلى ، حين استوضحتني عن اسمي ، ماذا عملت ، في الحق ، حتى تتذكرني ؟ ولكن ، إمّا خطر في بالي ، انه قد تيسر لي أن اروي ظمأك ، فإن هذه الفكرة تهصر قلبي ، وتلفّه بعذوبةٍ ناعمةٍ .

لقد ولّى الصباح ، والطائر يردّد تغريده الرتيب ، واوراق شجر (النيم) ترتعش فوقي ، وأنا جالسة أتأمل وأتأمل .

٥٥

لايزال السأم يستبد بقلبك ، ولايزال النعاس يجاذب عينيك .

ألم تسمعْ بأن الوردة تُزْهى رائعةً كالملكة ، بين الاشواك ؟ استيقظْ ، آه

استيقظ ، ولا تذر الوقت يمر عبثاً .

في نهاية الدرب الوعثاء وفي بلد الوحدة العذراء ، يجلس رفيقي ، وحيداً فلا تخيبْ انتظارَه ، استيقظْ ، آه استيقظ .

اذا خفقَ الفضاء ، وارتعش في حر الهاجرة ، واذا مدّت الرمال سربالَ الظمأ...

أفلا تشعر بالفرح في أعماق قلبك ؟ أفلا يرددُ معزفُ الطريق على وقع كل خطوة من خطاك موسيقا الألم العذبة ؟

٥٦

وهكذا فان الفرحة التي تحظى بها مني هي مفعمةٌ ، وهكذا فقد هبطتَ نحوي ، آه يا رب يا مالك السماوات ، لو لم أكن موجودة فأين يتجلّى حبك ؟

لقد اتخذتني شريكةً لك في هذا الغنى كله ، وفي قلبي لاتني سعادتك تلهو ، ان ارادتك تتجسد دوماً في حياتي...

ولهذا فقد ازّينْتَ بالجمال ـ أنت يا ملك الملوك ـ لتأسر قلبي . ولهذا فإن حبك يذوب في حب حبيبك ، وانك لتبدو هنا حيث يكون اتحادُ الاثنين تاماً .

٥٧

أيها النور ، يا نوري ، أيها النور الذي يغمر الكونَ أيها النور ، يا قبلة العيون ، أيها النورُ يا عذوبةَ القلب .

آه يا حبيبي ، إن النور يرقصُ في مركز حياتي ، ان حبي ، يا حبيبي ،

يتجاوب ، مع دفقة النور . السماوات تنفسح ، والريح تهبُّ عاتية ، وعلى الأرض تعبر ضحكة .

يا حبيبي ، على بحر النور تبسط الفراشةُ جناحيها ، وعلى ذرى أمواج النور يتلألأ الزنبقُ والياسمين .

ياحبيبي ، النور يذرُّ الذهب فوق كل غيمة ، وينثر الجواهر في جودٍ وخصبٍ وانسابت غبطةٌ من ورقة إلى ورقة ، يا حبيبي ، وامتد حبورٌ متصلٌ لا حدّ له .

ان نهر السماء قد فاض على الضفاف ، وجازت موجة الفرح كلها الحفافي .

٥٨

فلتتسقْ في نشيدي الأخير كلُ انغام الفرح ، الفرح الذي يهيب بالأرض ان تمرع العشب الغزير الخصيب ، الفرح الذي يجعلُ هذين التوأمين : الموت والحياة ، يتراقصان ، في الأرض الرحيبة ، الفرح الذي يسوق العاصفة ، وهو يهزُّ الحياة كلها بضحكة ، الفرح الذي يفيء إلى دموعه ، في زهرة (لوتس) الألم المنوّرة الحمراء ، الفرح الذي ينفض كلّ ما لديه إلى التراب ولا يعرفُ أيّ كلمة .

٥٩

أجل يا حبيب القلب ، إنني أعلم ذلك ، إن هو إلا حبُك ، هذا النور المذهب الذي يرقص فوق الأوراق ، وتلك الغيوم الكسلى التي تسعى في السماء ، وذلك النسيم العابرُ الذي يترك رطوبته فوق جبيني .

إن نور الصباح قد غسل عينيّ ، تلك هي رسالتك الى قلبي ، فانحنتْ طلعتك من عل ، وغابت عيناك في عيني ولامس قلبي قدميك .

٦٠

على شاطىء الدنى غير المتناهية يجتمع أطفال ، السماء غير المتناهية تنفسح ، هادئةً فوق رؤوسهم ، والموج الموار يصطخب . على شاطئ الدنى غير المتناهية ، يجتمع اطفال ، هاتفين راقصين .

انهم يبنون بيوتهم من الرمل ، ويلهون بالاصداف الفارغة ، انهم يصنعون من الأوراق الجافة قواربهم ، ثم يدفعونها باسمين ، إلى المدى العميق ، على شاطىء الدنى يفزع اطفال إلى اللعب .

ويشرئبُ البحر مرتفعاً ، مطلقاً ضحكة ، ويشعشع وهو شاحب بسمة الشاطئ ، وتغني الأمواج المترعة بالموت للأطفال أغنياتٍ خاوية المعنى ، كأنها أم تهدهد طفلها في المهد ، ويلعب البحر مع الأطفال ، ويشعشع وهو شاحب ، بسمة الشاطئ .

على شاطئ الدنى غير المتناهية يجتمع اطفال ، وتهيم العاصفة في السماء الخالية من الدروب ، لقد غرقت سفن في الماء ، دون ان تخلّف أثراً ، وترود المنية ، ويلهو أطفال .

على شاطىء الدنى غير المتناهية ، يلتئم أكبر جمع غفير من الأطفال .

٦١

ـ ان النعاس يرفرف على عيني الطفل الصغير ، ـ من يدري من أين قد وافى ؟

ـ أجل ، لقد قيل إنه كان يسكن في قرية الجن بين أفياء الغابة التي تضيء فيها بنور رقيق ، دويبات القطرب ، حيث يتفتح برعمان حييان ،

نشوةً وطرباً ، من هناك ، اقبل النعاس ليلثم عيني الطفل الصغير .

ـ ان الابتسامة تتألَّق على شفتي الطفل الصغير ـ حين يغفو ـ من يدري أنّى قد ولدت ؟

ـ اجل ، لقد قيل ان شعاعاً فتياً شاحباً قد انسلّ من الهلال فمسّ أطراف غمامة واهية من غمام الخريف ، هناك في حلم الفجر المخضل بالندى ، ولدت الابتسامة المتألقة على شفتي الطفل حين يغفو .

ـ ان النضرة العذبة الريّا تترقرق على أطراف الطفل الصغير ـ من يدري أين كانت خبيئةً من قبل ، أمداً طويلاً ؟

ـ أجل ، حين كانت الأم في ريّق الصبا ، كانت ترقد ، وكانت تمتد وتتسلّل إلى قلبها ، بغموض المحبة الرقيق الصامت تلك النضرة العذبة الريّا التي تترقرق ، الآن ، على اطراف الطفل الصغير .

٦٢

متى احمل إليك دُمىً ملونةً ، أدرك لماذا يلعب هذا المزيج من الألوان فوق الغيوم وعلى صفحة المساء ، ولماذا وشَّيت الازاهير بالألوان ـ متى احمل إليك دمىً ملونة .

متى انشدك لترقص ، أعرف حقاً ، لماذا تنسرب الموسيقا بين الأغصان ، ولماذ تريق الأمواج أصواتها المؤتلفة في قلب الأرض الصاغية ـ متى انشدك لترقص .

متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين ، أدرك لماذا يكمن الشهد في أكمام الزهر ، ولماذا تمتلىء الثمار خفيةً بهذا الرحيق السائغ ، ـ متى أقدم الأشياء العذبة إلى يديك الجشعتين .

متى الثم محياك لأجعلك تبتسم ، يا طفلي الحبيب . أفهم أيَ فرحة

تتسلل من السماء إلى رأد الضحى ، وأي لذة يزجيها نسيم الصيف إلى جسدي ـ متى ألثم محياك لأحملك على الابتسام .

٦٣

لقد عرفتني باصدقاء اجهلهم ، وادخلتني في منازل لا عهد لي بها من قبل ، وقد استقدمت البعيدَ فأدنيته وآخيتَ الغريب .

ان قلبي لَيَجِبُ ، حين ألفي أنّ عليّ أن أغادر مسكني فأنسى ، حينذاك ، أن القديم يمكثُ في الجديد ، وانك أنت أيضاً تمكثُ هناك .

عبر الولادة أو الموت ، في هذا العالم او في عوالمَ اخرى ، وحيث تقودني أنت فإنك أنت الرفيقُ الوحيدُ لحياتي اللامتناهية الذي يربط قلبي ، دوماً ، بأواصر الفرح إلى الأشياء الخارقة .

إن من يعرفُك ليس بغريبٍ أو عدوٍ ، فليس ثمة بابٌ مغلقٌ ، آه استجب هذا الدعاء : لا تحرمني ذلك الحظّ بأن ألمسَ واحداً بين اولئك اللاهين الكثيرين .

٦٤

على عدوة النهر الموحش ، وبين الأعشاب الطويلة سألتها :

ـ أيتها الفتاة ، إلى أين تذهبين ، واقيةً ، بمعطفك شعلة مصباحك ؟ ان بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .

ورامقتني بعينيها الكئيبتين ، وحدّقتْ إليّ عند الغروب وقالت :

ـ لقد أقبلتُ نحو النهر لاستودع التيارَ مصباحي ، حين ينطفىء آخر شعاعٍ من أشعة الشمس في المغرب .

ولبثت وحيداً بين الأعشاب الطويلة ، أتأمل في تلك الشعلة الوانية التي لا تني تحبو على الموج وفي صمت الحلكة الداجية ، سألتها :

ـ ان الأنوار كلها قد شعّتْ ، إلى أين تذهبين بمصباحك ؟ ان بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ، ألا أعيريني نورك .

ورامقتني بعينيها الكئيبتين ولبثت مترددة ، لحظة ، ثم قالت :

ـ لقد جئت لأهدي مصباحي إلى السماء .

وبقيت ، ثمة ، أتأمل في تلك الشعلة وهي تذوي شيئاً فشيئاً في الفراغ .

وفي ظلمة منتصف ليلٍ غاب قمره ،سألتها :

ـ أيتها الفتاة عمّ تبحثين هكذا وأنت تحملين مصباحك قريباً من قلبك ؟ إن بيتي لمظلمٌ مقفرٌ ألا أعيريني نورك .

وتوقفت لحظة ثم فكرت وحدجتني في الظلام وقالت :

ـ لقد حملت نوري هذا لأشترك في عيد المصابيح .

ولبثتُ ، ثمة ، أتأمل في مصباحها الصغير يغيب شيئاً فشيئاً بين الأنوار .

٦٥

يا رب ، أيّ شراب الهي ترجوه من تلك الكأس الطافحة ، كأسِ حياتي .

يا شاعري ، أهي متعتك في أن ترى إبداعك بعيني وان تصغي صامتاً إلى الحانك المنسجمة الأبدية على كفاف أذني[1] ؟

إن عالمك يسلسلُ الكلمات إلى فكري فيجنّحها فرحك بالنغم ، وإنك تستسلم إليّ حباً ووجداً ، وتجد في ذاتي عذوبتك الكاملة .

---

(١) كفاف الأذن : طرفها .

٦٦

ان التي تسكن ، دوماً ، أغوار حياتي ، في ملس الظلام[1] وشحوب النور ، ان التي لم تسفر قناعها في نور الصباح ، ستغدو ، هديتي الأخيرة إليك ، يارب ، وهي متّشحة بنشيدي الأخير .

ان الكلمات قد تودّدت إليها ، بيد أنها لم تستأثر بها ، ومدّ إليها الإقناع يديه المتأججتين عبثاً .

وكنت أتنقل من بلد إلى بلد ، وأنا أحملها في شغاف قلبي ، وقد مار حولها مدُّ حياتي وجزره .

إنها تهيمن ملكةً على أفكاري وأعمالي ورقادي وأحلامي بيد أنها تنتبذ مكانها منعزلة وحيدة .

كثيرون هم الذين طرقوا بابي ، وسألوا عنها ، ثم عادوا يائسين .

لم يرَ احد وجهها ، وانها لتنتظر ، في وحدتها ، مقدمك لتتعرف عليها .

٦٧

أنتَ السماء وأنت العش أيضاً .

آه ، أنت البديع ، هنا في العش يحبس حبك الروح مع الألوان والأنغام والطيوب .

ها قد وافى الصباح وفي يمينه سلةٌ ذهبيةٌ مثقلة باكليل الجمال لتتزين به الأرض في صمت .

---

(١) ملس الظلام : بين المغرب والعتمة .

ها قد اقبل المساء ، من دروب عذراء ، إلى المروج المنعزلة المقفرة من القطعان ، حاملاً في جرته الذهبية شراباً رطباً من السلام ، شراباً اغترفه من ضفة بحر الراحة الغربي .

ولكن ، هناك ، حيث تنفسح السماء دون حدودٍ ، لتستطيع الروح ان تنبسط محلقة ، هناك تُزهى الروعة ناصعةً بيضاء . ليس ثمة نهار ولا ليل ، لا شكل ولا لون ليس ثمة كلام أبداً ، أبداً .

٦٨

على هذه الأرض التي أقيم فيها ينحدر شعاعك ، منبسط الذراعين ، ثم يقف أمام بابي ، مدى نهار حياتي ليقطف شيات الغيوم ويزجيها إلى قدميك . تلك الغيوم المغزولة من عبراتي وزفراتي وأغنياتي .

إنك تسدل ، بلذة ناعمة ، وشاح الغيوم النديّ على صدرك المطرز بالنجوم ثم تلفُّه وتطويه في شتيت الأشكال ، وتسبغ عليه ألواناً قلقةً متغيرة .

إنه لخفيف ، لينٌ ، مليسٌ ، نديٌ بالدموع ، قاتمٌ ، ولهذا فقد شغفت به حباً ، أنت النقيُ الصافي ، ولهذا فانك تخفي بظله الحنون ، نورك الأبيض السامي .

٦٩

إن نهر الحياة نفسه الذي ينساب في عروقي ، ليلاً ونهاراً ، هو الذي ينساب في الكون ويرقص على ايقاع موزون .

انها تلك الحياة نفسها التي تُنبتُ فرحَتَها فوق أديم الأرض أعشاباً لا

عدادَ لها وتتدفّقُ أمواجاً هادرة من الأوراق والزهور .

انها تلك الحياة نفسُها التي يهدهدها المد والجزرُ في مهد بحر الولادة والموت .

أشعر بأن اعضائي قد تمجّدتْ بلمسةٍ من عالم تلك الحياة ، وانني لفخورٌ بخفقةِ حياة الأجيال وهي تتراقصُ ، الآن ، في دمي .

٧٠

هل يُتاحُ لك أن تبتهجَ بتذوق طلاوة ذلك اللحن ، وأن ترتمي وتغيب وتتكسَّر في عاصفة تلك الفرحة الهائلة .

كل شيءٍ يغذُّ السير ، دون توقف أو تطلُّعٍ إلى خلفٍ ، دون أن يتسنى لأي قدرةٍ ان تعيقَه . كل شيءٍ يغذُّ السير .

واقبلت المواسمُ هازجةً عابرةً ، وخطاها تتابعُ إيقاع تلك الموسيقا المسرعة المتعبة ، وتسلسلت ألوانٌ وأنغامٌ وعطورٌ وشلالاتٌ لا نهائيةٌ ، منهمرةٌ في تلك الفرحة الثرةُ التي تتفرق وتستسلم ثم تموت في كل لحظة .

٧١

لئن وجب علي أن انثر الفيض والسخاء كثيراً ، واهفو ، في كل اتجاهٍ ، ما ذلك سوى (ماياك) .

إنك تضع حاجزاً على كيانِك نفسِه ، ثم تنادي نفسَك المنفصلة في آلاف النغمات ، ان انقسامك هذا قد تجسّد في كياني .

ان غناءك ينثال عبر السماوات ، في دموعٍ ملوّنةٍ وابتسامات ، في مخاوف وتعلاّتٍ . وارتفعتْ الأمواج ثم تطامنتْ ، وانتسختْ أحلامٌ ثم

التأمتْ ، ان في نفسي يتّسق اندحار كيانك .

يلوّن تعاقب الليل والنهار حجابك الذي اقمتَه باصباغٍ شتيتةٍ ، وخلف ذلك ، يبدو مجلسك وقد حيك من منحنياتٍ عجيبةٍ خفيةٍ ، عازفاً عن جميع الخطوط القاسية المستقيمة .

من مهرجاننا الكبير تنفسح السماء ، ومن نغمتي ونغمتك يهتزُّ الفضاء كله ، وتترادف الأعمار كلها ونحن نلهو في لعبة الاستخفاء ، نظهر ونختبئ .

٧٢

انه نفسه ذلك الودود القريب ، الذي يوقظ كياني بلمستِه العميقة المبهمة .

وهو نفسه الذي يهرق جذلة في عيني ويدقُّ وهو مبتهجٌ ، على أوتار قلبي أوزاناً مختلفة من الطرب والألم .

وهو نفسه الذي ينسج تلك (المايا) في أصباغ زائلةٍ ، ذهبيةٍ ، فضيةٍ ، زرقاء ، خضراء ، ويتيح من طياتْ النسيج ، رؤية قدمه ، فأنسى نفسي ، في لمسةٍ منها . وتمضي الأيام وتمرُّ الأعمار ، وانه ليظل نفسه ذلك الذي يرعش قلبي باسمٍ من الأسماء ، بأسلوبٍ من الأساليب ، بنقلةٍ من نقلات الفرح والحزن .

٧٣

ليس الخلاص ، في رأيي ، بالزهد ، إنني أشعر بضمة الحرية في ألف رباطٍ من اللذائذ .

إنك لتريق من أجلي سلسال خمرك المنعشة المشعشعة . بمختلف

الألوان والعطور حتى ليطفح منها كوبي الخزفي .

سينير كوني بشعلتك مائةً من شتيت المصابيح ثم يضعُها في مذبح معبدك .

لا ، لن أغلق أبداً أبواب حواسي ، ان لذائذ البصر والسمع واللمس سوف تنتظم لذتك .

أجل ، إن أوهامي كلها سوف تحترق في ألقة الفرح وإن رغباتي كلها سوف تؤتي أكلها ثماراً من الحب .

٧٤

لقد مضى النهار ، وزحف الظل فوق الأرض ، وحان وقت ورودي النهر لأملأ جرتي .

ان نغَم السماء نافد الصبر من موسيقا الماء الكئيبة ، آه انه يناديني في الظلام ، ليس ثمة أحدٌ في الدرب ، الريح تهب ، وفوق صقال النهر تحبو رعشات .

لا أدري ان كنت سأعود إلى البيت ، ولا أعلم أيّ لقاءٍ عابرٍ يتاح لي ، هناك ، قرب معبر النهر ، وفي الزورق الصغير ، يعزف الرجل المجهول على العود .

٧٥

إن عطاياك لنا ، نحن الزائلين الفانين ، تفي بحاجاتنا كلها ومع هذا فإنهاتسارع في العودة إليك ، تامةً غير منقوصة .

إن النهر يؤدي عمله اليومي ، وإنه ليمضي مسرعاً نحو الحقول والقرى ، ولكن جدوله لا يني يلتوي ليغسل قدميك .

إن الزهرة تفغمُ الجوّ بأريجها الشذيّ ، بيد أن قصارى جهدها هو ان تمنحك نفسها .

إن عبادتك لا تفقر الكون .

ان كلمات الشاعر تزجي إلى الناس المعاني التي تروق لهم ، ولكن معناها الأخير يتجلّى في الاشارة إليك .

٧٦

يا سيد حياتي ، هل اقفُ يوماً فيوماً أمامك وجهاً لوجه ؟

يا سيد الأكوان ، هل أقف أمامك ، ويداي مضمومتان ووجهي قبالة وجهك ؟

تحت سمائك الرحيبة ، وفي صمتٍ وانفراد ، هل اقف بين الجموع الدائبة الساعية امامك وجهاً لوجه حاملاً قلبي المتواضع ؟

في هذا العالم المضني الذي يعج بالجهد والكفاح هل أقف أمامك وجهاً لوجه ؟

وحين انتهي من عملي في هذه الدنيا ، يا ملك الملوك هل أقف وحيداً صامتاً أمامك وجهاً لوجه ؟

٧٧

أجل ، إنني أعرفك كربّ لي ، فأنتبذ مكاناً منعزلاً .

ـ ولكنني لا أعرفك ملكاً لذاتي فاقترب منك ، انني أعرفك كأبٍ فاجثو عند قدميك ـ ولا أشدُّ على راحتك كما أشدُّ على راحة صديق .

حيث تطأ الأرض وحيث تهب لي نفسك ، كما لو كانت لي فانني لا أقف ، هناك أضمك إلى قلبي وأتخذك رفيقاً لي .

أنت الأخ بين اخوتي ، ولكنني لا أكترث لهم ، ولا اقاسمهم ارباحي ، وبذا فانني اقاسمك ذاتي كلها .

انني أعزف ، في اللذة والألم ، عن الناس ، وبذلك أظل الى جانبك .

انني اتردد في التخلي عن حياتي ، وهكذا فانني اغوص في مياه الحياة الزاخرة .

٧٨

حين كان خلق الكون جديداً ، وكانت النجوم تتوامضُ في روائها البكر ، عقد الآلهة اجتماعهم في السماء وأنشدوا : آه ، يا لمنظر الكمال! يا للفرحة النقية!

ولكن أحد الآلهة هتف بغتةً : يخيل إليّ ان ثمة ثلمةً في هذه السلسلة من النور وان نجماً من هذه النجوم قد ضاع ، وانبتّ وترٌ ذهبي من معزف الآلهة ، فقرّ غناؤهم وشرعوا يبكون وجلين :

ـ أجل لقد كان ذلك النجم أروع النجوم وكان مجد السماوات كلها .

ومنذ ذلك اليوم ، والبحث لا يني يدور عليه ، ولا تأتلي الحسرة تنتقل من واحدٍ الى آخر ، فقد خسر العالم به هناءه الوحيد .

ومع هذا فان النجوم تبتسم ، في صمت الليل العميق ، وتتهامس :

ـ ان البحث عنه غير مجدٍ ، ان الكمال الدائم المتصل هو في كل مكان .

٧٩

ان لم يكن من نصيبي أن ألتقي بك في هذه الحياة ، فذرني أشعر اذن بانني أفتقد مرآك دوماً ، شعوراً لا انساه لحظةً واحدةً واتركني احمل عذاب

ذلك الحزن ، في أحلامي وفي ساعات يقظتي .

حين تمر ايامي ، بين الساعين وراء ارزاقهم ، وتمتلىء يداي بأرباحي اليومية فذرني أشعرُ بأنني لم اربح شيئاً . شعوراً لا أنساه لحظة واحدة . ودعني أحملْ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

حين أقف ، على حيد الطريق ، متعباً لاهثاً ، وحين أسوّي مضجعي من التراب ، فذرني اشعرْ دوماً بأن المرحلة الكبرى ماتزالُ امامي ، شعوراً لا أنساه لحظةً واحدةً ، ودعني احملْ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

وحين تزدان غرفي ، وتتعالى أغاني الناي ، وتترددُ هناك الضحكة ، فذرني اشعر دوماً بأنني لم أدعك إلى منزلي ، شعوراً لا أنساه لحظةً واحدةً ، ودعني احملْ عذاب ذلك الحزن في أحلامي وساعات يقظتي .

٨٠

إنني كقزعةٍ[1] من غيم ، تهيم عبثاً في سماء الخريف .

- إيه يا شمسي ، يا ذات المجد الدائم ، إن لمستك لمّا تبدّدْ ضبابي ، ولهذا فإنني اتحد مع نورك ، ولهذا فإنني أحصي الشهور والسنين التي تفصلني عنك .

اذا كانت تلك بغيتك ، وكانت تلك لعبتك ، فاقبض اذن على ذلك الفراغ الشارد من كياني ولوّنه بالتهاويل ، واطله بالذهب ، ودعه يرفرف مع الريح الهيمى ثم يتفطّر في معجزاتٍ شتى .

وإما طاب لك من جديد انهاء هذه اللعبة في الليل ، فإنني أذوب وأمّحي

---

(١) القزعة : القطعة من الغيم .

في الظلام ، وقد أغيب في ابتسامة الفجر الأبيض . في طراوة ذلك النقاء الصافي .

٨١

كم بكيت في أيام الكسل على الزمن الضائع ، بيد انه غير مضيع أبداً يا رب ، فقد قبضت يدك على كل لحظة من لحظات حياتي .

إنك تغذي ـ وأنت متوارٍ في قلب الأشياء ـ البذرةَ حتى تنبت ، والبرعمَ حتى ينوّر والزّهرة الناضجة حتى تؤتي أكلها .

وألمّ بي التعب ، فأغفيت على سرير الكسل ، وأنا أتصور أن العمل كله قد انتهى ، وحين أسفر الصباح استيقظت فالفيت حديقتي ملأى بالمفاتن والزهور .

٨٢

ان الزمن غير متناه في يديك ، يا رب ، وليس ثمة أحدٌ يحصي دقائقك .

ان الأيام والليالي تتعاقب ، والأعمار كالزهور تتفتح وتذوي ، لقد عرفت كيف تنتظر .

ان القرون تترادف ليتيسر لها ان تهب أسباب الكمال لزهرة نحيلة وحشية .

ليس لدينا وقت نضيعه ، ولأنه ليس لدينا وقت ، فعلينا أن نسعى لنهتبل فرص حظوظنا ، واننا لأفقر من ان يتاح لنا ان نتخلّف .

وهكذا فإن الزمن يمضي ، فيما أتركه أنا لكل شاكٍ يدعيه ، ورغم ذلك فإن مذبحك يظل عارياً خالياً من القرابين .

وفي المساء أحثُّ الخُطا لئلا أجد رتاج بابك موصداً ، ومع هذا فإنني أجد أن الوقت لم يفت بعد .

٨٣

أماه ، سأضع من أجلك عقدَ لآلئَ يلتئم من دموع حزني .
ان النجوم جعلت تفري هالاتها المنيرة وتريقها فوق قدميك ، ولكن عطائي يود أن يطوق عنقك .
ان الغنى والشهرة ينبثقان منك ، وانه لموكول إليك منحهما أو ردهما ، غير أن حزني يخصني أنا وحدي ، وحين أقدمه إليك قرباناً ، تكافئني أنت بعذوبتك .

٨٤

هو ألمُ الفراقِ الذي ينتشر في الكونِ كله ، ويبعث اشكالاً لا عداد لهَا في السماء اللانهائية .
هو حزنُ الفراقِ الذي يرنو صامتاً ، في هدأةِ الليل ، من نجمٍ إلى نجمٍ ، والذي يوقظ القيثارة بين الأوراق المتهامسةِ ، في ظلمة تموز الممطرة .
هو ذلكِ الألمُ الجارف الذي يمتلئ ، محبةً ورغبةً ، ترحاً وفرحاً ، في بيوت البشر ، إنه هو نفسه الذي يذوبُ ، دوماً ، في قلبي أنا الشاعر ، ثم يتسلسلُ أغاريدَ وأناشيدَ .

٨٥

حين غادر المحاربون قصر مولاهم ، أين أخفوا سلطانهم وأين كانت دروعُهم واسلحتُهم ؟

انهم يبدون مساكين لاغبين ، تتساقط فوقهم السهام غَدِقةً[١] متداركة ، حين غادروا قصر الرب .

وحين عاد المحاربون الى قصر الرب ، أين أخفوا سلطانَهم ؟

لقد القوا السيف ، ورموا بالقوس والسهم ، كان السلام يظَلّلُ جباههم ، مخلفين وراءهم ثمار حياتهم ، يوم عادوا إلى قصر مولاهم .

٨٦

أيها الموتُ ، ان خادمك ماثلٌ أمام بابي ، لقد جاز البحر المجهول ، حاملاً نداءك إلى بيتي .

الليلُ مظلمٌ ، وقلبي واجفٌ ، ومع ذلك فإنني سوف أمسك بالمصباح ، وأفتحُ الباب ثم أرحّب به ، إنه رسولك ذلك الواقف أمام بابي .

سأعظمه بدموعي ويديّ المنبسطتين ، سأعظّمه ، غامراً قدميه بكنز قلبي .

وسيؤوب برسالته التائهة ، سافحاً ظلاً قاتماً على فجري ، وفي بيتي المنعزل لن يبقى سوى نفسي اليائسة أقدمها ، كأسمى هبةٍ إليك .

---

(١) غدقة : غزيرة .

٨٧

في ترقب يائس ، سأذهبُ للبحث عنها في كل زوايا غرفتي ، غير أنني لن أعثر عليها .

إن بيتي لصغيرٌ ، وما يخرجُ منه مرة لن يتيسر أرجاعُه .

ولكن قصرك يا رب ، فسيحُ الجنبات ، وبينما كنت ابحثُ عنها ، ألفيتني انتهيت الى بابك .

إنني أقفُ تحت القبة الذهبية من سمائك المسائية لأرامق وجهك بعينيّ المليئتين بالرغبة .

لقد وصلت إلى شاطىء الأبدية ، حيث لا يمحي شيء ، لا أمل ، لا هناءة ، ولا ذكرى وجه يترقرق عبر الدموع .

آه ، ألا أغمسْ حياتي الفارغة في هذا البحر وغص بها في امتداد اعماقه ، دعني اشعرْ مرةً ان تلك العذوبة المفقودة هي شائعة في الكون كله .

٨٨

يا آلهة المعبد المهدوم ، ان أوتار المعزف (فينا) المقطوعة لن تهزَج بعد الآن بحمدك وأن الأجراس ، في المساء ، لن تغري أحداً بعبادتك . الفضاء حولك مستغرقٌ في صمت .

في بيتك الحزين تنسمُ ريحُ الربيع الهيمي ، انها تنقلُ اخبار الزهور ـ الزهور التي لن تُزجى أبداً إلى عبادتك .

إن عابدك القديم يهيم دوماً خلف نعمة ماتزال محرمةً عليه ، وفي المساء حين تذوب الأنوار والظلال في ملس الغروب ، فإنه يعود حزيناً إلى معبدك المهدوم ، وفي قلبه سغب .

ان بعض أيام الأعياد تقدم إليك في صمت يا الهة المعبد المهدوم ، ان بعض ليالي العبادة تمضي دون ان يضاء المصباح .

ان كثيراً من الصور الجديدة قد سوّاها فنانون مهرة ، بيد ان نهر النسيان سيجرفها حين يأزف وقتها .

ولكنك ، تبقين أنت ، يا آلهة المعبد المهدوم ، المهجور إلى الأبد .

٨٩

غير متاح لي الكلام المجلجلُ ولا الألفاظ الصاخبة ، كذلك يريد ربي ، سأفزغ اذن إلى الهمس ويتسلسل ، منذ الآن ، حديث قلبي في وشوشات أغنية .

يتدافع الناس إلى سوق الملك ، البائعون والشارون كلّهم هناك ، أما أنا فقد صُرفتُ في منتصف النهار وفي زحمة العمل .

فلتنوّر الزهور اذن في حديقتي ، ولو لم يحن أوانها ، ولتملأ نحلات الظهيرة الفضاءَ بطنينها الكسول .

لقد سلخت ساعاتٍ عديدة في نضال مع الخير والشر وانه ليلذ الآن ، لرفيق أيامي الخاوية ان ينوط قلبي به ، ولا أعلم ماذا تعني تلك الدعوة المفاجئة لتناقضٍ عقيم .

٩٠

أي هدية تقدمها إلى الموت يوم يقدم ليقرع بابك ؟

آه ، سأضع امام زائري كأس حياتي المترعة ولن أدعه يعود فارغ اليدين .

كل قطوف كرومي العذبة من أيام خريفي وليالي صيفي ، كل حصاد

حياتي الدؤوب وجناها سوف أضعه أمامه ، حين ينتهي أجل أيامي ، يوم يقدم الموت ليقرع بابي .

٩١

آه أنت ، يا منتهى حياتي الأسمى ، أيها الموت ، يا موتي ، تعال وأهمس في أذني .

يوماً بعد يوم ، سهرت في انتظارك ، من أجلك ، تذوقت هناءة الحياة وعانيت عذابها .

انني كلي ، كل ما أملك ، كل ما اتعلّل به ، كل حبي ، كل ذلك قد مرّ مبهماً نحوك ، حسبي النظرة الأخيرة من عينيك حتى تصبح حياتي في حوزتك دوماً .

لقد ضفروا الزهور ، وأعدّوا الاكليل للزوج العروس ، وبعد الزفاف تغادر العروس منزلها ساعيةً إلى مولاها ، وحيدةً في عزلة الليل .

٩٢

أنا أعلم بأنه سيوافي يوم ، أضيّع فيه هذه الأرض عن ناظري ، وان الحياة ستغادرني ، في صمتٍ ، بعد أن تسدل على عيني الستار الأخير .

ومع هذا فإن النجوم ستتلامح ساهرةً في الليل ، وسيسفر الفجر كما أسفر أمس ، وستمتلىء الساعات ، كأمواج البحر ، تحمل اللذات والآلام .

وحين أفكر في انقضاء لحظات عمري ، تتلاشى حواجز هذه اللحظات ، ويتراءى لي فينور الموت عالمك بكنوزه اللطيفة ، أحقر منزلٍ فيه عزيزٌ وأخفض عيشٍ فيه كريم .

أما الخيرات التي تقت إلى احتيازها عبثاً ، والثروات التي احتجنتُها فدعها تذهب مني .

دعني اتعلق بالخيرات الحقة فحسب ، الخيرات التي تجانفت عنها واحتقرتها دوماً .

٩٣

لقد أذن لي بالرحيل . فتمنوا لي يا اخوتي سفراً سعيداً ، سأدع كل شيء ثم آخذ أدراجي واتهيأ للرحيل .

ها هي ذي مفاتيح بابي ، أعيدها إليكم ، متخلياً عن جميع حقوقي في بيتي ، ولكن زودوني ، عند الرحيل بكلماتٍ حلوة .

لقد كنا متجاورين أمداً طويلاً . ولقد تلقيت منكم أكثر مما كان في استطاعتي ان أعطيكم . والآن ، فإن النهار قد طلع ، والمصباح الذي اضاء زاويتي المظلمة ، قد نفد نوره ، وتناهى إليَّ نداء وأنا اتهيأ للظعن والرحيل .

٩٤

أزف الترحّل . فتمنوا لي ، الآن ، يا رفاقي حظاً طيباً ، ان السماء خضيبةٌ بحمرة الفجر ، ودربي تنفسح رائعة .

لا تسألوني ، ماذا احمل معي ، سأبدأ رحلتي ، ويداي فارغتان ، وقلبي مفعم بالانتظار .

سأتزين بإكليل عرسي فقد نضوت ثوب السائح الأحمر الأغبر ، أما فكري فلا يستشعر الخوف وإن تكن الطريق محفوفةً بالأخطار .

في نهاية رحلتي ، سيطل نجم السماء وستعلو نغمات أغاريد الغروب الشاكية من القباب الملكية .

•

٩٥

لم أعِ اللحظة التي جاوزت فيها وصيد الحياة .

أي قدرة جعلتني اتفتح على ذلك السر الوسيع مثل برعم الغاب الذي يتفتح عند منتصف الليل .

وحين صافح النور عيني ، في الصباح ، شعرت بأنني لست غريباً عن هذه الأرض ، وان ذلك المغلق المجهول الذي لا شكل له ولا اسم ، كان يضمني بين ذراعيه ، بادياً في اهاب أمي .

وكذلك ، عندما يحين الموت ، فإن المجهول ينحسر أمامي كأنني أعرفه منذ الأزل ، ولأنني أكلف بالحياة ، فسأكلف بالموت أيضاً .

ان الطفل يبكي ، حين تنحيه أمه عن ثديها الأيمن ، ولكنه يجد في اللحظة التالية سلواه في ثديها الأيسر .

٩٦

حين أرحل من هنا ، فلتكن كلمتي عند الوداع : ان ما رأيته لا يمكن ادراكُه والوصولُ إليه .

لقد تذوقتُ الشهدَ الخفيّ من زهرة (اللوتس) التي تبسطُ أوراقها على خضمّ النور ، فكان ذلك يمناً وبركةً عليّ ، لتكن تلك كلمتي عند الوداع .

لقد لهوتُ في قصرٍ شتيتِ الأشكال ، وثمة بصُرتُ بذلك الذي لا ينتظمه شكل .

ان اعضاءَ جسمي كله قد جاذبتها رعشةٌ بلمسةِ ذاك الذي لا يمكن لمسُه ، واذا كان على الأجل ان يوافي ، فليوافِ ، تلك هي كلمتي عند الوداع .

٩٧

حين كنت ألهو معك ، لم أسألك قطّ من أنتَ ، ولم أكن أعرفُ الخجلَ ولا الخوفَ . كانت حياتي تهدر هوجاء .

عند منبلج الفجر ، كنتَ توقظني من غفوتي ، كآثرِ رفيقٍ لدي ، وكنت تقودُني ، ونحن نعدو من غابٍ إلى غاب .

في تلك الأيام لم يكن يكرثُني معرفةُ معاني الأغاريد التي كنت تنشدها لي ، وكان صوتي يلهج بالأنغام وقلبي يرقص طرباً على ايقاعها .

والآن ، وقد مرّت ساعةُ اللهو ، فما هي تلك الرؤيا المفاجئة التي تعرض لي ؟ ان الكونَ بطرفه المتطامنِ إلى قدميك ، يقف اجلالاً لك مع كل نجومه الصامتة .

٩٨

سأزينك بالأسلاب ، باكاليلِ هزيمتي . ليس في استطاعتي ، أن انجوَ وأنا غير مغلوب .

وفي الحق ، انني أتوقّع ، في يقينٍ ، هزيمةَ كبريائي ، وأعرفُ أن حياتي في ذروة ألمها ستحطم حدودَها ، وان قلبي الخاوي سيجهش في موسيقاه كقصبة جوفاء ، وان الحجر سيحور الى دموع .

أعرف ، في يقين ، ان مائة افواف التويج من زهرة اللوتس لن تظلّ

دوماً مغلقة ، ولكنها ستتفتّح عن شهدها الخفي .

في السماء الزرقاء عينٌ ترامقني ، وتدعوني في صمت ، لن يتبقّى لي شيءٌ ، أيّ شيءٍ ، وعند قدميك سأحظى بالموت الكامل .

٩٩

حين اترك دفةَ سفينتي ، أدرك أن الوقت قد أزف لتمسك بها أنت ، وأن ما يجب عملُه سيتم وشيكاً ، فلا جدوى من الألم .

فأضمُمْ يديك خاضعاً يا قلبي ، واقبل بهزيمتك راضياً صامتاً ، واعتبر انه من حسن حظك ان تجلسَ هادئاً حيث وضعت .

ان المصابيحَ لا تألو تنطفىء على أي هينمةٍ من هينمات الريح ، وحين اجهَدُ في اشعالها فانني لا افتأ أنسى سواها .

بيد أنني سأكون في هذه المرة حكيماً ، وسأنتظر في الظلمة ، ماداً بساطي على الأرض ، وحين يروق لك يا مولاي ، فتعال في صمتٍ واتخذْ مجلسَك هنا .

١٠٠

انني اغوصُ في أغوارِ خضمّ الأشكال ، آملاً ان أظفرَ باللؤلؤةِ الكاملةِ التي لا شكل لها .

لن ابحر بعد الآن من مرفأٍ إلى مرفأ ، على ذلك الزورقِ الذي حطّمته العاصفةُ ، لقد مضت الأيام البعيدةُ التي كان دأبي فيها مغالبةَ الأمواج .

أما الآن فانني اتشوّف إلى أن أموت لدى من لا يموت .

وفي ردهةِ المقابلة ، قربَ الهاويةِ التي لا قرار لها ، حيث تتناهى موسيقا لا نغمَ لها فانني سأمسك بمعزف حياتي .

سأضرب عليه لحن الخلود ، وحين تعلو شهقته الأخيرة ، دعني أضعْ معزفي الساكتَ على قدم الصمت .

١٠١

لقد بحثت عنك ، عمري كله ، بأغنياتي ، فهي التي قادتني من بابٍ إلى باب ، وبها شعرت بما حولي ، وأنا اتقرّى دنياي وأبحث عنها .

أن أغنياتي هي التي علّمتني ما تلقنتُ من دروس ، هي التي دلّتني على الدروب الخبيئةِ وازجت إلى ناظري بعضَ النجوم المناسبة على أفق قلبي .

لقد قادتْني طوالَ النهار ، إلي البقعة المبهمةِ من اللذة والألم ، والآن ، وقد حلّ المساء ، واستوفت رحلتي نهايَتَها ، ترى إلى باب أي قصر تقودني ؟

١٠٢

أجل ، لقد زهوت أمام الناس ، بأنني حظيت بمعرفتك ، انهم ليستبينون صورتك في آثاري كلها ، انهم يقبلون ويسألونني : من هذا ؟ ولا أدري سوى أن أجيب :

ـ حقاً لا أستطيع أن أقول .

انهم يتناولونني باللوم ، ثم ينكفئون في احتقار ، أما أنت فتظل ، ثمة ، والابتسام يرف على شفتيك .

لقد تحدثت عنك في أغانٍ لا تبلى جِدتها فانزاح السر عن قلبي وتجلّى ، انهم يقبلون ويسألونني :

ـ قل لنا كل ما تضمنت من معان .

ولا أدري سوى أن أجيب :

ـ ترى من يدري ماذا تعني ؟

انهم يبتسمون ثم ينكفئون ، في احتقار كبير ، وتظل أنت ، ثمة ، والابتسام يرف على شفتيك .

١٠٣

يا رب ، لتتجه حواسي كلها ، لتلامس هذا الكون عند قدميك ، تحيةً أخيرةً لك .

وكغمامة تموز التي تتطامن ، وهي تنوء بصوبها الدفيق[1] ، لينحنِ فكري أمام بابك ، تحية أخيرة لك .

لتلتئم أنغام أغنياتي في وزن متّسق واحد ، لتنصب في خضم الصمت ، تحية أخيرة لك .

وكسرب مهاجر من الطيور ، التي تحن وتهفو ، في صبرٍ نافدٍ ، ليلاً ونهاراً ، إلى أعشاشها التي تركتها في الجبل ، دع حياتي ، يا رب تتخذ سمتها نحو مقرها الأخير ، تحيةً أخيرةً لك .

---

(١) صوب الغمام : المطر .



جَنْيِ الثِمار



١

مُرْني ، ابادر بقطف ثماري كلها ، لأجلبها إلى حديقتك ، في سلال ملأى ، ولو كان بعضها قد فسد وبعضها ما يزال فجاً .

فالموسم مثقلٌ بروعته ، ونايُ الراعي يستمرىء النجوى في الظل .

مُرني أنصب الشراعَ في النهر .

فنسيمُ آذار يجاذبُ همساتٍ من الأمواج الوانية .

لقد نفضت الحديقة جماع روحها ، وأقبل في ساعة المساء الحزينة ، نداءٌ من بيتك إلى الشاطىء المذهب بأشعة الشمس الغاربة .

٢

كانت ، حياتي ، في عُفرةِ صباها ، شبيهة بالزهرة التي يتهاوى من تويجها ورقةٌ أو ورقتان ، ولا تشعر بخسارها البتة ، إمّا جاء نسيم الربيع يستجدي على بابها .

والآن ، وقد استشرف الشباب نهايته ، فقد أضحت حياتي شبيهةً

بالثمرة التي لا تضنُّ بشيء : انها تنتظر لتسلّم نفسها جميعاً مع كل ما تنوء به من حلاوة .

٣

ترى أوجِد عيد الصيف ، من أجل الازاهير المنوّرة ؟ ام الزوراق الميتة ، أم الازاهير الذابلة ؟

ترى أيتلاءم غناء البحر مع تلاطم أواذيه المزبدة فحسب ؟

أفلا يغني أيضاً مع الأمواج الهادئة ؟

ان البساطَ الذي يقف فوقه ملكي قد رُصّعَ بالجواهر ، بيد أن الأرضَ المتواضعةَ تتنظّرُ صابرةً ، قدميه تمسّانها .

قلائلُ أولئك العقلاءُ العظماءُ الذين يجلسون حول مولاي ، بيد أن مولاي مدّ ذراعيه على البسطاء واتخذني خادماً له دوماً .

٤

لقد استيقظتُ ، فألفيتُ رسالته قادمةً مع الصباح .

لا اعلم ماذا كانت تقول ، فلم يؤت لي أن أتعلّم القراءة .

سأدع الرجلَ العالم عاكفاً على كتبه ، ولن اضايقه أبداً ، تُراه يستطيع أن يفهم ما تعني الرسالة ؟

دعني ألمسْها بجبيني وأشدّها الى قلبي .

حين يمتدُّ الليلُ ، ساكناً ، وتسري النجوم ، نجماً في اثر نجم ، سأفتح الرسالة على ركبتي وألوذ بالصّمت .

ستتلوها عليّ الأوراق المتهامسة ، عالياً ، وسينغّمها لي الجدول الهادر

وستغنّيها لي النجوم العاقلة السبعة من السّماء .

لم يتأتّ لي أن أحظى بما أبحث عنه ، لم أستطع أن أفهم ماأتشوّف الى معرفته ، ولكن هذه الرسالة التي لم تتمّ لي قراءتها ، قد خفّفت من أعباني ، وأحالت أفكاري الى أغنيات .

٥

كان في استطاعة حفنة رمال أن تخفي عنّي علامتك ، حين كنت لاأفقه معناها .

أما الآن ، بعد أن اضحيت أوسع معرفةً فإنني استجليها في كلّ شيء كان يواريها عنّي من قبل .

فهي التي تتلوّن فوق أفواف الزهر ، وتتألّق على زبد الأمواج ، وتُزهى في قنن الجبال .

لقد نحّيتُ وجهي عنك ، ولذا فقد جعلت أقرأ رسائلك ، عَرَضاً ، دون أن أفهم معانيها .

٦

أنّى تكن الدروب معبّدة ، أضلّ طريقي .

في المياه الممتدّة ، وفي زرقة السماء لايوجد أثر مرسوم يُقتفى .

الممر مظَلّلٌ بأجنحة الطيور ، بجذى النجوم ، بأزاهير المواسم المتعاقبة .

وإنني لأسائل قلبي عمّا إذا كانت دماؤه تستبين معالم الدرب الخفيّة .

٧

وأسفاه ، لن أطيق المكوث في الدار ، فالمسكن لم يعد مسكني بعد الآن . إنّ الغريب الأبدي يناديني ، وهو سائرٌ في مدى الدروب .

إنّ خفق خطاه يقرع صدري ويؤلمني .

الريح تهبُّ ، والبحر يئن .

سأترك مشاغلي ووساوسي كلّها لألحقَ بذلك الموجِ التائه ، فإنّ الغريب يناديني وهو يسعى في مدى الدرب .

٨

ياقلبي... كن متحفّزاً للانطلاق وذرْ أولئك الذين عليهم أن يتخلّفوا .

لقد تعالى نداءٌ باسمك في سماء الفجر .

لاتنتظر أحداً .

إنّ البرعم يتوق الى الليل والندى ، غير أنّ الزهرة المتفتّحة تنادي النّور ليخلّصها . حطّم قيودك ، أيّها القلبَ ، وانطلق .

٩

حين تخلّفتُ بينَ كنوزي المحتجنة[١] ، كنت أشعر بأنني أشبه بالدودة التي تتغذّى في الظلام ، ضمن الثمرة التي ولدت فيها .

سأترك هذا السجن الفاني .

---

(١) المحتجنة : المختزنة .

لاأريد الطمأنينة العَفنة ، فإنني أسعى للبحثْ عن شبابٍ دائم . سأقذف بكلّ شيءٍ لا يتلائم مع حياتي ، بكلّ خفيفٍ كضحكتي .

سأعدو عبر الزمن ، فعلى مركبتك ، ياقلبي ، يرقص الشّاعر الذي يغنّي تائهاً هائماً .

١٠

لقد أمسكتَ بيدي وقدتني إلى عرش ثمّ أجلستني أمام الناس كلّهم الى جانبك ، واستشعرتُ من ذلك الخجلَ ، فلم أقدر أن أريم أو أسير في طريقي ، مستريباً ، ومقدّراً كلّ خطوة أخطوها خشيةَ أن أطأ على شوكةٍ من أشواك سخطهم .

وتحرّرتُ أخيراً .

ودهم الخطبُ ودوّى بوقُ الإهانة ، وتداعى عرشي على الثرى .

وانفسحت الدروبُ أمامي .

وامتلأت أجنحتي رغبةً في السّماء . سأمضي محلّقاً لأنضمّ الى نجوم منتصف الليل وأغوص في الظّل العميق .

إنني شبيه بالغمامة التي تطاردها ريح الصّيف ، حتّى إذا أضحت سليبةً من تاجها الذهبي ، شالت صاعقة كالسّيف فوق سلسلة من البروق .

في فرحةٍ يائسةٍ سأركض في درب المنبوذين المغبرّة ، مقترباً ، شيئاً فشيئاً ، من لقائك النهائي .

إنّ الطفل ليجد أمّه حين يغادر أحشاءها .

وكذلك ، حين غادرتك ، ورميتُ بعيداً عن وصيد بيتك . ألفيتني حرّاً في النظر الى وجهك .

١١

إنّها لاتزيّنني إلاّ لتسخر منّي ، هذه السلسلةُ الثمينةُ التي تخصّني .
إنّها لتؤلمني حين تطوّق عنقي ، وإنّها لتخنقني حين أحاول نزعها .
إنّها تتشبّث بعنقي ، وتُخرس أغنياتي .
إن أمكنني أن أهبها ليدك ، ياربّ ، فقد أنجو .
خذها منّي ، وعوضاً عنها ، شدّني اليك بإكليل ، فأنا أخجل أن أمثل أمامك ، وفي عنقي هذه السّلسلة الثمينة .

١٢

كان نهر (الجومنا) يسيلُ صافياً متدفّقاً في الوادي ، تهصُره ضفافُهُ الناتئة .
وكانت الرُبى الظليلة بالأشجار ، الملأى بأخاديد السّيول ، تتدوّر حواليه .
وكان المعلّم الأكبر (غوفيندا) جالساً على صخرة ، يتلو صحفَهُ ، حين قَدِم تلميذه (راغونات) المعتدّ بثرائه وانحنى أمامه قائلاً :
- إنّني أقدّم اليك هديّتي المتواضِعةَ ، إنّها غير جديرة بقبولك .
ولمّا استوفى كلامه ، وضع أمام المعلّم زَوْجَيْ أساور مذهّبة ، مرصّعين بأحجار كريمة .
وتناول المعلّم سواراً وأداره حول إصبعه . فنفضت الجواهر أنوارَها البرّاقة .
وعلى حين غرّة ، امّلس السوارُ من يده ، ثمّ تدحرج ووقع في النهر .
وصاح راغونات : واأسفاه!
ثمّ قفز الى عباب الماء .
وأرخى المعلّم ناظريه الى كتابه ، وحفظ الماءُ ماكان قد حازهُ وتابع جريَه .

وكان النهار يجنح الى النزول ، حين عاد (راغونات) متعباً مبللاً ، الى أستاذه .

وقال له وهو يلهث : قد أستطيع ، مع ذلك ، العُثور عليه ، إن أشرتَ الى المكان الذي وقع فيه .

وحينئذ رفع المعلّمُ السّوارَ الآخر ، ورمى به الى النهر قائلاً : إنّه هناك .

١٣

إنّ السّير هوَ في الإلتقاء بك ، كلّ لحظة ، يارفيقَ السّفر .

هو في الغناء على خفق خطاك .

إنّ من لامسته أنفاسكَ لايمرّ ، لواذاً ، بالشاطىء .

إنه يبسط للريح شراعَه الخفّاقَ ويمخر عباب الماء الهادر .

إنّ من يترك أبوابَه مفتوحة ثمّ يجوز عتباتها يظفر بتحيّتك .

إنّه لايجلس ليحصي أرباحه أو يأسى على خسارة .

إنّ وجيب قلبه يساوقُ مَشيَته ، ولهذا فإنّك تسايره خطوةً فخطوة ، يارفيقَ السّفر .

١٤

إنّ نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يديك ، كذلك كان وعدك .

ولهذا فإنّ نورك يتلألأ فوق دموعي .

إنني أتردّد في إتّباع الآخرين خشية أن أفوتك حيث تنتظرني ، عند منعطف الطّريق لتكون دليلي .

سأصرّ على السّير في طريقي ، حتّى يغريك جنوني نفسه بالقدوم الى بابي .

ذلك لأنني نلتُ وعدَك بأنّ نصيبي من متاع هذه الدنيا سوف يأتي من يديك .

١٥

إنّ كلامك بسيط أيّها المعلّم ، غير أنّ كلام الذين يتحدّثون بإسمك ليس ببسيط .

إنني أعي صوتَ نجومك وصمت أشجارك .

إنني أعلم بأنّ قلبي يودّ أن يتفتّح كالزهرة ، وإنّ حياتي قد أفعمت من ينبوعٍ خفيّ .

إنّ أغانيك الشبيهة بالطّيور القادمة من الأرض المنعزلة الكاسية بالثلج ، ترفّ فوق قلبي ، لتبني لها أعشاشاً تكون فيها بنجوةٍ من حرّ نيسان . وإنني لمغتبط بإنتظار الموسم السّعيد .

١٦

كانوا يعرفون الطّريق ، ويتّخذون أدراجهم بحثاً عنك في مدى الدرب الضّيقة ، أمّا أنا ، فقد كنت أدلج في الليل ، هائماً ضارباً في الأرض القصيّة ، لأنني كنت جاهلاً .

ولم أكن قد أوتيت قدراً كافياً من التبصّر حتّى أخشاك في الظّلمة ، ولهذا فقد ألفيتني ، مصادفةً ، أمام عتبة بابك .

لقد ثناني العاقل وأمرني بالعودة ، لأنني لم أسلك الدربَ الضّيقة .

وكنتُ بسبيلِ الرحيل ، والشّك يجاذبني ، حين احتجزتني وضممتني بشدّةٍ اليك ، فأضحت سورة غضبهم ، كلّ يوم ، أشدّ عنفاً .

١٧

لقد أمسكتُ بمصباحي الأرضي وصرختُ وأنا أغادرُ البيت :
ـ تعالوا أيها الأطفال ، سأنير دربكم .
لقد كان الليل داجياً حين عدت ، مخلّفاً الدرب في صمتها وصارخاً :
ـ أنيري أيّتها النّار الإلهيّة دربي ، فإنّ مصباحي الأرضي محطّمٌ ملقى على التراب .

١٨

لا ، ليس في استطاعتك أن تحيلَ البراعم الى أزهار . هزّ البرعم ، اضربهْ ، فلن تكونَ لك القدرة على جعله زهرة .

إنَ لَمْسَتك تفسده ، إنّك تمزّق أفواهه وتذروها على التّراب .

ولكن لن يتراءى أيّ لونٍ ولن يضوع أي أريج . آه ، لن يكون في استطاعتك أن تُحيل البرعمَ الى زهرة .

إنّ الذي ينوّر البرعم ، يتأتّى له ذلك في يسر . إنّه يرامِقهُ بنظرةٍ فيتمشّى رحيقُ الحياة في عروقه . وتبسط الزهرة ، على لهاثه ، أجنحتها وتتمايل على هينمة الريح .

وتتّقد ألوانُها كتعلاتِ القلبِ ، ويشي أريجُها بسرّها العذب .

إنّ الذي ينوّر البرعمَ ، يتأتّى له ذلك في يسر .

١٩

حين قطف (سوداس) البستاني من حِفاف بركته زهرةَ (اللوتس)

الأخيرة ، الناجية من غوائل الشتّاء ، قَدِمِ الى باب القصر ليبيعها إلى الملك .

والتقى ثمّة بمسافر استوضحه قائلاً : ماثمن هذه الزهرة الباقية ؟ فإنني أريد تقديمها الى الربّ (بوذا) .

وأجاب (سوداس) : إن نقدتني (ماشا) ذهبيّة واحدة فهي لك .

وقَبِلَ المُسافرُ .

في تلك اللحظة خرج الملك ورغب في شراء الزهرة ، إذ كان بسبيل الذهاب ليرى الرب (بوذا) وقد ألفى أنّ هذه الزهرة التي نوّرت في الشتّاء ستكون هديّة ثمينة تُزجى الى قدمي بوذا .

ولمّا أفصحَ البُستانيّ بأنّه قد عُرض عليه (ماشا) ذهبيّة واحدة ، وعده الملك بعشر ، غير أنّ المسافر ضاعف الثّمن .

وحينئذ انحنى للبستانيّ وقال : لاأستطيع أن أبيع زهرتي .

فقد خيّل اليه ، على حرصه ، بأنه سينال ربحاً أوفى من الربّ (بوذا) نفسه الذي تنافسا من أجله .

وفي الظّل الصامت ، من غابةِ العنباء المشتجرة ، خلف أسوار المدينة ، كان (سوداس) واقفاً أمام الرب (بوذا) الذي يترقرق فوق شفتيه صمت الحب ، ويتلألأ في عينيه سلام يماثل نجمة الصّبح الوضيئة في فصل الخريف المغسول بالندى .

ورفع (سوداس) طرفه الى وجه (بوذا) ووضع زهرة (اللوتس) فوق قدميه ، وحنى رأسه حتّى داني التّراب .

وابتسم (بوذا) وسأله : ماهي أمنيّتك ؟

وصرخ (سوداس) : لمسةٌ صغيرةٌ من قدميك .

٢٠

أيّها الليل ، أيّها الليل المتّشح بالسّواد ، اجعلني شاعرَكَ .

لقد وقف بعضهم ، معتصماً بالسكوت ، في ظلّك ، طوال الأجيال . دعني اردّدْ أغانيهم .

خذني على مركبتك التي تسعى ، دون عجال ، قافزةً دون ضجّة ، من كونٍ الى كونٍ ، أيه أيّها الليل ، أيّها الملك في قصر الزمن ، أنت يابديع السّواد .

لقد انسربتْ ، في خفّة ، الى فناء دارك بعض الأفكار المتسائلة ، ثمّ طافت حول دارك التي لا يشعُ فيها مصباح ، تريد جواباً عن أسئلتها .

من بعض قلوب أصماها[١] سهم الفرحة الذي فوّقته[٢] يدُ المجهول ، انطلقت أناشيدُ الحبور وشقّت الظلامَ حتّى تناهت الى أغواره .

لقد صوّبتْ هذه الأرواح اليقظى بصَرَها الى نور النجوم وأخذها العجب وهي ترى الى الكنوز التي عثرت عليها فجأة .

إيه أيّها الليل ، اجعلني شاعرَها ، شاعرَ صمتك الذي لايسبر كنهه .

٢١

سألتقي بالحياة في كياني ، يوماً ما ، بالفرحة التي تختبىء في حياتي ، رغم أنّ الأيّام تعفّر دربي بغبارها التافه .

لقد استجليتها في البروق ، وأقبل عليّ لُهاثُها المتردّدُ فعطّر أفكاري لحظة .

---

(١) أصماها : أصابها .

(٢) فوّق السّهم : سدّده .

سألتقي يوماً ، بالفرحة ، خارج كياني ، بالفرحة التي تكمن وراء حاجز النور ، وسأنتبذ مكاناً في الوحدة الغامرة ، حيث تتراءى الأشياء كلّها كما سوّاها خالقُها .

٢٢

هذا الصّباح الخريفي ، مترعٌ بالنّور ، وإذا أضحت أغانيكَ طُرفةً[١] تعبة ، فأعطني نايك لحظة . سألهو به كما يروق لي ، تارَةً على ركبتي ، وتارَةً على شفتي ، وتارَةً أخرى أوسّده العشب الى جانبي .

غير أنني في صمت السّماء المهيب ، سأقطف أزهاراً وأضفر منها أكاليلَ لأغطّيه بها . سأفعمه بالعطور ، سأزجي اليه عبادتي ، وأنا أحمل مصباحاً منيراً .

وفي الليل سأعود اليك لأودِعكَ إيّاه .

وستنفخ أنت فيه موسيقا منتصف الليل ، حين يسعى الهلالُ المنفردُ ، هائماً بين النجوم .

٢٣

إنّ روح الشّاعر ترقص وترفرف فوق أمواج الحياة ، بين هدير الأوازي وزفيف الرياح[٢] .

والآن ، بعد أن غربت الشّمس ، وتدانت السماء المكفهرّة ، من البحر كما تتدانى أهداب طويلة من عيونٍ متعبة ، فقد أزفَت السّاعة التي يترك فيها الشّاعر قلمه .

---

(١) الطرف : المتقلّب .

(٢) زفيف الريح : صوتها .

٢٤

الليل داجٍ ، وأنت تخلد في نومكَ الى صمتٍ روحي . إيه ياألم الحب ، استيقظ ، فأنا لاأدري كيف أفتح الباب وأنا واقفٌ أمامه .

السّاعات تنتظر والنجوم ساهرة والريح ساكنة والصّمت ثقيلٌ تنوء به روحي .

استيقظ أيّها الحب استيقظ ، واملأ كأسي الفارغة ، وتعال هزّ الليلَ بلهاثِ أغنية .

٢٥

إنّ عصفور الصّباح يلغو .

كيف عرف بأنّ الفجر سينبلج ، فيما يلفّ ماردُ الليل السّماءَ بطيلسانه البارد الأسود ؟

قلْ ياعصفورَ الصّباح كيف وجد الرسول المنبثق من الشّرق طريقه عبر ليل السّماء وليل الأوراق حتّى تناهى الى أحلامك ؟

إنّ العالم لم يكن ليصدّقك وأنت تصرخ : لقد أشرقت الشّمس وولّى الليل .

أيّها النائم ، أفق .

احسر عن جبينك ، انتظاراً لمقدم الشّعاع الأوّل المبارك من النّور ، وغنّ مع عصفور الصّباح في تدفّقٍ طروب .

٢٦

إنّ المتسوّل السّاكن في إهابي قد رفع يديه الهزيلتين نحو السّماء

الخالية من النّجوم وهتف في اذن الليل بصوته الساغب .

إنّ صلواته قد هفّت نحو الظلمة العمياء القاتمة كربٌ هابطٍ منتصبٍ في سماءٍ موحشةٍ تعجّ بالأماني الضائعة .

وماتتْ صَرخَة الرغبة على شفا هوّة اليأس ، وأخذ عصفورٌ نائحٌ يدور حول عشّه المهجور .

ولكنْ... حين ألقى الصّباح مراسيه على سيف[1] الشرق فإنّ المتسوّل الساكن في إهابي قفز صارخاً :

ـ مباركٌ أنا ، فالليل الأصمّ قد أنكرني ، وخزائنه أضحت خاوية .

وتابع هاتفاً :

ـ إيه أيّتها الحياة ، إيهٍ أيّها النور ، إنّكما ثمينان ، وثَمينةٌ أيضاً تلك الفرحة التي عَرفتكما أخيراً .

٢٧

كان (ساناتان) يداعب سبّحته وهو واقف على شاطىء نهر (الغانج) حين قَدِمَ اليه برهمي في ثياب لبيسةٍ[2] وقال له : انجدني فإنني فقير .

وأجاب (ساناتان) : لم يبق لديّ سوى وعاء الصدقات ، فقد وزّعت كلّ ماكان في حوزتي .

وقال البرهمي : ولكنّ ربّي (شيفا) تراءى لي في الحلم ونصحني بأن أقصدك .

وتذكّر (ساناتان) ، فجأةً ، أنه كان قد عثر على حجر لايقدّر بثمن ، بين حصى الشّاطىء ، وأخفاه في الرّمل ، وهو يحسب أنّه قد يضحى ذا نفعٍ لأحدٍ ما

(١) السيف : الساحل .

(٢) اللبيسة : البالية من اللبس .

وأشار بإصبعه الى مكانه للبرهمي الذي أخرجه وهو يعجب .

واقتعد البرهمي الأرض ، وحيداً يفكّر حتّى اختفت الشّمس خلف الأشجار وقاد الرعاة قطعانهم الى الحظيرة .

وحينئذ نهض قائماً وتقدّم ، بتمهّل ، من (ساناتان) وقال له : أيّها المعلّم ، هب لي أحقر ذرّة من ذلك الثراء الذي يزدري ثراء العالم كلّه .

والقى بالحجر الثمين في الماء .

٢٨

يوماً بعدَ يوم ، كنتُ أقدمُ الى بابك ، بيديَ الضّارعتين ، أطلب اليك واستزيدك .

وقد أعطيتني ثمّ أعطيتني ، بقدرٍ ضئيلٍ تارّةً ، وبسخاءٍ مفاجيءٍ تارّةً أخرى .

وقد تناولت بعض هباتك وتركت بعضها يتهاوى ، وكان بعض منها تنوء به يداي ، وصنعت من بعضها الآخر دمىً حطّمتُها بعد أن بَرمتُ بها ، حتّى قامت من حطام عطاياك وهباتك أكوام وراتكَ عن نظري وهصر الإنتظار المستمر قلبي .

« خذ آه خذ » تلك هي صيحةُ قلبي الآن .

بدّد كل مايحمله هذا الوعاء ، وعاء المتسوّل ، وأطفيء ذلك المصباح الذي يمسك به السّاهر اللجوج . اقبضْ على يديَ وارفعني فوق تلك الأكوام من عطاياك التي لاتني تتراكم حتّى أصل الى الامتداد المقفر من وجودك المنزوي .

٢٩

لقد وضَعتني بينَ المغلوبينْ .

إنني أعلم أنه ليس لي أن أربح ولا أن أنكفيء عن حلبة اللعب .

سأغوص في البركة وإن عرفت بأنّي سأنتهي الى قاعها .

سأقامر بلعبة تفضي الى خسارتي .

سأقامر بكل ماأملك ، حتّى أفقد آخر درهمٍ عندي . سأقامر بكياني نفسه ، ثمّ أفكّر بأنني سأربح من خلال خسارتي نفسها .

٣٠

إنّ بسمة الحبور كانت تشيع في السّماء حين كسَوتَ روحي برثّ الثياب وبعثتَ بها لتستجدي على الدرب .

لقد كانت تذهبُ من بابٍ الى بابٍ ، وغالباً ماكان يحدث لها أنّ وعاءها مايكاد يمتلىء حتّى يُسرق ما فيه .

وفي نهاية نهارٍ متعب ، أقبلتْ الى بابِ قصرك ورفعتْ وعاءها الحقير وحينئذ أتيتَ وأمسكتَ بيدها وأجلستها على العرش الى جانبك .

٣١

طلب الربّ (بوذا) الى تلاميذه حين كانت المجاعة تستبد بمدينة (شرافاستي) :

ـ من الذي سيعنى بإطعام الجائعين ؟

وخفض الثري (راتناكار) رأسه قائلاً : إنّ إطعام الجائعين يتطلّب مالاً يزيد كثيراً عن ثروتي كلّها .

وقال (جايس) قائد جيش الملك : إنني أبذل دمي ، مسروراً ، غير أنه لايوجد طعام كافٍ في بيتي .

وتنهّد (دارمابال) الذي يملك مراعي فسيحة وقال : إنّ إله الرياح قد

جعل حقولي جافّة ولاأدري كيف سأسدّد ضرائبي الى الملك .

وحينئذ نهضت (سوبريا) ابنةُ المتسوّل ، وانحنت أمام الجميع وقالت في تواضع : سأطعم هؤلاء الجائعين .

وصرخ الجميع في عجب : ولكن كيف تأملين أن تتمكّني من تحقيقِ مبتغاكِ ؟

وقالت (سوبريا) : إنني أفقر إنسانٍ بينكم ، هذه هي قوّتي ، أمّا المال والخيرات فسأجدها في كلّ بيت من بيوتكم .

٣٢

لقد كان ملكي مجهولاً لديّ ، وهكذا فقد جرؤت ، حينَ طُلِبَ اليّ أداءَ الضريبة ، أن أفكّر في التّواري ، تاركاً ديوني غيرَ مسدّدة .

لقد هَربتُ بعيداً ، مُخْلِفاً عملَ يومي وأحلامَ ليلي .

ولكنّ طلباته كانت تلاحقني في كلّ زفرة تتردّد في لهاثي .

غير أنني علمتُ بأنني معروفٌ لديه وإنّ كلّ ما في حوزتي لايخصّني .

أما الآن ، فإنني أتشوّف الى أن أضع مالي كلّه أمام قدميه ، وأن يكون لي نصيب في كلّ مكانٍ من مملكته .

٣٣

حين فكّرت في أن أنحت لك مثالاً للعبادة مقتبساً من حياتي ، فقد أحضرت ترابي ورغباتي وأوهامي الملوّنة وأحلامي كلّها .

حين طلبت اليكَ أن تخلقَ من حياتي مثالاً مقتبساً من قلبك ليتّسقَ لي أن أحبّك ، فقد أحضرتَ ناركَ وقوّتكَ وحقيقتكَ وحبّك وسلامكَ .

٣٤

قال الحاجبُ لِمَلِكه : مولاي إنّ القدّيسَ (ناروتام) قد أنف أن يدخل معبدك الملكي .

إنّه يترنّم بحمد ربّه والدعاء له ، في ظلّ أشجار الدّروب الفسيحة ، والمعبدُ خالٍ من المتعبّدين .

إنهم يتدافعون ويتحلّقون القدّيس كأسرابِ النحل التي تتحلّقُ زهرة اللوتس البيضاء ، عازفةً عن الجفنة المذهّبة الملأى بالشهد .

وأسرع الملك كاظماً غيظه ، الى حيث اتّخذ (ناروتام) مجلسه فوق العشبِ وسأله : ابتاه ، لِمَ هجرتَ معبدي ذا القبّة الذهبيّة وجلستَ فوقَ التراب لتدعو الى محبّة الرب ؟

فقال (ناروتام) : لأنّ الرب لايوجد هناك ، في معبدك .

وزوى الملك ما بين عينيه وأجاب : أفلا تعلم أنه قد بُذل عشرون مليون قطعة ذهبيّة لإنشاء هذه الطُرفة الفنّية ، وأنّها قد أعدّت لعبادة الله ، واستلزمت طقوساً ثمينة ؟

وقال (ناروتام) : بلى أنا أعلم . لقد كان ذلك في العام الذي فزع فيه الى بابُك ألوف من رعاياك يطلبون العون عبثاً ، بعد أن دهمت النار بيوتهم ، فتساءل الرب : أيبني لي هذا المخلوق التّعسْ معبداً ، ولايقدرُ أن يقدّم الى إخوانه المأوى ؟

وهكذا اتّخذ الرب مكانه لدى أولئك الذين لامأوى لهم في ظلّ أشجار الدروب الفسيحة .

إنّ هذا المعبدَ ، هذا الزَبدَ المذهّب هو فارغ ، إلاّ من بخور الخيلاء الذي يضوع فيه .

وصرخ الملك غاضباً : اخرج من أرضي .

فأجاب القدّيس في هدوء : أجل ، اخرجني من حيث أخرجتَ أنت من قبل ربّي .

٣٥

البوق جاثمٌ في التّراب .
الريحُ متعبةٌ والنّور ميّت .
آه أيها البوم المشؤوم .
تعالوا أيّها المناضلون ، أنتم يامن تحملون الألوية . أيّها المغنّون ، أقبلوا بأناشيد الحرب .
تعالوا أيّها الحجّاج المغذّون في السّير ، المسرعون في الرّحيل .
إنّ البوق جاثمٌ في التّراب ينتظرنا .
كنت أحمل ، وأنا في طريقي الى المعبد ، قرابين المساء ، وكنت أبحث عن مكان راحة أفيءُ اليهِ ، بعد عناء عملِ نهارٍ أغبر ، وكنت آملُ أن أجدَ بلسماً لجراحي ، وماءً طهوراً لثيابي الملوّثة حين ألفيت بوقكَ وقد توسّد التّراب .
أفلمْ تأنِ السّاعةُ التي أشعل فيها مصباحَ الليل .
أفلا يهدهد الليلُ النجومَ بغنائه .
إيهٍ أيّتها الوردة المخضّبة بالدم ، إنّ الأعشاب المنوّمة قد اصفرّت وصوّحت .
كنت موقناً بأنّ ضلالاتي قد مضت ، وأنّ ديوني قد سُدّدت ، حين اكتشفتُ ، فجأة ، بوقك وقد توسّد التّراب .
اضرب قلبي الناعس بسحر شبابك .
دع فرحة حياتي تلتهب كالشّعلة .

دعْ سهامَ الفجر تنفذ في قلب الليل ، ولتهزّ رعشة الوجل إهابَ الضلال والجمود .

لقد جئت لأرفع بوقك من التّراب .

لن يستولي النّوم عليّ أبداً ، سأتّخذ سمتي ، ماشياً بين سيول السّهام .

سيخفّ إليّ بعضهم من بيوتهم ويلزم جانبي ، وسيأخذ بعضهم في البكاء .

سيهتزّ آخرون في رقادهم وسيصرخون في أحلامهم المرعبة .

في هذه الليلة سيدوّي بوقك .

لقد سألتك الأمنَ ولم ألق سوى الهوان .

والآن سأمثل أمامك فأعنّي على ارتداد درعي وتقلّد سلاحي .

دعْ ضربات المحن القاسية تضرم النّار في حياتي .

ذرْ قلبي يخفق في الألم بدوّي النصر .

سترتفع عندئذ ، يداي الخاويّتان ببوقك .

٣٦

حينَ شالوا في فرحتهم المجنونة ، وَحْلاً ليلوّثوا به ثوبك ، آه ، أيّها البديع ، فإنّ قلبي قد تفطّر ألماً .

وصرختُ وقلتُ له : أمسك بسوط العذاب واحكم عليهم .

وكان نور الصّباح يسفع تلك العيون المحمرّة بفجور ليلتهم . واستقبل بستان السّوسن الأبيض لهاثهم المحرق ، وجعلت النّجوم تتأمّل ، عبرَ أعماق الظّلمة المقدّسة ، في فسقهم ، فسقِ أولئك الذين كانوا يتناولون وَحْلاً ليلوّثوا به ثوبك ، آهٍ أيّها البديع .

وكان مجلس عدلك ، يسمو في بستان الأزاهير ، في ربيع مخضلٍّ

بألحان الطّيور ، على سيف الأنهار الظّليل ، حيث يتجاوب همس الأشجار مع همس الأمواج .

إيهٍ أيّها الحبيب ، لقد نضبت نفوسهم من الرأفة ، وهم سادرون في ضلالهم .

لقد داروا في الظّلام لينتزعوا حليكَ ويزيّنوا به شهواتهم وحين ضربوكَ وعذّبوك ، تصدّع قلبي ألماً ، وصرختُ قائلاً : أمسك بسيفك أيّها الحبيب وعاقبهم .

بيدَ أنّ عدلك كان ساهراً .

لقد ذُرفت دموعُ أمٍّ على تحدّيهم ، بيد أنّ رحمة الحبّ الخالدة قد وارت في جراحها أسلحةَ تمرّدهم .

وكان عقابكَ لهم يتّسق في ذلك الألم الصّامت من الحبّ اليقظان ، وفي تلك الحمرة المترقرقة من الطّهر ، وفي تلكَ الدّموع التي يسفحها المحزون في الليل ، وفي ذلك النّور الشّاحب المنسكب من فجر الغفران .

آهٍ أيّها الرهيب ، إنهم في جشعهم المتمادي ، قد تجاوزوا ذات ليلة حدودهم فحطّموا أبوابَ بيتك لينهبوا ما لديكَ .

ولكنّ عبء أسلابهم أضحى ثقيلاً فلم يقدروا أن يحملوها بل أن يحرّكوها ، حينئذ صرختَ قائلاً : إغفر لهم آه ، أيّها الرّهيب .

وانتشر غُفرانكَ في عواصفَ زعزعتهم وبعثرت أسلابهم في التّراب .

لقد كان غفرانك في الصّاعقة ، في الأمطار الدّامية . في الغضب المخضّب المنثالِ من الشّمس الغاربة .

٣٧

كان (اوبوغوبتا) تلميذ (بوذا) يتوسّد التّرابَ ، مضطجعاً وظهره الى سور مدينة (ماتورا) .

وكانت المصابيح كلّها مطفأةً ، والأبواب كلّها موصدةً ، والنّجوم كلّها خبيئةً في سماءٍ غائمةٍ من شهر آب .

لمن هذه الأقدام التي يوسوس حليها ويلامس صدره عفواً ؟

لقد استيقظ مرتعشاً ، وفجأ نورٌ يشعّ من مصباحِ امرأة ، عينيه الطّافحتين بالغفران .

كانت راقصةً مزيّنةً بالجّواهر ، ملتفّةً بمعطفٍ حائلِ الزرقة ، وكانت ثملةً بخمر صباها .

وطامنت مصباحها ، فرأت وجهاً فتيّاً ذا قسمات جميلة بادية التقشّف .

وقالت المرأة : اغفر لي أيّها النّاسك الفتى ، أفلا تقبل الى بيتي فيأهل بك ؟ إنّ الأرض المغبرّة لاتليق بك فراشاً .

وأجابها النّاسك : على رسلك أيّتها المرأة ، حين يأزف الزّمن ، فإنني سآتي اليك .

وانشقّ الليل الأسودُ ، فجأة ، عن وميضِ برقٍ . وأقبلت العاصفة من الأفق راعدةً ، فارتجفت المرأة رعباً .

***

وكانت أغصان الأشجار النّامية على حيد الدّرب تتثنّي ببراعمها .

وكانت أنغام النّاي الجذلى تهزج بعيداً مع نسيمات الربيع الدّافئة .

وكان سكّان المدينة قد فزعوا الى الغابة احتفالاً بعيد الأزاهير .

وكان القمر يتأمّل ، من مشارف السّماء ، في ظلال المدينة الصّامتة .

وكان النّاسك الفتى يسير في الطّريق المقفرة ، وفوق رأسه كانت الطّيور المتيّمة حبّاً تغرّد على عَذَباتِ أغصان العنباء شكاتها اليقظى .

وجاز (اوبوغوبتا) بابَ المدينة وانتصب أمام السّور .

من هي تلك المرأة المضطجعة ، بحذاء قدميه ، في ظلّ السّور ، المصابة

بالطّاعون الأسود ، المنقولة بمحفّة ، سريعاً ، الى خارج المدينة ، وجسمها ملطّخٌ بالجراح ؟

وجلس النّاسك الى جانبها ، وأمسك برأسها وأراحه على ركبتيه وبلّلَ شفتيها بالماء ، ولفّ جسمها بالضّماد ، وسألته المرأة : من أنت أيّها الرحيم ؟

فأجابها النّاسك الفتى : لقد أزف الزمن الذي أزورك فيه ، وها أنذا أمامك .

٣٨

إنّ الحب الذي يجمع بيننا ، ياحبيبي ، ليس عبثاً بسيطاً .

مرّةً تلو المرّة ، عصفت بي ليالي الرياح المزمجرة ، مطفئةً مصباحي ، تجمّعت الشّكوك السوداء لتمحو النجوم كلّها من سمائي .

مرّةً تلو المرّة ، تحطّمت السدودُ لتدع فيضَ الماء يجرف حصادي ، ومزّق اليأسُ والنحيبُ ، أطراف سمائي .

وقد تعلّمت أنَ ضربات الألم تتردّد في حبّك ، ولا تتردّد في جمود المنية البارد .

٣٩

وينشقّ الحائطُ ، ويتسلّل النورُ ، تلك الضحكة الآلهية .

أيّها النصر ، إيهٍ أيّها النور .

إنّ قلب الليل طعينٌ .

إقطع بسيف شعلتك عقدة الشّك والرغبات الواهنة .

أيّها النصر .

تعال أنت الذي لايهدأ أواره .

تعال أيّها الرهيب في بياضك النّاصع .

إيهٍ أيّها النّور ، إنّ قرع طبلكَ يواكب مشيةَ النّار ، والشعلة الحمراء قد رفعت الى العلاء ، والموت يُحْتَضر في روعةٍ راعشةٍ .

٤٠

أيّها اللهب ، ياأخي ، إنني أغني لك أغنية النصر .

أنت صورة خضيبة متلألئةٌ للحرّية المخيفة .

إنّك تمدّ ذراعيك الى السّماء وتمسّ بأناملك الثائرة ، أوتار المعزف .

إنّ موسيقا رقصتك لرائعة .

حين تنتهي أيّامي ، وتفتح الأبواب ، فإنّك ستحرق أوتارَ يدي ورجلي ، حتّى تصير الى رماد .

سيتّحد جسمي بك ويؤلّف معه كلاً واحداً ، وستعصف زعازعُ جنونك بقلبي ، وستتفجّر في دفقةٍ واحدةٍ ، الحرارة المحرقة ، التي كانت تكمن في حياتي ، وتنحو اليك لتمتزج بشعلتك .

٤١

الملاحُ يتهيّأ في الخارج لركوب البحر الهائج ، تحت جنح الليل .

القلوع تئنّ ، على جذب الريح الغضوب التي تملأ أشرعتها .

وتمزّقت السّماء بمخالب الليل ، وتطامنت فوق البحر وبثّت فيه سمّ المخاوف السّوداء .

الأمواج تنفض ذراها نحو الحلكة الدّاجية ، والملاّحُ يتهيّأ في الخارج ليركب البحر الهائج .

لا أعلم أيّ موعدٍ ينتظر الملاّح في الخارج وهو يُرعش الليل ببياضٍ مفاجىء من أشرعته .

لاأدري أيّ شاطىء يرسو عليه أخيراً ليصل الى الحديقة الصّامتة ، حيث ينير المصباح ، فيلقى تلك التي تنتظره وهي تقتعد التّراب .

الى أي هدف يسعى قاربه الذي لايهاب العاصفة والظّلام ؟

تراه مثقلاً بالجواهر واللآلىء ؟

لا . إنّ الملاّح لايحمل معه كنوزاً ، بل يحمل زهرة بيضاء في يده وأغنيةً على شفتيه .

ليقدّمهما الى تلك التي تسهر وحدها في الليل ، مع مصباحها المنير .

إنّها تسكنْ في كوخها القائم على الطّريق .

وغدائرها تنوس في الرّيح وتخفي عينيها .

العاصفةُ تعول عبر الأبواب المحطّمة ويترنّح النور في مصباحها ، مريقاً ظلاله فوق الجدران .

إنّها لتسمعه في زفيف الريح ، يناديها باسمها ، هي ذات الاسم المجهول .

منذ زمنٍ طويلٍ أقلع الملاّح .

ينبغي مرورُ زمنٍ طويلٍ حتّى يسفر الفجر ويقرع بابها .

لن تُضرب الطّبول ولن يعلم أحد .

ولكن سيفعم النورُ الدارَ وسيضحي التراب مباركاً سعيداً .

ستتلاشى الشكوك كلّها ، في صمتٍ ، حين يصل الملاّح الى الشّاطىء .

٤٢

إنني أتعلّق بتلك العوامة الحيّة ، بجسدي ، لأعبر بها ذلك النهر الضّيق من أعوامي الأرضيّة وسأتركه حين تتم النقلة .

وبعد ذلك ؟

لاأدري ما إذا كان النّور واليقظة سيتشابهان هناك .

إنّ المجهول هو الحرّية الدّائمة .

إنه لايعرف الرّحمة في حبّه .

وإنّه ليحطّم الصّدَفَة ليعثر على اللؤلؤة في سجنها المظلم .

أفلا تحلم في الأيّام الخالية وتبكيها أيّها القلب المسكين ؟

افرح فإنّ أيّاماً لك هي بسبيل القدوم .

آهٍ أيها الحاج ، لقد دقّت السّاعة .

هاقد أقبل الزمن الذي تأخذ فيه أدراجك .

سيحسر لك عن وجهه ، مرة أخرى ، وسَتَلْفي نفسك أمامه .

٤٣

بنى الملك (بمبيسار) فوق ضريح (بوذا) مذبحاً من المرمر الأبيض تمجيداً لذكراه .

وفي المسّاء كانت الزوجات والفتيات في بيت الملك يقبلن كلّهن بقرابين الزهر ويشعلن المصابيح . ولمّا تسلّم ابن الملك العرشَ غمرَ في عهده نحلةَ أبيه بسيولٍ من الدّماء وأرّث بكتبه المقدّسه نيرانَ المحارق .

وكان يوم الخريف يحتضرْ .

ودنت ساعة العبادة في السّماء .

ورامقت في هدوء (شريماتي) وصيفة الملك المؤتّمة بمذهب الرب (بوذا) ، فيما كانت تغتسل بالماء المقدّس وتضع فوق الطبق مصابيحَ وبراعمَ بيضاءَ ريّا ، رامقت بعينيها الكئيبتين وجهَ المَلِكة .

وارتعشت الملكة خوفاً وقالت : أفلا تعلمين أيّتها الفتاة الرعناء أنّ المِوت هو عقاب من يتّجه بعبادته الى مذبح (بوذا) ؟

تلك هي إرادة الملك .

وانحنت (شريماتي) ساجدةً أمام الملكة ، ولمّا جازت الباب انتصبت واقفة أمام (أميتا) زوج ابن الملك الجديدة .

وكانت الزّوج الجديدة تضفر شعرها الطويل الفاحم ، وقد أراحت على ركبتيها مرآة مذهّبةً مليسةَ الصّقال ، وجعلت ترسم علامة السعد الحمراء على مفرق شعرها .

وارتجفت يداها حين لمحت الفتاة وصرخت قائلة : أي خطر رهيب تسوقينه إليّ ، اغربي عن وجهي الآن .

وكانت الأميرة (شوكلا) جالسة أمام النّافذة وهي تطالع ، على نور الشّمس الغاربة ، كتاباً في الحب ، وجاذبتها رعشةٌ حين بصرت بالفتاةِ أمامَ الباب ، حاملةً قرابينها المقدّسة .

وسقط الكتاب من ركبتيها وهمست في اذن (شريماتي) :

ـ لاتُسرعي الى حتفك أيّتها المرأة الجريئة .

وكانت شريماتي تدور من بابٍ الى باب .

وكانت ترفع يديها هاتفةً : إيه يانساءَ الملك أسرعن ، لقد أزف وقت عبادة الرب .

وأغلق بعضهنّ الباب في وجهها وأهانها بعضهنّ الآخر .

وكانت أشعّة النهار الأخيرة تذوي فوق قبّة برج القصر البرونزيّة . وكانت ظلالٌ داكنة تتجمّع في أطراف الدروب ، وعلت جلبة المدينة ، ودوّى

طبل معبد (شيفا) مؤذناً بساعة صلاة العشاء .

وكانت النجوم ترفّ بالنّور في عتمةِ مساءٍ خريفيٍّ عميقٍ كبحيرةٍ صافية ، حين ارتجف حرّاس الحديقة الملكيّة وهم يشاهدون عبر الأشجار المتواشجة صفّاً من المصابيح تتلألأ في مذبح (بوذا) .

وخفّوا مسرعين وقد شرّعوا سيوفهم وأخذوا يصرخون :

ـ من أنتَ أيّها المجنون الذي يتحدّى الموت ؟

وأجاب صوت عذب : أنا (شريماتي) خادم الرّب بوذا .

وبعد لحظة صبغ دمُ قلبها بخضابه الأحمرِ المرمرَ البارد .

وفي هدأة النجوم كانت تذوي أشعّة آخر مصابيح العبادة أمام المذبح .

٤٤

إنّ هذا اليوم الذي يفصل بيني وبينك يشير الينا إشارة الوداع .

وأرخى الليل سدولَه على وجهه ، وأخفى المصباح الوحيد الذي ينير في غرفتي .

لقد دخل خادمك الأسمر ، دون ضجّة ، ومدّ بساط الزوجيّة لتتّخذ مجلسك فوقه ، وتخلو إليّ في صمت الكون ، حتّى ينقضي الليل .

٤٥

لقد مرّ الليل فوق سرير الحزن . لقد استبدّ التعب بعينيَ . إنّ قلبي المثقل لمّا يستعد لاستقبال الفجر بأفراحه الجمّة .

أسدلْ ستاراً على ذلك النّور العاري . أقصِ عنّي ذلك البريقَ السّاطعَ ، وابعد عنّي رقصة الحياة .

فليسربلني وشاحُك ذو الظّلمة النّاعمة بطيّاته ، وليسربل ألمي ويحجبه ، لحظةً ، من عناء هذا الكون .

٤٦

لقد مرّ الزمن الذي كان في مقدوري أن أعيد اليها كلّ ماكنت أتلقّاه .

إنّ ليلها قد لقي فجره ، وقد أمسكتْ بها يداك . سأجلب ، اليكَ أنتَ ، عرفاني وهباتي التي كنتُ أخصّها بها .

إنني قادمٌ اليك ، لتمنحها مغفرتك ، وإنّها لتتشفع بالآلام والإهانات التي تلقّتها .

إنني أزجي الى خدمتك ، هذه الزهرات ، زهرات حبّي التي تظل مبرعمة ، فيما تنتظر هي أن تتفتّح .

٤٧

لقد عثرتُ في صندوقها الصغير على بعض رسائلي مخبّأةً بعناية ـ تلك قبضةٌ من الدمى الصغيرة التي تلهو بها ذاكرتها .

لقد حاولت بقلبٍ واجف ، أن تنجو بهذه التفاهات من نهرِ الزمنِ الجارف ، وقالت : إنّها لي ، لي وحدي ، آهٍ ، لم يبقَ إنسان يطالب بها ، ليدفع ثمناً لها تلك العناية العاشقة ، فلما تزال خبيئةً هنا حتّى الآن .

إنّ في هذا العالم ـ لابدَ ـ حبّاً ينقذها من النسيان التّام ، كما أنقذ حبّها ، بعنايةِ العاشقة الحنون ، تلك الرسائل .

٤٨

أيّتها المرأة ، اجلبي لحياتي البائسة الجمال والنظام ، كما كنتِ تجلبينَ ذلك لمنزلي وأنتِ حيّة .

اكنسي غبار السّاحات وأوساخها . املأي الجرار الفارغة . ورتّبي كلّ ما أضحى مهملاً .

ثمّ افتحي الباب الدّاخلي ، في المذبح ، وأشعلي الشموع ، ولنتلاقَ ، في صمتٍ ، هناك أمام ربّنا .

٤٩

مولايَ ، لقد أضحى الألم كبيراً . حين تمّ ضبط الأوتار ومؤالفتها .

ابدأ بموسيقاك ، ودعني أنسَ فيها الألم ، اجعلني استشعر الجمال فيما كان يدور بخلدك خلال الأيّام القاسية .

إنّ الليل الذي يتضاءل ويُمحى ، يمكث متأخّراً على أبوابي ، دعه يتلاشَ في أغنيات .

دعْ قلبكَ ، يامعلّمي ، يتسلسل على أوتار حياتي ، في نغماتٍ تتنزّل من نجومك .

٥٠

في بريقٍ لحظةٍ خاطفة ، استجليتُ عظمةَ خلقكَ في حياتي ، هذا الخلق الذي يتسلسل ، عبر الموت من كونٍ الى كونٍ .

لقد بكيتُ على اتّضاعي ، وأنا ألفي حياتي رهنَ ساعاتٍ لامعنى لها ،

بيدَ أنني حين أراها بين يديك ، أعلم بأنّها أجدى كثيراً من أن تُبعثرَ بين الظّلال .

٥١

إنني أعلم بأنّ الشّمس ستوافيني ، ذاتَ يومٍ ، في غروبٍ داكنٍ ، بوداعها الأخير .

سينفخ الرعاة في ناياتهم ، متفيّئين أشجار التين ، وسترعى القطعان عند منحدر النهر فيما تترادف أيّامي في الظّلام .

ويهفو هذا الدّعاء منّي : تُراني أستطيع أن أعلم ، قبل أن أغادر الأرض ، لِمَ أخذتني بين ذراعيها ؟

علامَ حدّثني صمتُ لياليها عن النجوم ؟ ، علامَ بَرْعَمَ شعاع نهارها ، بقبلته ، زهرة خواطري ؟

ترى هل يتأتّى لي ، قبل الرحيل ، أن أتخلّف واستريح الى نغمي الأخير ، حتّى أتمم به موسيقاه ، وأن يشعَ المصباح حتّى استجلي وجهك ، وأن يضفر الإكليل حتّى أزيّنك به ؟

٥٢

ماهي تلكَ الموسيقا التي تهدهدُ الكونَ بإيقاعها ؟

إننا لنضحك حين يتردّد صداها فوق ذروة الحياة ، ونرتجف هلعاً حين تنكفيء الى الظّلمة .

ومع هذا ، فإنّ هذا النغم هو نفسه الذي يقبل وينأى على وزن هذه الموسيقا الخالدة .

إنّك تخفي كنزك ، وإننا لنصرخ : إننا قد سُرقنا .

ولكن سواء عليك أشددت راحَتَكَ أم بَسَطتها ، كما تشاء ، فإنّ الربح والخسار متماثلان .

إنّك في لهوك مع نفسك تخسر وتربح معاً .

٥٣

لقد لثمتُ هذا الكون بعيني وجسمي كلّه ، وأدخلته قلبي بطيّاته التي لاحصر لها ، وسفحت فوق أيّامه ولياليه شتّى الأفكار ، حتّى التأم الكون مع حياتي في كلٍّ واحدٍ ـ وإنني لأكلف بحياتي لأنني أعبد نور السّماء الكامن في نفسي .

إذا كانت مغادرة هذا الكون حقيقةً كحقيقة الشغف به ، فينبغي أن يكون ثمّة تفسيرٍ لكل لقاءٍ أو فراقٍ في الحياة .

وإذا كان على الحبّ أن يحظى بالخيبة من الموت ، فإنّ حشرة هذه الخيبة سوف تقرض كلّ شيءٍ وسوف تذوي النجوم نفسها وتمسي مظلمة .

٥٤

قالت لي الغمامة : سأمّحي .

وقال الليل : سأغيب في الفجر المضطرم .

وقال الألم : سألوذ بصمتٍ عميقٍ كآثارِ خُطاه .

وأجابت حياتي : سأموت وأنا في منتهى الكمال .

وقالت الأرض : إنّ أنواري تلثم أفكارك في كلّ لحظة .

وقال الحب : وتمضي الأيّام ولكنني أنتظرك .

وقال الموت : سأقود زورق حياتك عبرَ البحر .

٥٥

كان الشاّعر (تولسيداس) يتخطّر ، وهو مستغرق في أفكاره ، قرب نهر (الغانج) ، في ذلك المكان المنعزل الذي يحرق فيه الموتى ، فَبَصُرَ بإمرأةٍ ، اتّخذت مجلسها الى جانب قدمي جثمان زوجها ، وقد لفّ برداءٍ زاهٍ كأنّه ثوبُ عُرس .

ولمّا رأته ، نهضت ثمّ جثت ساجدةً له وقالت :

مولاي اسمح لي أن أتبع زوجي الى السّماء محفوفةً ببركتكَ .

وأجاب (توليسداس) : فيمَ العجلة يابنيّتي ؟ ألا تخصّ هذه الأرض ذاك الذي سَمَك[1] السماء ؟

وقالت المرأة : إنني لا أهفو الى السماء ولكنني أريد زوجي .

وابتسم (توليسداس) وقال : ارجعي الى بيتك يابنيّتي فسوف تلقين زوجك قبل أن ينصرمَ الشّهر .

وعادت المرأة بأملٍ بهيجٍ ، وجعل (توليسداس) يوافيها ، كلّ يوم ، ويهب لها الخواطر السّامية لتفكّر فيها ، حتّى جاء يوم امتلأ فيه قلبها وأفعم بالحب الإلهي ، وكان الشّهر يوشك أن ينتهي ، حين جاء جيرانها مستفهمين : أيّتها المرأة هل لقيت زوجك ؟

وأجابت الأيّمُ باسمةً : لقد لقيته .

وألحفوا في سؤالهم : ولكن أين هو ؟

فردّت عليهم : إنّه في قلبي يقيم سيّدي وحده .

---

(١) سمك السّماء : رفعها .

٥٦

لقد جئتِ ، لتمكثي لحظةً الى جانبي ، فلمستني واشعرتني سرّ المرأة الكبير الكامن في قلبِ الخلق نفسه .

إنّها نفسها تلكَ التي تُعيد دوماً الى الربّ أمواج عذوبتها الفيّاضة . إنّها الجّمال المتّصل الجدّة ، الدائم الشّباب في الطبيعة . إنّها ترقص مع الجداول المزبدة المتدفّقة ، وتغنّي مع نور الفجر ، وتنقع ظمأ الأرض بموجاتها الهادرة . لقد تجسّد فيها الوحدة والخلود معاً ، لتنبثق في فرحةٍ لايمكن أن يعقل جِماحها ، ثمّ تنصبُ في ألم الحب .

٥٧

تُرى من هي تلك المرأة التي تسكن قلبي ، تلك المرأة البائسة دوماً ؟

لقد غازلتُها ولم أستطع أن أستميلها اليّ .

لقد زينتها بالأكاليل وتغزّلت بمحاسنها .

وتلألأت إبتسامةٌ في محياها ثمّ انطفأت .

وصرخت المرأة الحزينة : لايداخلني أيّ سرور منك .

وشريتُ لها خواتم ثمينة ووهبت لها مروحةً مرصّعةً بالجواهر ، وسوّيت لها سريراً مموّهاً بالذّهب .

وترقرق نور الرضا في عينيها ، لحظةً ، ثمّ تلاشى .

وصرخت المرأة الحزينة : لاأجد أيّ سرور في هذه الأشياء .

وأجلستها في مركبة النّصر ، ثمّ سرت بها بين أطراف الأرض .

وتهاوت الى قدميها قلوبٌ متيّمةٌ ، وتناهت رعود التصفيق الى السّماء .

وشعّت الخيلاء في نظرتها ، لحظةً ، ثمَ غامت الدموع في عينيها .

وصرخت المرأة الحزينة : لاأجد أيّ متعة في الظّفر والغلاب .
وسألتها : اذكري لي من تنتظرين ؟
وقالت : انتظر ذاك الذي لايعرف اسمه .
وانقضت أيّام وصرخت المرأة : متى يأتي حبيبي ذاك الذي لاأعرفه البتّة ، حتّى تتّصل معرفتي به الى الأبد ؟

٥٨

لك ذلك الشّعاع الذي يتفجّر من الظّلمات ، ولك تلك الطيبة التي تنبت في القلب المُضنى بالكفاح .
لك الدار المنفسحة للجّميع ، ولك الحبّ الذي يهتف في ميدان المعركة .
لكَ العطاء الذي يظلّ ربحاً حين تتراءى الأشياء كلّها ضائعةً ، ولك الحياة التي تسيل في هوّة الموت .
لكَ تلك السّماء المتوارية خلف التّراب ، وتظلّ أنت هناك من أجلي ، من أجل الجميع .

٥٩

حين أنوء بمشقّة الطّريق وظمأ اليوم القاحل ، وحين تفرش طيوف ساعات الغروب ظلالها فوق حياتي فلا أهفو الى صوتكَ فحسب أيّها الرفيق ، ولكن أهفو الى لمستك .
إنّ في قلبي فزعاً . إنه يحمل عبء غناه الذي لم يمنحه إيّاك .
مدّ يدك ، عبر الظّلام لأتمسّك بها وأملأها وأحفظها ، دعني أشعر بلمستها في الإمتداد المتّصل من وحدتي .

٦٠

هتفَ شذا البرعم قائلاً : آهٍ ، إنّ النهار السّعيد ، نهار الربيع يمضي ، وأنا حبيس الأفواف .

ـ أيّها الشيء الصغير البسيط ، استمسك بشجاعتك .

إنّ كلّ صلة لك سوف تنبتّ ، سيتنوّر البرعم زهرة وحين يخترم الموتُ حياتك الملأى ، فإنّ الربيع نفسه سوف يبعثك مرّة أخرى .

وتململ الشّذا قلقاً من البرعم وصرخ : آه ، إنّ السّاعات تمضي ، ولاأدري حتّى الآن أنّى أتّجه ، وأيّ شيء أبغي .

ـ أيّها الشيء الصّغير البسيط استمسك بشجاعتك .

إنّ نسيم الربيع قد سبق رغبتك ، ولن ينقضي النّهار قبل أن تتمّم وجودك .

وتراءى المستقبل للشذا غامضاً فصرخ يائساً : آه ، إن تراءت حياتي خالية من أيّ معنى ، فمن المسؤول عن هذا الخطأ ؟

من يقدر أن يقول لي : لِمَ وجدت ؟

ـ أيّها الشيء البسيط استمسك بشجاعتك .

إنّ الفجر المكتمل قريب ، حيث تمزج حياتك بالحياة الأبدية ، وحيث تدرك أخيراً تفسير وجودك .

٦١

ربّاه ، إنّها ماتزال طفلة .

إنّها تركض حول قصرك وتلعب ، ثمّ تحاول أن تجعل منك أيضاً دمية من دماها .

إنها لاتلقي بالاً الى غدائرها تترامى مشعّثةً ولا إلى ثيابها المهملة تنزلق مغبرّةٍ ، الى الأرض .

إنّها تغفوحين تخاطبها ولاتجيب البتّة ، وتملّس الزهرة التي تهبها لها ، صباحاً ، من راحتها وتقع فوق التّراب .

وحين تهبّ العاصفة ويكفهرّ وجه السّماء ، فإنّها تستيقظ ، وترمي بدميتها أرضاً ، وتتمسّك بك ، مذعورة .

إنّها تخشى أن تقصّر في خدمتك .

ولكنّك ترامقها ، باسماً ، فيما هي تلهو .

إنّك تعرفها .

هذه الطفلة الجالسة فوق التّراب ، إنّها عروسك المقدّرة لك ، أمّا لعبها فسوف يهدأ ويحور حبّاً عميقاً .

٦٢

هتفت قطرة الندى :

ـ أيّتها الشّمس ، أيّ شيء ـ عدا السماء ـ يستطيع أن يسعَ صورتك ؟
إنني أحلم بكِ ولكنني لاأطمع بأن تتاح لي خدمتك .

وأضافت وهي تبكي :

ـ إنني أصغر من أن أحتويكِ ، أيّتها الملكة العظيمة ، فحياتي كلّها دموع .

وأجابت الشّمس :

ـ إنني أضيء السماء غير المحدودة ، ولكنني أستطيع أن أقدّم نفسي الى أصغر قطرة من الندى ، وهكذا ، فإنني أضحي قبساً من النّور يملؤك ، وتضحي حياتك الصّغيرة كأساً ضاحكة .

٦٣

ليس لي ذلك الحبّ الذي لايعرف الحدود ، ويعدو مستشرفاً حتفَه في لحظة ، كالخمر المزبدة التي تحطّم آنيتها . هبْ لي ذلك النّدى النّقي كمطركِ الذي يبارك الأرض العطشى ويملأ جرار البيت الفخاريّة .

هبْ لي ذلك الحبّ الذي يودّ أن ينفذ الى أغوار الوجود .

ثمّ ينساب من ثمّة ، نسغاً خفيّاً ، في أغصان شجرة الحياة ، ليبعث الثّمار والأزهار .

هبْ لي ذلك الحبّ الذي يسربل القلب بالأمن .

٦٤

لقد غابت الشّمس خلف الشّاطىء الغربيّ من النهر ، في قلبِ أدغال الغابة .

وساق النسّاك الفتيان القطعانَ الى الحظائر ، ولمّا جلسوا حول النّار ليصغوا الى المعلّم (غوماتا) أقبل فتى غريب وأهدى الى المعلّم زهوراً وفاكهةً ، وانحنى أمامه حتّى دانى قدميه ، وخاطبه بصوتٍ ناعمٍ كأغرودة عصفور : مولاي ، لقد قدمت اليك لتقودني الى نهج الحقيقة السّامية .

إنني أدعى (ساتيا كاما) .

وقال المعلّم : لتظلّلك البركة ، أي مذهب تعتنق يابنيّ فإنّ البرهمي وحده هو الذي يتشوّف الى الحكمة السّامية .

وأجاب الفتى : إنني لا أعرف أيّ نحلةٍ أنمّي إليها ، سأقصد أمّي وأستوضحها .

ولمّا استوفى (ساتيا كاما) كلامه ، عاد أدراجه وخاض النهر الضّحل ،

ثمّ اتّخذ سمته نحو كوخ أمّه الصّغير الذي يقوم في طرف الصّحراء الرمليّة المترامية على حدود القرية الغافية .

وكان نور المصباح النحيل يضيء الغرفة ، وكانت أمّه منتصبة أمام الباب تنتظر في الظّلام عودة ابنها .

وضمّته الى صدرها ولثمت شعره ، واستوضحته عن زيارته للمعلّم فسألها : ماسم أبي ياأمّي العزيزة ؟ لقد قال لي المعلّم (غوماتا) إنّ للبرهمي وحده الحقّ في نشدان الحكمة الخالدة .

وغضّت المرأة طرفها وهمست قائلة : لقد كنتُ في صباي فقيرة ، فخدمت عدّة أسياد وقد تلقّفك حين ولدت ياحبيبي ، ساعدا أمّك (جابالا) ، أمّك التي لم تحظَ بزوجٍ قط .

وكانت أشعّة الشّمس الباكرة ، تتلألأ فوق عذبات الأغصان من غابة الصّومعة . وكان المريدون ، بشعرهم المشعث المطلول برطوبة الفجر ، قد اتّخذوا مجلسهم في ظلّ الشجرة الهرمة ، قبالة معلّمهم .

ومَثَل (ساتيا كاما) أمامه .

وجثا أمام الحكيم حتى دانى قدميه ، ولاذ بالصمت ، فسأله المعلّم الأكبر : الى أيّ نحلة تنمي ؟

فقال : مولاي إنني لاأدري ، ولقد أجابت أمّي حين استوضحتها ذلك قائلة : إنني خدمت عدّة أسياد في صباي وقد تلقّفك حين ولدت ، ساعدا أمّك (جابالا) ، أمّك التي لم تحظَ بزوجٍ قط .

وارتفع همسُ شبيهُ بطنين النحل الهائج حين يُعبث بخليّته ، وثار المريدون غضباً من سفه هذا الفتى المجهول النّجار والمذهب .

ونهض المعلّم (غوماتا) من مجلسه ، وبسط للفتى ذراعيه ، ثمّ ضمّه الى صدره وقال له ، أنت أفضل البراهمة يابنيّ ، لأنّك تحمل في عطفيك أنبل ارث من الحقيقة .

٦٥

لعلّه يوجد في هذه المدينة بيت واحد ، ينفتح بابه ، في هذا الصّباح ، ويظلّ كذلك الى الأبد ، حين تلمسه شمس الشّروق ، حيث تتم رسالة النور الشّارد .

لقد تفتّحت الأزهار في الحدائق ، وبين وشيع الشّجر ، فلعلّه يوجد ، ثمّه قلب واحد قد ألفى فيها ، هذا الصّباح ، الهبة التي ظفر بها في رحلته منذ العصور الخالية .

٦٦

أيّها القلب ، إصغ . إنّ في هذا النّاي تنسرب موسيقا الأزهار البرّية والأوراق المؤتلقة والأمواه المتلألئة ، تنساب موسيقا الظّلال المرنانة المتجاوبة مع رفيف أجنحة النحل .

لقد نسل النّاي بسمَتهُ من شفة رفيقي ثمّ سلسلها في حياتي .

٦٧

دوماً ، تقف أنت وحيداً بعيداً عن أغنياتي المتماوجة .

إنّ موجات أنغامي تغمر قدميك ، بيد أنني لاأدري كيف أصل اليهما .

إنّ ما أعزفه لك هو موسيقا نائية جداً .

إنه ألم الفراق الذي استحال الى نغم ، إنه ينساب من النّاي الذي أنفخ فيه .

إنني أنتظر السّاعة التي يجوز فيها قاربك الماء ، ويرسو على الشّاطىء ، حيث تمسك يداك بهذا النّاي .

٦٨

في هذاالصّباح ، فتحت ، فجأة نافذة قلبي ، النافذة التي ترامق قلبك . لقد تولّتني الدهشة وأنا أفاجأ بالاسم الذي عرفتني به ، مسطوراً على ورقات نيسان ، وأزاهيره .

وجعلت أنتظر صامتاً .

لقد انحسر ، في لحظة ، السّتار الذي يفصل بين أناشيدي وأناشيدك .

وألفيت أنّ شعاع صباحك كان مفعّماً بأناشيدي الخرساء التي لم أترنّم بها بعد ، وقد فكّرت في أنني سأجيد تعلّمها وأنا بين قدميك ، وطفقت انتظر صامتاً .

٦٩

لقد كنت في مركز قلبي ، ولهذا فإنها لم تعثر عليك قط حين هفا قلبي هائماً .

لقد تواريت أنت عن حبّي وعزفت عن آخر آمالي التي واكبتها دوماً .

كنت الفرحَ العميقَ في لهو شبابي ، وحينَ كنتُ مشغولاً بلهوي مرّ الفرح ومضى .

لقد غنّيتَ لي في كلّ نشوةٍ من حياتي ، غير أنني نسيت أن أغنّي لك .

٧٠

حين ترفع مصباحك في السماء فإنه يريق نوره على وجهي ويتطامن ظلّه فوقك .

وحين أرفع مصباح الحب في قلبي ، فإنّ نوره ينسكب فوقك ، وأقبع أنا ، في الظّل ، وحيداً .

٧١

إيهٍ أيّتها الأمواج التي تلتهم السّماء ، الأمواج المتلألئة بالنّورِ والحياة الدّفّاقة ، الأمواج التي لاتني تثب ، فرحاً في جزرٍ ومدٍّ .

لقد هُدهدت النجوم بها ، وانجذبت أفكارٌ غميسةٌ بشتّى الألوان الى الأغوار العميقة ، ثمّ انسربت على شواطىء الحياة .

وتسامى الميلاد والموت ، وتهاويا على إيقاعها ، وبسط عصفور البحر الذي يرهب روحي ، جناحيه ليشدو نشوته .

٧٢

لقد هلّت الفرحة مسرعة من جميع أطراف الكون لتسوّي جسمي .

لقد قبّلتها أشعّة السّماوات ثمّ قبّلتها حتّى استفاقت الى الحياة .

إنّ أزاهير الصّيف المولّي سريعاً ، قد تنهّدت في أنفاسها وغنّت وسوسةُ المياه ، وهيمنةُ الرّياح في حركاتها .

إنّ الألوان المتّقدة من الغيوم والغابات قد انثالتْ الى حياتها ، وداعبت موسيقا الأشياء كلّها أعضاءها لتمنحها إهاب الجّمال .

إنّها عروسي ، وقد أشعلت مصباحها في بيتي .

٧٣

إنّ الرّبيع بأوراقه وأزاهيره قد ملأ أعطافي .

فيه يطنّ النحل ، طوال الصّباح ، وفيه تلعب الرّياح وانية كسلى مع الظّلال .

وتفجّر من قلب قلبي نبعٌ شهي .

إنّ عينيّ تغتسلان فيه بنشوةٍ ، كما يغتسل الفجر في النّدى ، وترتعش الحياة في أعضائي كلّها كأنها أوتار المعزف المرنانة .

أما تهيم وحيداً ، ياعاشقَ أيّامي الخالدة ، على شاطىء حياتي ، حيث تصطخب الأمواج ؟

أما ترفرف أحلامي حواليك كأنّها طيورٌ ذات أجنحة ملوّنة من النّور ؟

أليست هذه أغانيك التي أسمع أصداءها في الأغوار المظلمة من كياني ؟

من يستطيع ، غيرك ، أن ينصت لهدير السّاعات العجلى التي ترنّ ، اليوم ، في عروقي ؟ ويصغي الى الخُطا الجذلى التي ترقص في صدري ؟ ويسمع ضجيجَ الحياة الصّاخبة التي تختلج في كياني كلّه ؟

٧٤

لقد أنبَتّتْ كلّ صلة لي وسُدّدت ديوني كلهّا ، وفتح بابي لأذهب منه ، واضرب في الدّروب كلّها .

إنّهم يجلسون القرفصاء في زاويتهم ، ويغزلون النّسيج من ساعاتهم الشّاحبة ، إنّهم يحصون نقودهم في الأرض ويهتفون لي لأعود .

غير أنني صقلت سيفي ولبستُ درعي ، وأمّا حصاني فقد نفد صبره وهو يتحفّز للتقريبِ[١] والعَدْو .

سأمضي من ثمّ ، لأفتح مملكتي .

---

(١) تقريب الحصان : ركضه .

٧٥

لقد كان ذلك ، يوم قدمت الى أرضك ، وأنا عريان ، لاأحمل اسماً وفي لهاتي صرخةٌ منتحبة .

صوتي اليوم جذلانُ ، فيما تقف أنت ، ياربَ ، جانباً لتفسحَ لي مكاناً أستطيع فيه أن أملأ حياتي .

وحين أزجي أناشيدي اليكَ كقرابينَ ، فإنني استشعر أملا خفيّاً بأنّ الناس سوف يقبلون إليّ ويحبونني بسببها .

إنّك تحب أن تكتشف بأنني أحب هذا الكون الذي قدتني اليه .

٧٦

لقد كنت أقبع ، خجلاً ، بظلّ الأمن ، أمّا الآن ، بعد أن شالت نشوة الفرح قلبي الى قمّتها فإنني اتمسّك بصخرة اضطرابها العاتية .

لقد كنت انتبذ ، وأنا وحيد ، مكاناً في بيتي الذي كنت أجده أصغر من أن يسعَ زائراً واحداً ، والآن بعد أن فتح بابي بفرحةٍ عفويّةٍ فإنني أجد ثمّة مكاناً لك وللعالم كلّه .

وكنت أسير حذراً معنيّاً بجسمي ، مضمّخاً أطرافه بالعطر ، مزيّناً إيّاه ، والآن ، بعد أن رمت بي عاصفة الفرح الى التراب ، فإنني أضحك عالياً ، وأتدحرج كالطّفل على الأرض ، حتّى ألامس قدميك .

٧٧

إنّ الكون كلّه لك ، دوماً وأبداً .

ولأنه ليس لديك رغبة ياملكي ، فإنّك لاتجد متعة في ثرائك .

فكأنّ هذا الثّراء لم يكن موجوداً قط .

لهذا ، فإنّك تمنحني ، عبر الزمن الوئيد ، كلّ مايخصّك ، وتحتل من نفسي دوماً مملكتك .

يوماً فيوماً تطلب الى قلبي شروق شمسك وتلفي حبّك منحوتاً من صورة حياتي .

٧٨

لقد وهبت للطير أنغاماً ، وإنها لتبادلك أنغامها .

لقد وهبت لي الصّوت فحسب ، ولكن إن استنشدتني غنّيت لك .

لقد جعلت النّسائم خفيفة ، لتنطلق في خدمتها ، ووضعت في يدي عبئاً لا أتخفّف منه بنفسي ، وفي النهاية ظفرت بالحرّية المطلقة ، فيما أنا أخدمك .

لقد خلقت ارضك وملأت ظلالها بألقة النور .

وعندئذ توقفت وتركتني فوق التراب ، صفر اليدين ، ليتسنّى لك أن تخلق سماءك .

إنّك تزجي العطايا الى كلّ شيء في الأرض ، أمّا أنا ، فإنّك تطلب إليّ .

إنّ حصاد حياتي ينضج في الشّمس ، وتحت وابل المطر ، حتّى يتيسّر لي أن أحصد ممّا زرعت أكثر ممّا زرعتَ أنت ، فيمتلىء قلبك هناء ، ياسيّد الأهراء الذهبيّة .

٧٩

دعني أتقدّم بصلاتي ، لا لأكون بمنجى من الأخطار ، ولكن لأقابلها وجهاً لوجه دون وجل .

لا لأسأل التفريج عن ألمي ، ولكن ليكون لي الجَلَد على تحمّله .

لا لأنتظر حليفاً لي في معركة الحياة ، ولكن لأنتظّر العون من قوّتي نفسها .

لا لأتوسّل في رعب شديد ، بغية النجاة ، ولكن لأتعلّل بالصّبر حتّى أظفر بحرّيتي .

هيّء لي ، يارب ، ألا أكون جباناً ، لا استشعر بنعمتك إلا حين أصيب النجاح فحسب ، ـ بل دعني أظفر بضمة يدك في خذلاني .

٨٠

لم تكن لتتعرّف على نفسك حين كنت تمكث وحيداً ، والريح التي كانت تعدو من أدنى الشّاطىء الى أقصاه لم تكن توافيك بأي نداءٍ تائه .

لقد جئت فاستفقتَ أنت ، وازدهرت السّماء بالأنوار .

لقد جعلتني أتفتّح في شتيت الأزاهير ، وهدهدتني في مهد شتيت الأشكال ، وأخفيتني في المنيّة ، ثمّ ألفيتني من جديد في الحياة .

لقد جئت فوجب قلبك وترادف الألم والفرح اليك .

لقد لمستني فكانت رعشة الحبّ .

ولكنّ قبساً من الخجل ينساب في عينيّ ، وتنسرب في صدري رجفة

الخوف ويعتام وجهي ظلّ الكآبة ، وأبكي حين لاأستطيع رؤيتك .

ومع هذا فأنا أبلو الظّمأ الذي لا تنقع غُلّته ، ظمأ قلبك الى نظرة منّي ، أبلو الظّمأ الذي ينادي على بابي ، على ترداد ضربات الشّمس المشرقة .

٨١

أنت أيّها السّاهر ، الدهر كلّه ، إنّك تصغي الى خفق خطواتي المقتربة . فيما تتجمّع فرحتك في سدفة الفجر ، لتتفجّر من ثمّ في انتفاضةِ النور .

كلّما اقتربت منك ازداد التوثّب في رقصة البحر .

إنّ دنياك غصنٌ من النور يملأ راحتيك ، ولكن سماءك هي في قلبي الخفي ، ولهذا فإنّ براعمه تتفتّح في يسر على حبٍّ خجول .

٨٢

سأهزج بإسمك ، وأنا جالسٌ وحيداً بين ظلال أفكاري الصّامتة .

سأهزج به غير مشفوع بكلام ، سألفظه دون سبب .

إنني شبيه بالطّفل الذي ينادي أمّه مائة مرّة ، وهو سعيد بأن يتأتّى له ترديد كلمة : أمّاه .

٨٣

ـ ١ ـ

أشعر بأنّ النجوم كلّها تتلألأ في كياني ..

إنّ الكون يجيش في حياتي كأنه السّيل .

إنّ الزهور تتنوّر في كياني .

إنّ شباب الأرض والماء ، يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر ،ولهاث الوجود كلّه يتردّد ضمن أفكاري كما يتردّد في ثقوب الناي .

-٢-

حين يغفو الكون فإنني أقدم الى بابك .

النجوم صامتةٌ ، وإنني لأفرق من أن أغنّي .

إنّي انتظر وأسهر حتّى يجوز طيفك شرفة الليل ثمّ انكفىء راجعاً وقلبي مترع .

وفي الفجر ، أغنّي على عذارِ الدرب .

ويقف المسافرون فجأة لينظروا في وجهي : إنهم يحسبون أنني ناديت كلاً منهم باسمه .

-٣-

دعني قريباً منك ، منتبهاً الى رغباتك ثمّ ذرني أجبْ مملكتك ، ملبّياً نداءك .

لاتدعني أتزايل فأتهاوى وأغيب في هوّة الضّجر .

ولاتجعل حياتي مجدبةً بالفراغ والبطالة .

ولاتدع الشّكوك تكتنفني بغبار اللذّات .

ولا تتركني أضرب في دروب عديدة لأظفر بأشياء جمّة .

ولاتذر قلبي خاضعاً لنير الكثيرين .

ولكن دع رأسي يشمخ عالياً في شجاعة وكبرياء ، بأن أضحي خادمك .

٨٤

الملاّحون

أفما تأدّت الى سمعك ، من بعيد ، جلبةُ الموت ؟
وذلك النداء المنساب من أمواج النار والغيوم المسمومة ؟
ـ نداءُ القبطان الى الملاّح لينحو بالسّفينة وجهة الشّاطىء الذي لا اسم له ؟
فإنّ الزمن قد تغيّر ـ الزمن السّاكن على الشّاطىء .
حيث تُشرى البضاعة القديمة نفسها وتُباع في حلقة لا نهاية لها .
حيث تتهاوى الأشياء الميّتة في نضوب الحقيقة وفراغها .
إنهم يستفيقون مرتعشين في خوفٍ مفاجىء ثمّ يستفهمون .
أيّها الرفاق ، إلام تشير السّاعة التي دقّت ؟
ومتى يوافي النّهار ؟
لقد محت الغيوم كلّ نجم ـ فمن يستطيع أن يستجلي اصبعَ الفجر التي تومىء ؟
إنّهم يخفّون سراعاً ، ممسكين بمجاذيفهم ، هاجرين مضاجعهم .
وتبتهل الأم وتراقبُ الزّوج البابَ .
تمّة نحيب الوداع يتعالى الى السّماء ، وثمّة صوت القبطان في الظّلمة :
ـ أيها الملاحون ، تعالوا ، فإنّ فترة مكوثنا في الميناء قد انقضت .
إنّ شياطين الكون السّود قد حطّموا سدودهم .
ومع هذا ، أيها الملاّحون ، الزموا أمكنتكم ، وداروا الألمَ المباركَ في نفوسكم إلى من تتّجهون باللوم ياإخوتي ، احنوا رؤوسكم ، تلك كانت خطيئتكم ، وكانت خطيئتنا .
إنّ اتّقاد الغضب المؤرث في قلب الله طوال الأجيال ، وجبن الضّعيف

وتحدّي القوي ونهم السّادر في الرخاء وضغينة الخائب وكبرياء العرق وإهانة الانسان لأخيه الانسان .

كلّ ذلك أحال سلّم الرب الى عاصفة نكباء غاضبة .

فلينقسم قلب العاصفة كقشرة الثمرة النّاضجة وليقذف برعوده .

انهوا جلبة لومكم وثنائكم .

وفي هدوء الدعاء الصّامت المنعقد على جباهكم ، جدّفوا وجهة الشّاطىء الذي لا اسم له .

لقد بلونا الشرور والخطايا كلّ يوم وعرفنا الموت .

إنّها تعبر دنيانا بضحكتها المتلألئة كالبرق ، كأنّها غيوم ساخرة .

ولكنّها توقّفت ، فجأة ، فتمّت المعجزة .

واضطر الرجال الى النهوض صارخين في وجهها

ـ إنّنا لانخشاكِ ، أيّتها الهولة ، إننا نعيش كلّ يوم في التّغلّب عليك .

سنموت على إيماننا بأنّ السلم حق والخير حق وإنّ الواحد الأحد الخالد حق .

إذا لم يكن الحي الباقي خبيئاً في قلب الموت نفسه .

وإذا لم تكن الحكمة الجذلى منبثقة من غمد الألم .

وإذا لم تمت الخطيئة من ذيوعها نفسه .

وإذا لم يتهاو الصلف تحت عبء زينته .

فمن أين اذن يهلُّ ذلك الأمل الذي يهيب بالرجال أن يهجروا بيوتهم كأنهم النجوم التي تسعى الى انطفائها في نور الفجر ؟

ترى أتذهب هدراً قيمة دماء الشهداء ودموع الأمّهات في تراب الأرض ، أفلا تُشرى الجنّة بثمنها ؟

وفي السّاعة التي يقطع فيها الانسان عُراه الفانية ، أفلا تتجلّى له اللانهاية آنذاك ؟

٨٥

نشيد الهزيمة

لقد أمرني سيّدي فيما كنت أقف على حيد الدّرب بأن أغنّي نشيد الهزيمة ، فهذه هي العروس التي يتودّد لها :

لقد أسدلت على وجهها خماراً أسودَ لتخفيه عن النّاس ولكنّ جوهرة تتلألأ في الليل على صدرها .

إنّ النهار يهملها ، ولكنّ ليل الرب ينتظرها بمصابيحه المنيرة وأزاهيره الريّا بالندى .

إنّها صامتةٌ ، غضيض الطرف . لقد تركت دارها خلفها ، وتناهى من دارها أنين مع الرّيح .

ولكنّ النجوم تغنّي ، نشيد الحب الخالد للوجه الذي زيّنه الخجل والألم .

إنّ الباب قد انفسح عن الغرفة الوحيدة ، وتردّد النداءُ وخفق قلبُ الليل وجلاً على الموعد القادم .

٨٦

غفران

إنّ الذين يسيرون في دروب الكبرياء ، ويدوسون بنعالهم على الحياة المتواضعة ، ويغطّون خضرة الأرض الغضّة بآثار أقدامهم الملوّثة بالدّماء . دعهم يارب يفرحوا ويقدّموا اليك الثّناء ، فإنّ اليوم يومهم .

ولكنني أشكر لكَ بأن جعلت نصيبي بين البسطاء الذين يتألّمون وينوؤون بعبء الحكم ، ويوارون وجوههم ويكفكفون دموعهم في الظّلام .

إنّ كلّ رعشة من ألمهم ، قد خفقت في الأعماق المستسرّة من الليل ، وكلّ إهانة قد قابلوها بمثل صمتك الكبير .

إنّ الغد هو لهؤلاء .

آه ، أيّتها الشّمس ، اشرقي في القلوب الدامية التي تتفتّح زهراً في الصّباح ، ولتنقلب شعلات الكبرياء الزاهية الى رماد .

البُستاني



١

الخادم : حنانيكِ يا ملكتي! ورفقاً بخادمك .

الملكة : لقد انفضّ السّامر ، وذهب خدّامي كلّهم ، لِمَ قدمتَ في هذه الساّعة المتأخّرة ؟

الخادم : إن دوري يبدأ ، حين ينتهي دور الآخرين . جئت أسألك أيّ عمل تبقّى ليقوم به خادمك الأخير ؟

الملكة : ماذا تتوقّع أن أكلّفك به في مثل هذا الوقت المتأخّر ؟

الخادم : اجعليني بستانياً في حديقة أزاهيرك .

الملكة : يا لهذا الجنون!

الخادم : سأتخلّى عن أيّ عملٍ آخر .

سأرمي برماحي وسيوفي ، في التراب . لا تبعثي بي الى ساحاتٍ قصيّة ، ولاتطلبي اليّ فتوحاتٍ جديدة ، ولكن اجعليني بستانيّاً في حديقة أزاهيرك .

الملكة : وأيّ عملٍ ستنهض به ثمّة ؟

الخادم : سأقصر نفسي على خدمتك في أيّام فراغك .

سأحتفظ بعشب الدّرب ندياً طرياً ، حيث تمرّين صباحاً ، وحيث تنعم قدمك في كلّ خطوة من خُطاكِ ببركة الورد المتشوّف الى الموت .

سأهزّك وأنت في أرجوحة بين أغصان (السابتابارنا) فيما يسعى القمر المبكّر ، للثم ثوبك من بين فرجات الأوراق .

سأملأ السراج الذي يضيء قرب سريرك ، بزيتٍ شذيّ ، سأحلّي مسند قدمك بتزيينات رائعةٍ من صباغ الصندل ومزاج الزّعفران .

الملكة : وماذا ترجو من مكافأة على ذلك ؟

الخادم : أن يؤذن لي بأن أمسك بين يدي ، بجمع راحتيك الشّبيهتين ببرعمين من زهر (اللوتس) وأن أطوّق معصمكِ ، بأساور من زهرٍ . وأن أصبغ أخمص قدميك بخضابٍ أحمر من أوراق (الآشوكا) وأن أمسح عنهما بقبلاتي ما قد يعلق بهما من ذرّات الغبار .

الملكة : أيّها الخادم لقد استجيب دعاؤك . وستضحي بستاني حديقة أزاهيري .

٢

إيهٍ أيها الشّاعر! إنّ المساء ليدنو ، وإن شعرك ليخطّه الشيب .

ترى هل طرقت أسماعك وأنت في استغراقتك المنزوية ، رسالة الآخرة ؟

وقال الشّاعر : إنه المساء ، وإنني لأصيخ السّمع ، فلعلّ أحداً ينادي من القرية ، وإن يكن الوقت متأخّراً .

وأجيل نظري فلعلّي أن أرى الى قلبين شابّين شاردين يلتقيان والى زوجين من العيون المتّقدة يستجديان نغماً من الموسيقا يحطّم صَمتَهما ويتحدّث إليهما .

تُرى من ذا الذي يموّج لهما ، أغانيهما العاطفيّة إن ظللت أنا جالساً على شاطىء الحياة ، أتأمّل في الموت وفي ما بعد الحياة ؟

إنّ أوّل نجم من نجوم السّماء قد أفل .

ووهج المشعل الجنائزي ، أخذ يخبو رويداً رويداً ، على ضفّة النهر الصّامت .

وأخذتْ بنات آوى تعوي ، في جوقةٍ واحدةٍ ، من فناء الدّار المقفرة ، على ضوء القمر الشّاحب .

ترى لو أنّ عابر سبيل ، هجر منزله ، وقدم الى هنا ، ليتأمّل الى الليل ويصغي ، مُطرقَ الرأس ، الى وشوشة الظّلام ، فمن ذا الذي يهمس في أذنيه أسرارَ الحياة ، إن أقفلت أنا أبوابي ، محاولاً تحرير ذاتي من الروابط الفانية ؟

لايضيرني إن وخط الشيب شعري .

فأنا دوماً ، شابٌ فتيٌ أو شيخٌ هِمٌّ ، كأصغر شاب وأكبر شيخ في القرية .

لبعضهم ابتسامةٌ عذبةٌ ساذجةٌ ، ولبعضهم عينٌ تبرق خبثاً . لهؤلاء دموع تبهر ضوءَ النهار ، ولأولئك دموعٌ تختبىء في العتمة .

كلّهم بحاجة إليَّ ، إنني لا أجد وقتاً للتفكير في ما بعد الحياة .

إنّ عمري هو من عمر الجّميع ، فما يضيرني أن وخط الشّيب شعري ؟

٣

ألقيتُ شبكتي ، صباحاً ، في البحر .

واستخرجت ، من لُجّة المظلم ، طُرفاً ذات شكلٍ عجيبٍ وجمالٍ غريبٍ ، كان بعضها يتوامض كابتسامة وبعضها يتلألأ كدموعٍ ، وبعضها يحمرّ كوجنتي عروس .

ولمّا إبت ، بصيد اليوم الى البيت ، كانت حبيبتي قد اتّخذت مجلسَها

في الحديقة ، وهي تنزع ، في فتورٍ ، أفواف زهرةٍ .

وجاذبني التردّد ، لحظة ، ثمّ ازجيتُ الى قدميها ، ماظفرت به ، وظللتُ معتصماً بالصّمت .

وحدّرتْ اليه نظرةً ، وقالتْ : ماهذه الأشياء الغريبة ؟ لاأدري لأيّ شيء تصلح .

وجعلت أفكّر ، خجلاً ، مطرقَ الرأس ، في أنني لم أناضل قط للفوز بها ، ولم اشترها من السّوق ، فليست بهدايا جديرة بها ، وحينئذ أخذت أبدّدها ، طوال الليل ، واحدة تلو الأخرى ، في الطّريق .

وفي الصّباح ، قدم مسافرون ، وجعلوا يلتقطونها ، ثمّ ذهبوا بها الى بلادٍ نائية .

٤

وا أسفاه! لِمَ بنوا بيتي على حافة الطريق المفضية الى سوق المدينة ؟
إنهم يرسون قواربهم المثقلة ، قرب أشجاري .
إنّهم يقدمون ويذهبون ويهيمون وفق هواهم .
إنني أجلس وأرمقهم ، ويمضي وقتي .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، وكذلك تنقضي أيّامي .
يتردّد خفق خطاهم ، ليل نهار ، أمام بابي .
عبثاً أصرخ : إنني لاأعرفكم .

إنّ بعضهم لتعرفه أناملي ، وبعضهم ليعرفه أنفي ، ويبدو أنّ الدمّ في عروقي يعرفهم ، وإنّ بعضهم لتستجليه أحلامي .

ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : ليدخل بيتي من يشاء منكم ، أجل ، فليدخل .

وفي الصّباح يرنُّ النّاقوس في المعبد .
ويقدمون وسلالهم في أيديهم .
أقدامهم مزهرةٌ مخضّبةٌ ، وعلى وجوههم يترقرق أوّل شعاع من أشعّة الفجر .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم وأخاطبهم : تعالوا الى حديقتي لتقطفوا زهراً ، تعالوا .
ويرنّ النّاقوس ، ظهراً ، على باب القصر .
لاأدري لماذا يدعون عملهم ، ويتخلّفون قرب سياج حديقتي .
إنّ الزهر المعلّق بشعرهم شاحبٌ ذابلٌ ، وإنّ الأنغام في ناياتهم مضنيّة .
ليس في ميسوري أن أطردهم ، إنني أناديهم : إنّ فيء أشجاري رطب .
تعالوا أيها الرّفاق .
وفي الليل ، تغني الجداجد ، في الغابات
من ذا الذي يقدم ، وئيداً ، الى بابي ويقرعه في لطف ؟
إنني أرى الوجهَ ، في غموضٍ ، لم تتردّد أي كلمة .
ويسربل هدوءُ السّماءِ كلّ شيء .
ليس في ميسوري أن أطرد ضيفي الصّامتَ ، إنني أحدّق الى وجهه في الظّلام ، وتمر ساعات الأحلام .

٥

أنا لا أظفر بالرّاحة .
أنا ظامىء الى الأشياء البعيدة المنال .
إنّ روحي تهفو ، توّاقةً ، الى لمس طرف المدى المظلم .

إيهٍ أيّها المجهول البعيد وراء الأفق ، ياللنداء الموجع المنساب من نايك .

أنا أنسى ، أنسى دوماً أنني لاأملك جناحاً لأطير ، وإنني مقيّد دوماً بهذا المكان .

إنني متّقد الشّوق ، يقظان ، أنا غريبٌ في أرضٍ عجيبة .

إنّ زفراتك تتناهى إليّ ، لتهمس في أذني أملاً مستحيلاً .

إنّ صوتك يعرفه قلبي كما لو كان قلبه .

أيّها المجهول البعيد ، ياللنداء الموجع المنساب من نايك!

أنا أنسى ، أنسى دوماً أنني لاأعرف الطّريق وأنني لا أمتلك جواداً مجنّحاً .

أنا لا أظفر بالطمأنينة .

أنا شارد ، أهيم في قلبي .

في الضّباب المشمس ، من السّاعات الضجرة ، ما أبهى مرآك العظيم يتجلّى في زرقة السّماء!

أيّها المجهول البعيد ، ياللنداء الموجع المنساب من نايك!

إنني أنسى ، أنسى دوماً ، أنّ الأبواب كلّها موصدة في البيت الذي أفزع فيه الى وحدتي .

٦

كان العصفور الأليف في قفص ، وكان العصفور الطليق في الغابة .

وهيّأ لهما القدر ـ حين أزف الوقت ـ أن يلتقيا .

وصرخ العصفور الطّليق : آه . ياحبيبي . لننطلقْ طائرين الى الغابة .

وهمس عصفور القفص : تعال الى هنا ، نستمرئ العيش معاً في القفص .

وأجاب العصفور الطّليق : أين المكان الذي أبسط فيه جناحي بين هذه القضبان ؟

وهتف عصفور القفص : واأسفاه ، قد لايتأتّى لي أن أعرف أنّى أحطُّ في الفضاء .

وصرخ العصفور الطّليق : ياحبيبي ، هلاّ لغوت بأغاني الغابات ؟

وقال عصفور القفص : الزم جانبي ، سأعلّمك أصولَ الإنشاد .

وهتف عصفور الغابات : لا ، لا ، لايمكن أن تلقّن الأغاني بالتعليم .

وقال عصفور القفص : واحسرتاه ، إنني لاأحذق أغاني الغابات .

إنّ حبّهما يذكيه الشّوق ، ولكنّهما لايستطيعان البتة أن يطيرا معاً ، جناحاً يساوق جناحاً .

إنهما يتسارقان النظر ، من خلال قضبان القفص ، ويتشوّفان عبثاً الى أن يعرف الواحد منهما الآخر .

ويصفّق كلاهما بجناحيه ، شغفاً ، ويغنّي : تعالَ ياحبيبي ، اقترب منّي .

ويهتف العصفور الطّليق : لاأقدر ، إنني أفرّق من أبواب القفص المغلقة .

ويهمس عصفور القفص : واأسفاه إنّ جناحيّ عاجزان ميّتان .

٧

أمّا ، إنّ الأمير الفتى سيمر أمام بابنا ، فكيف يتيسّر لي أن أعنى بعملي ، في هذا الصّباح ؟

علّميني كيف أضفر شعري ، قولي لي أيّ ثوب ينبغي أن أرتدي ؟

أمّاه ، لماذا تنظرين إليّ في دهشة ؟

أنا أعلم جيّداً أنه لن يرشق بنظرة نافذتي ، وأعلم أنه سيغيب عن ناظري ، في طرفة عين .

وأنّ زفرات نايه ستتناهى إليّ ، منتحبةً من بعيد .

غير أنّ الأمير الفتى سيمر ، أمام بابنا ، وسأزيّن لهذه اللحظة بأجمل ماعندي .

أمّاه ، لقد مرّ الأمير الفتى ، أمام بابنا ، وشمسُ الصّباح تشعّ على مركبته .

وحسرت خماري عن وجهي ثمّ نزعت عقدَ الياقوت من عنقي ورميت به في طريقه .

أمّاه لِمَ تنظرين إليّ في دهشة ؟

أنا أعلم جيّداً أنه لم يلتقط عقدي وأعلم أنّ عقدي قد تحطّم تحت عجلات مركبته ، مخلّفاً بقعة حمراء على التّراب ، فلم يعد أحد بالهديّة التي قدّمت ، ولا من آثرته بها .

غير أنّ الأميرالفتى مرّ ، أمام بابنا ، ورميت في دربه بحلي صدري .

٨

حين انطفأ السّراج قرب سريري ، استيقظت مع العصافير المبكّرة وجلست الى جانب نافذتي المشرعة .

وعلى شعري المشعّث ، إكليلٌ من الورد الغض .

لقد أقبل المسافر الفتى ومرّ على الطّريق في الضّباب النديّ من الفجر .

وكان عقد اللآلىء يطوّق عنقه وأشعّة الشمس تتلألأ على تاجه ، وتوقّف أمام بابي ، وسألني في نداء لاهف : أين هي ؟ .

ومنعني الخجل من أن أقول له : أنا هي ، أيّها المسافر الفتى ، أنا هي .

وحلّت العتمة ، ولم يكن السراج قد أشعلْ .

وجعلت أضفر شعري ، في ذهول .
لقد أقبل المسافر الفتى على مركبته في ألق الشّمسِ الغاربة .
وكانت جيادة مرغيةَ الأشداق ولباسه مكسواً بالغبار .
وانتصب أمام بابي وسألني بصوتٍ واهنٍ : أين هي ؟
ومنعني الخجل من أن أقول له : أنا هي أيها المسافر اللاغب أنا هي .
وكان ذلك ، في ليلة من ليالي نيسان وكان السراج يضيء في حجرتي .
وكان نسيم الجنوب يهينم ناعماً ، والببّغاء الصخّابة تنام في قفصها .
وكان ثوبي ، يبدو في لون حنجرة الطّاووس ، ومعطفي الأخضر كأنه العشب الطري .
وجلست على الأرض ، قرب النّافذة ، أرقب الطّريق المقفرة .
وعبر الليل البهيم ، كنت أغمغم في همسٍ متّصل : أنا هي ، أيّها المسافر اليائس ، أنا هي .

٩

حين أمضي ، ليلاً ، وحيدةً الى موعد حبيبي فإنّ العصافير لا تشدو ، والرّيح لا تنسم ، وتخلد البيوت على جانبي الطّريق الى الصّمت .
إنه خلخالي الذي أضحى ثقيلاً في كلّ خطوة أخطوها ، وإنني لاستشعر الخجل .
وحين أجلس الى شرفتي وأنصت لعلّي أن أسمع وقع أقدامه ، فإنّ الأوراق لا تتهامس على الأشجار ، ويسكن الماء في النّهر ، كأنّه سيف توسّد ركبتي حارس غافٍ .
ذاك قلبي الذي يشتدّ وجيبه دون أن أدري كيف أجعله يهدأ ،

وحين يرتعش جسدي ، ويفتر جفناي ، وتسدل السّحب خمارها على النجوم .

تلك هي الحلية التي تتوامض فوق صدري ، وتريق ألقتها فلا أدري كيف أداريها .

١٠

أيّتها العروس اتركي عملك وأنصتي فقد أقبل الضّيف .

أتسمعين ؟ إنه يهزّ ، في رفق ، الكتيفة[١] التي يوصد بها الباب .

حذارِ من أن تعلو وسوسةُ خلخالكِ ، حذارِ من أن تسرف خطاك في تعجّلها الى لقياه .

أيّتها العروس ، ذري عملك ، فقد أقبل الضّيف ، في المساء .

لا . أيّتها المرأة ، ليس هو بنسمة روح ، فلا تخافي .

إنه قمر نيسان في تمامه ، إنّ الظّلال شاحبة في فناء الدّار والسّماء تتلألأ من علٍّ .

أسدلي خمارك على وجهك ، إن تعيّن عليك أن تفعلي ذلك ، واحملي السراج الى الباب ، إن استشعرت الخوف .

لا ، ليس هو بنسمة روح ، أيّتها المرأة ، فلا تخافي .

لاتقولي له أيّ كلمة ، إن جاذبك الخجل ، وقفي الى جانب الباب حين تجتمعين اليه .

وإن أزجى اليك أسئلةً ، فغُضّي ـ إذا شئت ـ طَرفَكِ في صمت .

لا تدعي أساورك تهزَجُ ، حين تدعينه يدخل والسراج في يدك .

لا تكلّميه إن كنت خجلى .

---

(١) الكتيفة : قطعة من حديد أو خشب يغلق بها الباب .

أيّتها المرأة ، ألم تنهي عملك ؟ إنصتي ، لقد قدم الضيف ، ألم تشعلي السراج في الحظيرة ؟

ألم تهيّئي سلّة القربان لصلاة المساء ؟

ألم تضعي علامة السعد الحمراء على مفرق شعرك وتتزيّني لمقدم الليل ؟

إيهٍ أيّتها المرأة ، أتسمعين ؟ لقد قدم الضّيف .

دعي عملك .

١١

تعالي كما أنتِ ولا تتلكّئي في زينتكِ .

إذا انحلت غديرة من غدائرك ، إذا لم يكن مفرق شعرك سويّاً ، إذا كانت شرائط صدرك غير منوطة ، فلا بأس عليك .

تعالي كما أنت ولا تتلكّئي في زينتك .

تعالي بخطا عاجلةٍ ، فوق العشب .

وإذا سلّ الندى شراك نعلك من قدمك ، إذا أملست حلقات خلجانك من قدمك الواهنة ، إذا انفرطت لآلئ عقدك من سمطها ، فلابأس عليكِ .

تعالى بخطا عاجلة ، فوق العشب .

ألا ترين الى السّحب تغطّي السّماء ؟

من بعيد ، تتراءى أسراب الكركي ، وهي تهفو طائرة من شاطئ النهر النائي ، وتستبق حبّاتٌ غضبى من العاصفة فوق المرج .

القطيع الجزع يعدو الى مراحه[1] في القرية .

ألا ترين الى السّحب تغطّي السّماء ؟

---

(١) المراح : مأوى الغنم .

عبثاً تشعلين السراج لتتزيّني ، إنه يترنّح ثمّ ينطفىء في الريح .
من يعلم أنّ جفنيك لم يكتحلا بسواد الدّخان ؟ إنّ عينيك أكثر سواداً من سحب الغيث .
عبثاً تشعلين السراج وإنه لينطفىء .
تعالي كما أنت ولا تشغلك زينتك .
إن لم يكن إكليلك مضفوراً فمن يعنى به ؟ إذا لم يغلق سوارك فدعيه .
السّماءُ مُرْبَدّةٌ بالغيوم - والوقت متأخّر .
تعالي كما أنت ولا تشغلك زينتك .

١٢

إن كنت تريدين أن تملأي جرّتك ، تزجية لفراغك . فتعالي ، آه تعالي الى بحيرتي .
فلسوف يغمر الماء قدميك ولسوف يبوح لهما ، مثرثراً ، بسرّه .
إن ظلّ الغيث المقبل يمتد فوق الكثبان ، وتتطامن السحب فوق صفوف الأشجار الخضراء كخصلات أثيثة تنحدر فوق حاجبيك .
أعرف جيّداً نغمَ خطاك ، أنها تتجاوب مع خفقات قلبي .
تعالي ، آه تعالي الى بحيرتي ، إن كان عليك أن تملأي جرّتك .
إذا كنت تستمرئين الجلوس ، في دعة وكسل وفتور لتتركي جرّتك عائمةً فوق الماء ، فتعالي ، آه تعالي الى بحيرتي .
إنّ المنحدر المعشوشب أخضر ، والزهر الوحشي يربو كثيفاً .
سوفَ تغادر أفكارك عينيكِ السوداوين كعصافيرَ تهجر أعشاشها .
سوف يقع خمارُك على قدميك .
تعالي ، آه تعالي إلى بحيرتي ، إن كان عليك أن تجلسي في دعة وكسل .

إن كنتِ تودّين أن تنصرفي عن لعبك وتخوضي في الماء فتعالي ، تعالي ، آه تعالي إلى بحيرتي .

دعي معطفك الأزرق ينبسط على الشاطىء فإنّ الماء الأزرق سوف يسترك ويخفيكِ .

سوف تتطاول الأمواج على أطراف أصابع أقدامها لتلثم عنقك وتهمس في أذنيك .

تعالي ، آه تعالي الى بحيرتي إن كنت تودّين أن تخوضي في الماء .

إن كان عليك أن تبادري ، مجنونةً ، الى الموت ، تعالي ، آه تعالي الى بحيرتي .

إنّها باردةٌ عميقة لايُسبر غورها .

إنّها مظلمةٌ كنومٍ بلا أحلام .

في أغوارها ، يستوي الليل والنهار ويخرس صوت الأغاني .

تعالي ، آه تعالي إلى بحيرتي . إن كنت تودّين أن تقذفي بنفسك في الماء ، طلباً للموت .

١٣

لم أطلب شيئاً قطُّ ، بل ظللتُ واقفاً ، في طرف الغابة خلف الشّجرة .

وكانت عيون الفجر ماتزال مسربلةً بالكآبة ، والندى يملأ الفضاء .

وكان الشذا الكسول الفاغم من العشب الندي معلّقاً بالضّباب الرقيق الممتد فوق الأرض .

في ظلّ شجرة (البانيان) كنت تحلبين ضرعي البقرة براحتيك النديّتين الرخصتين كالزّبدة .

وكنت واقفاً لا أريم .

ولم أنبس ببنت شفّة ، وكان العصفور وحده يغرّد مختبئاً في الدّغل .
وكانت شجرة العنباء (المانجو) تنثر زهورها على درب القرية .
وكانت النحلات تقدم ، الواحدة منها في أثر الأخرى وتطنّ حواليها .
والى جانب الغدير كان باب معبد (شيفا) مفتوحاً ، وكان المتعبّد قد بدأ تراتيله .
وكنت تحتلبين ضرعي البقرة والوعاء في حِجْرِك .
وظللتُ واقفاً أحمل قِدري الخاوية .
ولم أقترب منك .
واستفاقت السّماء على قرع الناقوس في المعبد .
وانعقد الغبار في الطّريق ، تهيّجه سنابكُ القطيع المنقاد .
وعادت النساء من النهر ، حاملاتٍ على أردافهنّ جرّارهنّ اللاغية .
وكانت أساورك توسوس ، ورغوةُ اللبن تتحدّر من جرّتك .
وانقضى النهار ولم أقترب منك .

١٤

كنت أسير في الدّرب ـ ولاأدري لِمَ سرت ـ بعد الظهيرة حين تردّد حفيف أغصان (البامبو) في الرّيح .
وكانت الظّلال المائلة ، بأذرعها المنبسطة ، تتمسّك بقدم الشّعاع الهارب .
وكانت طيور (الكويل) قد برمت بأغانيها .
كنت أسير في الدّرب ، ولاأدري لِمَ سرت .
واستظلّ الكوخ الصّغير القابع على ضفّة الماء بشجرةٍ وارفة الأغصان .
وكانت هناك ، امرأةٌ مشغولةٌ بعملها ، وأساورُها تهزَج بأنغامٍ موسيقيّةٍ ، في ركن الغرفة .

لقد وقفت قبالة ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ وقفت .

إنّ الدرب الضيّقة المتعرّجة تنساب في كثيرٍ من حقول (الإسفند) وكثير من غابات (المانجو) .

إنها تمتد من أمام معبد القرية والسوق القائمة على مرسى النهر .

لقد توقفت أمام ذلك الكوخ ولا أدري لِمَ توقّفت .

منذ سنين عديدة مرّ يوم من أيّام آذار الخافق بالأنسام .

حين كان همس الربيع وانياً وكانت أزهار شجرة العنباء (المانجو) تتهاوى على التراب .

وكان الماء الفوّار يثب ويلعق ، في مجراه ، الإناء النّحاسي الموضوع على ضفّة المرسى .

وفكّرت في ذلك اليوم من أيّام آذار الخافق بالنّسيم ولا أدري لِمَ فكّرت فيه .

كانت الظّلال تتّسع عمقاً والقطيع بسبيل العودة الى مراحه .

وكان النّور مربداً فوق السهول الموحشة ، وعلى الضّفة كان الفلاحون ينتظرون الزّورق .

وانكفأت عائداً على عقبيّ ، في هدوء ، ولاأدري لِمَ عدت .

١٥

إنني أركض كغزال المسك[١] وهو يعدو في ظلّ الغابة ، ثملاً من طيب ذفرته .

الليلة هي ليلة منتصف مايس والنّسيم هو نسيم الجنوب .

---

(١) غزال المسك : ظبي ذو دم طيّب الرائحة .

وأضلّ طريقي وأشرد ، وأبحث عمّا ليس في وسعي الظّفر به ، وأظفر بما لا أبحث عنه .

ينطلق من قلبي طيف رغبتي نفسها ثمّ يرقصِ .

ويرفرف الوهم البرّاق .

وأحاول الإمساك به ، في عزم ، فيفوتني ويدعني ضالاً هيمانَ .

وأبحث عمّا ليس في وسعي الظّفر به وأظفرُ بما لا أبحث عنه .

١٦

الأيدي ، يتشبّث بعضها ببعض ، والعيون ، ينشد بعضها بعضاً وكذلك ابتدأت سيرة قلبينا .

تلك ليلة مقمرة من آذار وشذا الحناء يضوع في الفضاء ونايي موسدٌ تراب الأرض مهجور ، وإكليلك الزهري ناقص التنسيق .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنّه أغنية .

إنّ خمارك ذا اللون الزعفرانيّ يسكر عينيّ .

إنّ إكليل الياسمين الذي تضفرينه لي يرعش قلبي كما يرعشه الثّناء .

تلك لعبة يتداولها البذل والصدّ ، والبوح والكتمان من جديد ، ويتّسق فيها بعض الإبتسام وبعض الخجل وبعض التمنّع العذب غير المجدي .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنّه أغنية .

ليس ثمَّ سرٌّ خلف الحاضر ولا سعي ناصبٌ الى المستحيل . ليس ثمّ ظلٌّ خلف الحسن ، ولاتلمّسٌ لأغوار الظّلام .

إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنّه أغنية .

لن نهيم من جماع الكلم الى الصّمت الأبدي ، لن نمدّ أيدينا في الفراغ سعياً وراء أمورٍ تعزّ على الأمل .

إنّ مانهبه ومانتلقّاه لجد كافٍ .
لم نعصر عناقيد السّرور كلّها لنغنم منها خمرَ الألم .
إنّ هذا الحبّ المتبادل بيننا بسيط كأنّه أغنية .

١٧

إنّ العصفور الأصفر يغرّد على شجرتهم ويحمل قلبي على أن يرقص جذلاً .
إننا نعيش معاً في القرية نفسها ، تلك هي سعادتنا الوحيدة .
إنّ خروفيها المدلّلين الأثيرين ، يقدمان إلى فيء أشجار حديقتنا يرمّان العشب[١] .
وإن شردا في حقل الشّعير فإنني أضمّهما بذراعيّ .
إنّ اسم قريتنا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .
ثمّة حقل واحد ينبسط بيننا .
إنّ النحل الذي سوّى خلاياه في غابتنا الصّغيرة ، هفا الى غاباتهم ، ينشد الرحيقَ المعسول .
إنّ الزهر المطروح من ضفاف مراسيهم يقبل عائماً فوق ماء السّيل الذي نغتسل فيه .
إنّ سلال زهر (الكوسم) الذابِل الجافِ ، تأتي من حقولهم الى سوقنا .
إنّ اسم قريتنا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .
اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .

---

(١) رمّ الخروف العشب : تناوله بفمه .

إنّ الدرب المفضيّة الى بيتهم هي في الرّبيع فاغمةٌ بشذا زهر العنباء (المانجو) .

حين يكون بذر الكتّان لديهم ناضجاً في موسمه فإنّ القنّب يكون مزهراً في حقلنا .

إنّ النجوم التي تبتسم من سقوف أكواخهم تحدرُ الينا نظراتها المتألّقة نفسها .

إنّ الغيث الذي يفعم صهاريجهم يريق الهناء لغاباتنا الممرعة بنبات (الكادام) .

إنّ اسم قريتنا هو (خانجانا) ويدعى نهرنا (أنجانا) .

اسمي معروف في القرية كلّها أمّا اسمها فهو (رانجانا) .

١٨

حين تغدو الأُختان لتجلبا الماء ، فإنهما تقدمان الى هذا المكان وتتبسّمان .

لابدّ أنهما تعلمان بأنّ شخصاً ما ، يقف خلف الأشجار ، حين تغدوان لتجلبا الماء .

وتتهامس الأختان حين تمرّان بهذا المكان .

لابدّ أنهما قد ألمّتا بسر هذا المتواري خلف الأشجار ، حين قدمتا لتجلبا الماء .

وتتمايل جرتاهما ، فجأةً ، ويتحدّر الماء ، حين تصلان الى هذا المكان .

لابدّ أنهما قد اكتشفتا أنَ قلب إنسانٍ واقفٍ خلف الأشجار يخفق حين تردان الماء .

وتتبادل الأختان النظر حين تقدمان الى هنا ثمّ تبتسمان .
إنّها ضحكة أقدامهما الرّشيقة هي التي تبعث الاضطراب لدى ذلك الواقف خلف الأشجار ، حين تغدوان لتجلبا الماء .

١٩

كنتِ تسيرين على دربِ شاطئ النهر وكانت الجرّةُ المسندَةُ على ردفك مفعمةً .
لِمَ أدرتِ وجهكِ إليّ في رشاقةٍ ، ونظرتِ إليّ من خلف خِمارَكِ الخفاق ؟
إنّ هذه النظرة البرّاقة المنسابة من الظّلام قد تناهت إليّ كالنسمة التي تهفو وترعش الماء المتغضّن ، لتُمحي في الشاطئ الظّليل .
لقد أقبلتِ نحوي ، كعصفور المساء الذي يجوز الغرفة المظلمة سريعاً ، وينطلق من نافذةٍ مفتوحة الى نافذة أخرى ، ثمّ يغيب في الليل .
لقد تواريتِ كالنجمِ المختفي وراء الربى ومررت أنا في الطّريق .
ولكن ، لِمَ توقّفتِ ، هنيهةً ، وأرسلت إليَّ نظرةً من خلف خمارك ، فيما كنتِ تسيرين على دربِ شاطئ النهر والجرّةُ المفعمةُ متّكئة على ردفك ؟

٢٠

يوماً بعد يوم ، يأتي هو ثمّ يؤوب .
ياصاحبي اذهب وأعطه زهرةً من شعري .
وإن استوضحك عن مرسلها ، فحنانيك لاتقلْ له اسمي ، فإنه لايأتي إلاّ ليؤوب .
إنه يجلس فوق التّراب ، تحت الشّجرة .

فهلاّ مهّدت له ياصاحبي هناك ، مجلساً من الزّهر وأوراقه .
عيناه حزينتان ، إنهما تفعمان قلبي بالأسى .
إنه لايفضي بما يجول في فكره ، ولكنه يأتي ثمّ يؤوب ليس غير .

٢١

تُرى لِمَ آثر الرائدُ الفتى أن يقصد بابي ، حين أسفر الفجر ؟
في كلّ مرّة أدخل أوأخرج ، ألتقي به ، وتتعلّق عيناي بمحياه .
لاأدري إن كان عليّ أن أتحدّث إليه أو أن ألوذ بالصّمت . تُرى لِمَ آثرَ أن يقصد بابي ؟
إنّ الليالي الغائمة من تمّوز مظلمةٌ ، والسّماء في الخريف لطيفة الزّرقة ، وأيّام الرّبيع واشيةٌ بالقلق عند هبوب ريح الجنوب .
إنّه ينسج أغانيه ، دوماً ، بأنغامٍ طليّةٍ نديّةٍ .
وأنكفىء عن عملي ، وتمتلىء عيناي بالضّباب ، تُرى لِمَ آثر أن يقصد بابي ؟

٢٢

حين مرّت بي ، بخُطا عاجلة ، لامستني ذلاذل[1] ثوبها .
وهفت من جزيرة قلبها المجهولة ، نسمةٌ مفاجئةٌ من نَسْمِ الربيع الدّافئة .
ومرّت بي لمسةُ نسمةٍ شاردةٍ مرفرفةٍ وغابت وشيكاً ، كفوف وردةٍ تطاير في النّسيم .
ثمّ هبط على قلبي كأنّه زفرةٌ من جسدها وهمسةٌ من قلبها .

---

(١) ذلاذل الثوب : أطرافه من أسفله .

٢٣

لِمَ تجلسين هناك . تعبثين بأساورك ، في دعةٍ وكسلٍ ؟
املأي جرّتك ، فقد أزف أوان عودتك الى الدّار .
لِمَ تداعبين الماء بيديك ، فيما تتلمّس نظرتُكِ الطّرِفة[1] في دعةٍ وكسلٍ شخصاً يمرّ في الدّرب ؟
املأي جرّتك وعودي الى الدّار .
إنّ سويعات الصّباح تنقضي ـ الماء الأسود ينصب .
الأمواج تقهقه وتتهامس في دعةٍ وكسلٍ .
وتجمّعت الغيوم الشّاردة ، في أفق السّماء ، هناك ، على نشزٍ من الأرض .
إنّها تتمهّل وتنظر الى محياك ثمّ تبتسم في دعةٍ وكسلٍ .
املأي جرّتكِ وعودي الى الدّار .

٢٤

يارفيقتي ، لاتحتفظي لنفسكِ بسرِّ قلبك .
أفضي به إليّ ، إليّ وحدي ، خفيةً .
أنت يا من تبتسمينَ ، في رقّةٍ ، اهمسي لي بسرّك ، في لينٍ ، فإنّ قلبي وحده ، لا أذني ، هو الذي سيسمعك .
الليلُ عميقٌ ، والدّار صامتةٌ ، وأعشاش العصافير مسربلةٌ بالنعاس .
اذكري لي من خلال عبراتك المتردّدة ، من خلال بسماتك المضطربة ، من خلال خجلك العذب وأساك ، اذكري لي سرّ قلبك .

---

(١) الطرفة : المتقلّبة الملول .

٢٥

ـ تعال إلينا أيّها الفتى ، قل لنا ، لِمَ تبدو عيناك ممتلئتين بالجنون ؟

ـ لاأدري أيّ خمر من خمور الخشخاش البرّي حسوتُ حتّى امتلأت عيناي بهذا الجنون .

ـ آه . ياللخزي!

ـ حسنٌ ، بعض الناس عاقلٌ ، وبعضهم مجنونٌ ، بعض النّاس متبصّرٌ وبعضهم غافلٌ ، ثمّة عيونٌ تبتسم وعيونٌ تبكي ،أمّا عيناي فمليئتان بالجنون .

ـ أيّها الفتى لِمَ تقف ، هادئاً ، في ظلّ شجرة ؟

ـ إنّ قدميّ واهنتان من عبء قلبي ، لذا أمكث هادئاً في الظّل .

ـ آه . ياللخزي!

ـ بعض النّاس يمضي في سبيله ، وبعضهم يتمهّل ، بعض النّاس حرٌ وبعضهم مقيّد ، أمّا قدماي فواهنتان من عبء قلبي .

٢٦

ـ إنّ كلّ ماتمنحه يداك السّخيّتان ،أتلقّاه ولا أرجو مزيداً .

ـ أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيها المستجدي المتواضع . إنّك تبغي كلّ مايملكه المرء .

ـ إن حزت تلك الوردة الضائعة فسأضعها فوق قلبي .

ـ وإذا كان فيها شوك ؟

ـ فإنني سأتحمّله .

ـ أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيّها المستجدي المتواضع ، إنّك تبغي كلّ مايملكه المرء .

- إن شخصت عيناك العاشقتان إلى وجهي ، مرّة ، فإنهما قد تجعلان حياتي عذبةً بعد الموت .

- وإذا كانت نظراتي قاسية ؟

- فإنني سأحتفظ بها منغرزة في قلبي .

- أجل ، أجل ، إنني أعرفك أيّها المستجدي المتواضع ، إنّك تبغي كلّ مايملكه المرء .

٢٧

- آمن بالحب ولو كان مصدراً للألم ، ولاتغلق قَلْبَك .

لا . أوه ، لاياصاحبي ، إنّ كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

- ياحبيبي ، لم يخلق القلب إلا ليهب نفسه مع دمعة وأغنية .

- أوه ، لا ياصاحبي ، إنّ كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

- إنّ الفرحة وانية كقطرة من ندى ، إنّها تموت حين تضحك ولكنّ الحزن عنيفٌ عنيد ، دع الحب المعّني يستيقظ في عينيك .

- أوه ، لا ياصاحبي ، إنّ كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

- إنّ براعم اللوتس تؤثر أن تتفتّح في أشعة الشّمس ثمّ تموت على أن تحيا براعمَ مغلقةً في شتاء أبديّ غائم .

- أوه ، لا ياصاحبي ، إنّ كلماتك مبهمة وليس في ميسوري فهمها .

٢٨

إنّ عينيك المتسائلتين حسيرتان ، إنهما تتشوَفان الى اكتناه فكري ، كالقمر الذي يتشوّف الى أن يسبر البحر .

لقد نفضت أمام عينيك حياتي كلّها ، من مبدأها الى منتهاها ، دون أن أخفي عنك شيئاً ولهذا فإنك لا تعرفينني .

لو كانت حياتي جوهرةً لحطّمتها مائة قطعة ونظّمتها في سمط ، وجعلت منها عقداً يحيط بجيدك .

لو كانت حياتي زهرةً صغيرةً عذبةً ، لقطفتها من غصنها لأنوط بها شعرك .

ولكنّ حياتي قلبٌ ، ياحبيبتي ، فأين حدودُها وأين غورُها ؟

إنّك تجهلين حدودَ هذه المملكة ، ومع ذلك ، فإنّك ملكتها .

لو كان قلبي لذّةً عابرةً لرأيته ينوّر في بسمة هنيئة ، ولاتّسق لكِ أن تريه وتقرأيه في لحظةٍ واحدة .

لو كان قلبي ألماً لذاب في دموعٍ صافيةٍ ، عاكساً سرّه العميق دون أن ينبس ببنت شفة .

ولكنّ قلبي حب ياحبيبتي .

إنّ لذّته وألمه لاحدّ لهما ، إنّ رغبته وغناه أبديّان .

إنه قريب منك ، قرب حياتك منك ، ولكنّك لن تستطيعي معرفته كلّه أبداً .

٢٩

حدّثني ياحبيبي ، قل لي الكلمات التي كنت تغنّيها . الليل داجٍ والنجوم تائهة بين الغيوم ، الريح تزفر عبر الأوراق .

سوف أحلّ ضفائري ، سوف يلفّني معطفي الأزرق كما يلفّني الليل .

سوف أشد رأسك الى صدري ، وهناك في العزلة الناعمة سوف أهمس لقلبك وأغضّ طرفي وأصغي ، لن أنظر الى وجهك .

وحين تنفد كلماتك ، سوف نمكث صامتين هادئين ، سوف تهمس الأشجار وحدها في الظلمة الدّاجية .

سوف يشحب الليل ، ويولد النهار ، سوف ينظر واحدنا الى عيني صاحبه ، وسوف نمضي في دربينا المفترقين .

حدّثني ياحبيبي ، قل لي الكلمات التي كنتَ تغنّيها .

٣٠

أنتِ سحابة السّماء التي تطوف بسماء أحلامي .

إنني أصوّرك وأسوّيك وفق رغبة حبّي .

أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي التي لا نهاية لها .

إنّ قدميك مخضّبتان برغبة قلبي المتأججة ، يامن تلتقط أناشيد غروبي .

إنّ شفتيك مرّتان حلوتان من طعم خمر ألمي .

أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الموحشة .

بظلّ شغفي سوّدتُ عينيك ، أنت يا وهم نظرتي العميقة لقد أمسكت بك وأحطّتك بشباك موسيقاي ، ياحبيبتي .

أنتِ لي ، لي وحدي ، ياساكنة أحلامي الخالدة .

٣١

إنّ قلبي ، عصفورَ البرّية ، قد وجد سماءه في عينيك .

إنهما مهدُ الصّباح ، إنّهما مملكة النجوم .

إنّ أناشيدي تهيم في أغوارهما .

دعيني أرفرف في هذه السّماء ، في مداها الرحيبِ المقفر .
دعيني أشقّ غيومَها وأبسط جناحي على أشعّة شمسها .

٣٢

قل لي ياحبيبي ، أصحيح كلّ هذا ، أصحيح كلّ هذا ؟
إنّ الغيوم المدلهِمّةَ في صدرك ، تعصف بجوابها حين يومض بريق هاتين العينين .
أصحيحٌ أنّ شفتيّ عذبتان كالبرعم المتفتّح من الحبِ الواعي الأوّل ؟
أتسري ذكريات شهور مايس الخوالي ، في أوصالي ؟
أتختلج الأرض كالمعزف بالأغاني على لمسة قدمي ؟
أصحيح أنّ قطرات الندى تنهمر من مآقي الليل حين أظهر ، وأنّ شعاع الصباح يسعد حين يلفّ جسمي ؟
أصحيح ، أصحيح ، أنَ حبّك قد رحل وحده ، عبر الأجيال والدنى باحثاً عنّي ؟
وأنّك حين تعثر عليّ أخيراً فإنّ رغبتك الكبرى تستروح الأمنَ في كلماتي الرقيقة ، في عينيّ ، في شفتي ، في شعري المنسدل ؟
قل لي ياحبيبي ، أصحيحٌ أنّ سرّ اللانهاية مكتوب على جبيني ؟

٣٣

أحبّك ياحبيبي ، اغفر لي حبّي ، ياحبيبي .
لقد تلقّفتني عصفوراً ضالاً .
ولمّا اهتزّ قلبي ، انحسر قناعه وبدا عارياً ، غطّه ياحبيبي ، في رفقٍ ، واعذرني ياحبيبي .

إن كنت لاتستطيع أن تحبّني ، فاعذرْ ألمي . لاتنظر إليّ شزراً ، من بعيد .
سوف أعود وأنتبذ ركني وأقبع في الظّلام .
سوف أغطّي بكلتا يدي ، عاري الكشيف .
نحِّ وجهَك عني ، ياحبيبي واعذرْ أساي .
إن كنت تحبّني ، ياحبيبي ، فاعذرْ فرحتي .
وحين ينجرف قلبي بتيّار السّعادة فلا تبتسم لاستسلامي المحفوف بالخطر .
حين أجلس على عرشي وأحكمك بحبّي الطّاغي .
وحين أبذل لك ، كربّةٍ كريمةٍ ، أفضالي ، فتحمّل كبريائي ياحبيبي واعذرْ فرحتي .

٣٤

لا تذهب ياحبيبي ، دون أن تستأذنني .
لقد سهرت طوال الليل ، وعيناي الآن مثقلتان بالنعاس .
أخشى أن أفقدك ، وأنا مستغرقة في النّوم .
لا تذهب ياحبيبي ، دون أن تستأذنني .
إنني أنهض وأمدّ يدي لألمسك وأسائل ذاتي : تُراه حلماً ؟
أنّى لي أن أجمع قدميك الى قلبي وأضمّهما الى صدري .
لا تذهب ياحبيبي ، دون أن تستأذنني .

٣٥

خشية ألاّ أعرفكَ ، في يسر ، فإنّك تعمدين الى اللعب معي .
إنّك تعشين بصري ، ببريق ضحكتك ، لتواري دموعك .

أنا أعرف ، أعرف حيلَتَك .
إنّك لاتفوهين البتّة بالكلمة التي ترغبين في قولها .
خشية ألاّ أقدّرك ، فإنّك تتحاشينني بألف سبيل .
خشيةَ أن أخلطك بجموع النّاس فإنّك تؤثرين العزلة .
أنا أعرف حيلتك .
إنّكِ لاتسلكين البتّة الدربَ الذي تودّين سلوكها .
إنّ مطلبك أكبرُ من مطلب الآخرين ولهذا فإنّك صامتة .
وفي غفلةٍ لعوب ، تتجنّبين عطاياي .
أنا أعرف ، أعرف حيلتك .
إنّكِ لاتأخذين البتّة ماتودّين الحصولَ عليه .

٣٦

لقد همسَ : « ياحبيبتي ارفعي طرفك إليّ »
وأنّبته ، في عنفٍ ، ثمّ قلت له : « امضِ » ولكنّه لم يرمِ من مكانه .
ووقف قبالتي وأمسك براحتي ، فقلت له : « دعني » ولكنّه لم يذهب .
وداني وجهه من أذني ، وخالسته النظرَ ثمّ قلت له : « واخجلتاه » ، بيدَ أنّه لم يتحرّك .
ولامست شفتاه خدّي ، فارتعشتُ وقلت له : « إنّك تتجرّأ كثيراً » غير أنهُ لم يشعر بالخجل .
وعلّق زهرة بشعري فقلت له : « لا جدوى من ذلك » ولكنّه ظلّ جامداً .
وتناول عقدَ الزهر من عنقي ومضى . إنني أبكي وأسائل قلبي : لِمَ لايعود ؟

٣٧

أتريدين أن تطوّقي عنقي بعقدكِ المضفور من الزّهر الغضّ أيّتها الجميلة ؟

ولكنْ ، عليك أن تعلمي أنّ العقدَ الوحيدَ الذي ضفرته معدٌ لكثيرات ، معدٌ للواتي يتراءين في ألق النور ، لمن يقمن في بقاعٍ بكرٍ ، لمن يعشن في أغاني الشعراء .

لقد فات الأوان في أن تستبدلي بقلبك قلبي .

ذاك زمان ، كانت فيه حياتي شبيهةً ببرعم قد اختزن شذاه كلّه في قلبه .

أمّا الآن فقد تبدّد بعيداً في كلّ اتّجاه .

ترى من يؤتى نعمة جَنْيه وحبسه في برعمه من جديد ؟

إنّ قلبي ليس لي ، لأهبه لواحدة فحسب ، فقد نالته الكثيرات .

٣٨

ياحبيبتي لقد سلف زمان شرع فيه شاعرك بنظم ملحمة كبيرة .

واأسفاه! لم أكن متبصّراً قط ، فقد التقت بخلاخيلك الهازجةِ واستشرفت ثمّة نهايتها .

ثمّ تفطّرت الى مقاطع من الأغاني وتمدّدت ، مبعثرة ، حول قدميك .

وجعلت سفينتي المشحونةُ بقصص الحرب القديمة تهتزّ على قهقهة الأمواج ، وابتلّت بالدموع ثمّ غاصت في الأعماق .

ياحبيبتي ، عليك أن تحيلي من أجلي ، هذه الخسارة الى مغنم .

وإن خابت تعلاّتي في مجدٍ خالدٍ إثر موتي ، فدعيني أكن خالداً في حياتي .

حينذاك لن أنتحب على خسارتي ولن أعاتبك أبداً .

٣٩

حاولت ، طوال الصباح ، أن أضفر طوقاً من الزّهر ، بيد أنّ الزهرات كانت تزلق من يدي ثمّ تتهاوى .

وكنت جالسةً ، هناكَ ، تنظرين إليَّ ، خفيةً ، من موق عينيك الضارعتين .

سلي هاتين العينين المربَدتين بالمكر : من كان المخطيء ؟

أحاول أن أترنّم بأغنية ، ولكنْ عبثاً أحاول .

وترتعش على شفتيك ابتسامةٌ خفيّةٌ ، سليها سبب خيبتي .

اطلبي إلى شفتيك الباسمتين أن تقولا حانثتين ، كيف ضلَّ صوتي نفسهُ في الصّمت كأنه نحلة سكرى تتغلغل في زهرة اللوتس .

ها هو ذا المساء . لقد أزف الوقت الذي تغلق فيه الزهور أفوافها .

دعيني أجلس الى جانبك ، واطلبي إلى شفتيَّ أن تستوفيا العمل الذي يمكن أن يتم في صمتٍ وفي نورِ النجوم الشّاحب .

٤٠

ترفرف ، في عينيك ، ابتسامةٌ مستريبةٌ حين أقدم اليك لأودّعك .

وإنه ليتسق لي ذلك ، أغلب الأحيان ، الى حدٍّ صرتِ فيه تحسبين أنني بسبيل المجيء قريباً .

وفي الحق ، إنه ليجاذب الشّك نفسه خاطري .

فإنّ أيّام الربيع ، تعود موسماً بعد موسم ، والقمر يغادرنا ليوافينا بزيارة أخرى ، والزّهر يعود فينوّر على أغصانه ، عاماً بعد عام ، مثلما أغادرك ، لأعود اليك من جديد .

ولكنْ استمسكي بهذا الوهم ، لحظةً ، ولاتنبذيه في تسرّعٍ قاسٍ .
حين أقول لك إنني سأغادرك الى الأبد ، فتقبّلي قولي على أنه حق ، ودعي ضباباً يغيم هنيهة ، على هدب عينيك الأسود المربد .
ثمّ ابتسمي ، في مكر ، بقدر مايحلو لك ، حين أعود من جديد .

٤١

إنني أتشوّف إلى أن أردّد لك أعماق الكلمات التي ينبغي أن أقولها لك ، ولكنّي لاأجرؤ على ذلك مخافة أن تضحكي منّي .
لهذا فإنني أضحك من نفسي ، وأنفض سرّي ، دعابةً ومزاحاً .
وأستخف بألمي لئلا تستخفّي به أنت .
إنني لأصبو الى أن أردّد لك أصدق الكلمات التي ينبغي أن أقولها لكِ ، ولكنني لاأجرؤ على ذلك ، خشيةَ ألاّ تؤمني بي .
لهذا فإنّي أوشّيها بالكذب ، ذاكراً غير ما أفكّر فيه .
إنني أدع ألمي يبدو مستحيلاً لئلا تريه أنتِ مستحيلاً .
إنني أتوق إلى أن ألهج بأثمن الكلمات التي يتعيّن عليّ أن أقولها لك ، ولكنني لاأجرؤ على ذلك ، خشيةَ ألاّ أحظى بما يعدل قيمتها .
لهذا فإنني أزجي اليك أسماءً قاسيةً وأُزهى بقوّتي العاتية .
وأؤلمك خشيةَ ألا تعرفي أيّ ألم .
إنني لأتمنّى أن ألزم جانبك صامتاً ، ولكنني لا أجرؤ لئلا تخون شفتاي قلبي .
لهذا فإنني أهذر وأثرثر ، في هينةٍ ، موارياً قلبي خلف كلماتي .
وأقسو ، في عنفٍ ، على ألمي ، لئلا تقابليه أنت بالقسوة .
إنني لأرجو أن أبتعد عنك ، ولكنني لا أجرؤ خشيةَ أن تري الى جبني .

لهذا فإنني أقدم الى مجلسك ، شامخ الرأس ، غيرَ مكترث بشيء .
إنّ نظراتك النّافذة المتّصلةَ المرسلةَ من عينيك تجدّد ألمي دوماً .

٤٢

إيهٍ أيها المجنون ، أيّها السكران الفاتن .
إن فتحت ، بركلةٍ من قدمك ، أبوابك ، واصطنعت الجنون أمام النّاس .
إن فرغت محفظتك ، في ليلةٍ واحدةٍ ، وفرقعت أصابعك للتبصّر هازئاً .
إن سلكت دروباً غريبةً ، ولهوت بالأشياء العقيمة ، دون عقلٍ وبصيرة .
إن نصبت شراعك في مهبّ العاصفة ، لتحطّم دفّة سفينتك .
إن فعلت ذلك كلّه ، فإنني ألحق بك أيها الرفيق وأسكر وأتّبع معك الشّيطان .

لقد أضعت أيامي ولياليَّ في صحبة الجيران العقلاء الشرفاء .
إنّ المعرفة الواسعةَ قد شيّبت شعري ، والسّهر الطّويل قد جعل نظري قاتماً .
لقد سلختَ أعواماً مديدةً ، في التنقيب على شوارد الأشياء وجمعها .
فلأسحق هذه الأشياء ، ولأرقص فوقها ولأقذف بها كلّها للرياح .
فإنّ منتهى السّداد هو أن أسكر وأتّبع الشيطان .
دع وساوس الضمير الملتوية كلّها تمحى ، وذرني أضلّ طريقي بائساً .
لتجرفني جذبةٌ من دوارٍ وحشيٍّ ولترمِ بي بعيداً عن مراسي .
إنّ العالم آهل بالشرفاء ، وبالعاملين النافعين الأذكياء من الناس .
ثمّة رجال يعدّون ، في يسر ، في المقدّمة ، ورجال جديرون بأن يلوهم .
فليكونوا سعداء نافعين ، ولأكن أنا مجنوناً نافلَ النفع .
أنا أعلم أنّ نهاية كلّ سعي هي أن أسكر وأتّبع الشيطان .

إنني أقسم بأن أتخلّى ، منذ الآن ، عن أي مطلب في منصبٍ شريفٍ لائقٍ .
إنني أهجر اعتدادي بالمعرفة ، وبتمييزي للخطأ والصّواب .
سوف أحطّم وعاء ذكرياتي . مبدّداً آخر قطرة من الدّموع .
سوف أغوص في زبد الخمر الحمراء ، وأشعشع فيه ضحكتي .
أمّا مظاهر التّهذيب والوقار فلسوف أمزّقها شرّ ممزّق .
سوف أقسم يميناً غموساً بأن أصبح تافهاً سكرانَ وبأن أتّبع الشيطان .

٤٣

لا ، يارفاقي ، لن أصبح ناسكاً أبداً ، في وسعكم أن ترووا ذلك عنّي .
لن أكون ناسكاً أبداً ، إن لم تتمن هي نفس ماأتمنّى .
لقد آليت ، في عزمٍ ، ألاّ أكون ناسكاً أبداً ، إن لم يتأتّ لي أن أجد ملاذاً ظليلاً وصاحباً في زهدي .
لا يارفاقي ، لن أهجر أبداً مسكني وبيتي . وأفزع الى الغابة الموحشة ، إن لم تتجاوب ، في ظلّ صداها ضحكةٌ قريرةٌ سعيدةٌ ، وإن لم تجذب فيها الريح ذيلَ معطفٍ زعفراني اللون ، وإن لم يضح صمتها ، بالهمس الرقيق ، أكثر عمقاً .
أجل ، لن أصبح ناسكاً أبداً .

٤٤

اصفح ياسيّدي الكريم ، عن هذين الآثمين ، إنّ رياح الربيع ، تهبُّ الآن نكباءَ عاصفةً ، سافيةً الغبارَ والأوراقَ الميّتةَ ، جارفةً معها دروسكَ كلّها .
لاتقل ياأبي إنّ الحياة باطلة كلّها .

لقد أصبحنا من أجل هدنة عقدت ذات مرّة مع الموت ومن أجل سويعات عاطرة ، أصبحنا كلانا خالدين .

وإن قدم جيش الملك نفسه ، وانقضّ علينا في ضراوةٍ ، فلسوف نكتفي بأن نهزّ رؤوسنا ، في أسى ، ونقول : «أيهّا الإخوان لقد رنّقتم صفو راحتِنا ، إن كان عليكم أن تستأنفوا هذا اللعب الصّاخب ، فاذهبوا بعيداً وقعقعوا ، ثمّة ، بأسلحتِكم ، فمن أجل لحظات سانحة فحسب أصبحنا نحن خالدين » .

وإن أقبل بعض الرّفاق وأحاطوا بنا فلسوف ننحني لهم ، في تواضعٍ ، ونقول : « إنّ هذه الثروة الكبيرة ، تضعنا في مأزقٍ حرجٍ ، وحيث نقيم في السّماء التي لانهاية لها ، فإنّ مكاننا فيها ضئيل ، إنّ الزّهر ينوّر بكثرة في الربيع ، وأجنحة النحل الدّؤوب يلامس بعضها بعضاً ، إنّ سماءنا الصّغيرة ، حيث نقيم ، وحدنا ، كلانا ، نحن الخالدين ، هي سماء ضيّقة دون جدوى » .

٤٥

أيّها الضيوف الظاعنون الذين سوف يشتتهم الله ويعفي آثار خطاهم كلّها .

ضعوا على صدوركم وأنتم تبتسمون ، كلّ ماهو سهلٌ وبسيطٌ ودانٍ .

اليوم هو عيد الأشباح التي لاتعرف متى تموت .

دعوا ضحكتكم تترقرق جذلاً لامعنى لها كأنّها ألق النور يحبو فوق الماء الجعد .

دعوا حياتكم ترقص ، خفيفةً ، على شاطىء الزّمن كأنّها قطرة الندى المنسربة على حروف الورقة .

أريقوا من أوتار معزفكم ، أنغاماً تأتلف في أوزانٍ عابرةٍ .

٤٦

لقد تركتني ، ومضيت في طريقك .

كنت أحسب أنني سوف أبكيك ، وأرصّع قلبي بصورتك المنفردة المغزولة من أغنية ذهبيّة .

واأسفاه ، يا لنكد طالعي ، إنّ الزمن قصير .

إنّ الشباب يذوي عاماً بعد عام ، وأيّام الرّبيع زائلة ، والزهر الغضّ يموت من لا شيء والحكيم يقول لي : « إنّ الحياة ليست سوى قطرة من ندى فوق ورقة لوتس » .

أينبغي أن أهمل كلّ هذا لأتطلّع إلى من تخلّت عنّي ؟ لعلّ هذا أن يكون قاسياً جنونيّاً ، فإنّ الزمن قصير .

تعالي ياليالي الممطرة يتردّد فيها خفق الأقدام ، وابتسم ياخريفي الذهبي ، تعال يانيسان المتمهّل ، يامن يوزّع قبلاته بعيداً .

تعال أنت ، وأنتَ أيضاً .

ياأحبّتي إننا جميعاً فانون ، أمن الحكمة أن يحطّم المرء قلبه من أجل تلك التي استأثرت بقلبها ومضت ؟ إنّ الزمن قصير .

إنه ليطيب لي أن أنتبذ ركناً ، لأحلم وأنظّم الشعر مردّداً : إنّك دنياي كلّها .

إنّها لبطولة أن يعانق المرء ألمه ، وأن يعتزم ألاّ يسلو أبداً .

ولكنّ وجهاً ناضراً يرامق بابي ويرفع طرفه إلى عيني .

لاأملك سوى أن أرقأ دمعي ، وأغيّر نغم أغنيتي .

إنّ الزمن قصير .

٤٧

إذا كان يحدث لك ذلك ، فلسوف أتوقّف عن الغناء .

إذا جعلت نظرتي قلبك يخفق فلسوف أحوّل عيني عن وجهك .

إذا ارتعت على حين غرّة ، وأنتِ تسيرين فلسوف أتنحّى وأتّخذ سمتي في طريق أخرى .

إذا كنت أربكتك وأنت تنسّقين الزهر فلسوف أعزف عن حديقتك المقفرة .

إذا هاج زورقي ماءَ النهر فماج وأزبد ، فلن أجدف صوب شاطئك .

٤٨

خلّصيني ياحبيبتي من قيود رقّتك ولاتهرقي مزيداً من خمر قبلاتك .

إنّ هذا الدخان المنعقد من البخّور يهصر قلبي .

افتحي الأبواب ، ودعي نور الفجر يملأ الأرجاء .

إنني ضائع في ذاتك ، مغطّى بين طيّات مداعباتك .

خلّصيني من سحر رُقاك ، وردّي لي فتوّتي ، أقدّم اليك قلبي المحرّر .

٤٩

وأمسك براحتيها ، وأضمّها الى صدري .

وأحاول أن أملأ ذراعي بملاحتها وأجني ابتسامتها الحلوة العذبة بقبلاتي وأنهل نظراتها القاتمةَ بعيني .

آهٍ! أين منّي هذا كلّه ، من يستطيع أن يسبر زرقةَ السّماء ؟

وأحاول أن أقبض على الجمال ولكنّه يفلت منّي ، تاركاً بين يدي جسَده وحده .

كيف يستطيع الجسد أن يمسّ الزهرة التي تقدر الروح وحدها أن تمسّها ؟

٥٠

ياحبيبتي ، إنّ قلبي يتوق ، ليلَ نهارَ ، الى لقائك الى لقاءٍ شبيهٍ بالموت الضّاري .

اجرفيني بعيداً ، كما تجرف العاصفة ، وخذي كلّ ماأملك ، وحطّمي نومي واجني أحلامي وانهبي منّي دنياي .

فلنصبح بهذا الاكتساح ، بهذا السّلب ، سلب الرّوح ، كلاً واحداً من الجمال .

واأسفاه إنّ رغبتي عبثٌ كلّها ، أين ذاك الأمل في الاتّحاد ، فيما عدا الإتّحاد بك ياربّ ؟ .

٥١

أنهِ أغنيتك الأخيرة ولنمضِ .

انس هذه الليلة . عمّن تراني أبحث ، لأضمّه بين ذراعي ، حين ينجاب الظّلام ؟ فالأحلام لايمكن أن تؤسر .

إنّ يديّ التّواقتين تشدّان الفراغ إلى قلبي ، وتجرحان صدري .

٥٢

ـ لِمَ انطفأ المصباح ؟

ـ لقد أحطّته بمعطفي ، ليكون بمنجى من الريح ، ولهذا فقد انطفأ المصباح .

ـ لِمَ ذوت الزهرة ؟

ـ لقد شددتها الى قلبي ، في شغفٍ قلق ، ولهذا فقد ذوت الزّهرة .

ـ لِمَ نضب النهر ؟

ـ لقد وضعت سداً في مجراه لأفيد منه وحدي ، ولهذا فقد نضب النهر .

ـ لِمَ انقطع وتر المعزف ؟

ـ لقد حاولت أن أضرب عليه نغماً أعلى ممّا تطيقه قدرته ، ولهذا فقد انقطع وتر المعزف .

٥٣

لماذا تجعلينني أستشعر الخجل ، بنظرةٍ منك ؟

فلم أقدم اليك مستجدياً .

ولقد وقفت ـ لأنفق الوقت ليس غير ـ في نهاية فناء دارك ، خلف وشيع الحديقة .

لماذا تجعلينني ، بنظرةٍ منك ، أستشعر الخجل ؟

لم أقطف أيّ زهرة من حديقتك ، ولم أجنِ أيّ ثمرة .

ولكنني لذت ، في تواضعٍ ، بظلّ الدربِ حيث يكون في وسع أيّ مسافر غريب أن يقف .

لم أقطف أيّ زهرة .

أجل إنّ قدميَ قد كلّتا وكان شؤبوب المطر يسحُّ .
وكانت الرياح تعول بين أغصان البامبو المصطفقة .
وكانت السّحب تسري في مضطرب السّماء كأنّها فرقة جيش تتقهقر مغلوبة .
إنّ قدمي قد كلّتا .
لاأدري ما الذي تفكّرين في شأني ، ولاأدري من كنت تنتظرين على بابكِ .
وكان ألق النور يبهر عينيك المترقّبتين .
كيف كان في ميسوري أن أعرف أنّك كنت ترينني ، حيث اتّخذت مجلسي في الظّلمة ؟
لاأدري ما الذي تفكّرين في شأني ؟
لقد تصرّم النهار وتوقّف المطر فترةً .
وأغادر ظلّ الشجرة القائمة في طرف حديقتك وأترك مجلسي على العشب .
لقد خيّم الظلام ، فأغلقي بابك ، إنني أستأنف السّير .
لقد تصرّم النهار . .

٥٤

الى أين تهرول ، حاملاً سلّتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد آب المشترون جميعاً بأحمالهم الى بيوتهم ، والقمر يتسامى فوق أشجار القرية .
كانت أصداء الأصوات المنادية فوق الزّورق ، تعدو عبر الماء القاتم .
وتتناهى الى الغيضة النائية ، حيث يرقد البطّ الوحشي .

الى أين تهرول ، حاملاً سلّتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟
لقد أغمضت أنامل النوم عيون الأرض .
وغلّف الصّمت أعشاشَ الغربان ، وانطفأت همسات أوراق البامبو .
وبسط الحراثون ، غبّ عودتهم من حقولهم حُصُرَهم ، على فناء البيوت .
الى أين تهرول ، حاملاً سلّتك ، هذا المساء ، بعد أن أقفلت السوق ؟

٥٥

كان الوقت ظهراً ، حين مضيت .
وكانت الشّمس متّقدة في السّماء .
وكنت قد أنهيت عملي ، وجلست ، وحيدة ، في شرفتي ، حين مضيت ، وكانت لفحات متقلّبة تقبل ، مغربلةً بأطيابٍ مختلفة من الحقول البعيدة .
وكانت الحمائم لاتني تهدل في الظّل ، وشرعت نحلةٌ عائدةٌ بغرفتي تترسّل في طنينها ، وتورد أخبار الحقول البعيدة .
وكانت القرية مستغرقة في النّوم ، في قيظ الظهيرة ، وكانت الطّريق مقفرة .
وكان حفيف الأوراق يعلو في هبّاتٍ مفاجئة ثمّ يمّحى .
وأخذت أجيل نظري في السّماء ، وأغزل في زرقتها حروف اسمٍ معروفٍ لديّ ، فيما كانت القرية تفيء إلى النوم ، في قيظ الظهيرة .
لقد نسيت أن أضفر شعري ، وكان النّسيم العليل يعبث به فوق خدّي .
وكان النّهر يعدو مطمئنّاً الى جانب شاطئه الظليل .
وكانت الغيوم البيضاء الكسلى ، ساكنةً .

لقد نسيت أن أضفر شعري .
كان الوقت ظهراً حين مضيت .
وكان تراب الطّريق ساخناً ، وكانت الحقول لاهثةً .
وكانت الحمائم تهدل بين الأوراق الكثيفة .
وكنت وحيدةً في شرفتي ، حين مضيت .

٥٦

بين رفيقاتٍ لي كثيرات ، كنت وحيدةً منصرفة الى أعمال البيت اليوميّة الغامضة .

لِمَ اخترتني ، فأخرجتني من الملاذ الرطب ، ملاذ حياتنا المشتركة ؟

إنّ الحب المكتوم لحبٍّ مقدّس ، إنه يتلألأ كجوهرة ، في غيهب القلب الخفي ويبدو على نور النهار الفاضح ، قاتماً جديراً بالشّفقة .

آه لقد مزّقت شغاف قلبي ، وجررت حبّي إلى بهرة السّاحة المنفسحة ، محطّماً الى الأبد ، ركنه الظليل ، حيث كان يواري عشّه .

وتظلّ النساء الأخريات كما هنّ دوماً .

لم ينفذ إنسان الى أعماق ذاتهنّ وإنّهن ليجهلن أنفسهن سرّهن .

إنّهن يبتسمن في رقّة ، يبكين ويثرثرن ويعملن ، ويقصدن المعبد ويشعلن مصابيحهن ويجلبن الماء من النهر .

كنت أرجو لحبّي الخلاص من خجله وهو يرتعش وليس ثمّ من يحميه ، بيد أنّك جعلت تشيح وجهك عنّي .

أجل إنّ الطريق تمتد لاحبةً أمامك ، ولكنّك قطعت سبيل عودتي وتركتني عريانةً أمام النّاس ، تحدّق إليّ عيونهم ، ليلَ ، نهار .

٥٧

إيهٍ أيّتها الدنيا لقد قطفت وردتك .

وضممتها الى قلبي فوخزتني شوكتها .

ولمّا جنح النهار الى الزّوال ، وامتدّت العتمة ، ألفيت الوردة ذاويةً ، بيد أنّ ألم وخزتها ظلّ باقياً .

إيهٍ أيّتها الدنيا ، سوف يوافيك الورد بشذاه وعنفوانه .

ولكنّ أوان قطف الورد الذي كنتُ أتحيّنه قد فاتني ، وفي الليل الحالك ، لم أعد أظفر بوردة فيما عدا ألم وخزتها الباقي .

٥٨

ذات صباح ، جاءتني ، في حديقة الزهر ، طفلة عمياء وقدّمت اليّ عقداً من الزّهر فوق ورقة لوتس .

وطوّقت به عنقي فترقرقت الدموع في عينيّ .

وقبّلتها وقلت لها : «أنت كالزهرة لاتبصرين .

ليس في وسعك أنت نفسك أن تري كم كانت هديّتك جميلة» .

٥٩

أيّتها المرأة لست طرفة الله فحسب ، ولكنّك طرفة الرجال أيضاً ، فهم الذين يزيّنونك بالجمال النّابض من قلوبهم .

ويغزل لك الشّعراء خماراً من خيوط أخيلتهم المذهّبة ، ويخلّد المصوّرون إهاب جسدك .

إنّ البحر يلفظ لآلئه ، وتمنح المناجم ذهبها ، وتهب حدائق الصيف وردها ، لتتزيّني وتتحلّي به وتضحي أثمن وأكثر نفاسة .

وتسربل رغبات قلوب الرجال ، بمجدها ، شبابك .

أنت كيان ، نصفه امرأة ، ونصفه الثاني حلم .

٦٠

في وسط اصطخاب الحياة وزمجرتها ، تطل أنتَ أيّها الجمال المنحوت من الحجر ، هادئاً وحيداً بعيداً .

عند قدميك يجلس الزّمن العظيم ، مشغوفاً ويهمس : «تكلّم ياحبيبي ، ياعروسي» .

ولكنّ كلامك أيّها الجمال السّاكن يظلّ جامداً على الحجر .

٦١

مهلاً . ياقلبي ، ليكن وقت الفراق عذباً .

لاتدعه يصبح موتاً بل تتمة .

ليحر الحبّ إلى ذكرى ، ولينقلب الألم الى أغنيات .

ليتناه الرفيف في السّماء الى انطواء الأجنحة حول العش .

لتكن آخر لمسة من يديك رقيقة كزهرة الليل .

توقّفي أيّتها النهاية الرائعة ، لحظة ، واذكري ، في صمت كلماتك الأخيرة .

إنني أنحني لك وأرفع سراجي لأنير لك الطّريق .

٦٢

في طريق الحلم المظلمة ، مضيت أبحث عن تلك التي كنت أحبّها في حياة آنفة .

كان بيتها قائماً في طرف شارع منعزل .

وعلى هينمة نسيم الماء ، كان طاووسها المدلّل ، يهوّم فوق مجثمه ، وكانت الحمائم صامتةً في ركنها . وأراحت مصباحها على الوصيد ووقفت أمامي .

ورنت عيناها النجلاوان إلى وجهي وسألت بصوتٍ خفيضٍ : «أأنت بخير ياصديقي ؟ » .

وحاولتُ أن أجيب ولكنّ الكلمات تأبّت عليّ ، وأضحت ضائعة منسيّة .

وفكّرت ثمّ فكّرت عبثاً ، ولم توافِ أسماؤنا الى ذهني .

وتألّقت الدموعُ في عينيها وبسطت لي يدها اليمنى فأمسكتُ بها ، ولبثتُ صامتاً .

وترنّح لهب المصباح ، على هينمة نسيم المساء ثمّ انطفأ .

٦٣

أيّها الرحّالة ، أينبغي أن ترحل ؟

الليل ساجٍ ، والظلمة تمّحي فوق الغابة .

المصابيح تشعّ في شرفتنا والزّهر كلّه يترقرق ريانَ غضّاً ، والعيون الفتيّةُ تستيقظ هادئة .

هل آن وقتُ الظعن ؟

أيّها الرحّالة ، أينبغي أن ترحل ؟

لم نحط بأيدينا الضارعة قدميك .

إنّ أبوابك مشرّعة وجوادك المسرج قائمٌ أمام الباب .

لئن حاولنا أن نعيق مرورك ، لم نعمد الى ذلك بغير أغنياتنا .

لئن حاولنا أن نثنيك عن الرحيل ، لقد توسّلنا الى ذلك بعيوننا فحسب .

أيّها الرحّالة إننا عاجزات عن استبقائك ، وليس لدينا سوى الدموع .

أي لهب لاينطفىء البتّة ، يتألّق في عينيك!

أيّ حمّى قلقة تعدو في دمك!

أيّ نداء من الظّلمات يدفعك!

أيّ رقيّة مخيفة تلوتها ، بين النجوم في السّماء ، حتّى يتّسق لليل أن يتسلّل برسالةٍ مغلقةٍ سرّيةٍ الى قلبك صامتاً غريباً!

إن كنتَ لاتحفل بالمجالس الهازجة بالسّرور ، وكنتَ تتشوّف إلى الهدوء ، واهنَ القلب ، فلسوف نطفىء مصابيحنا ونسكت معازفنا .

سوف نجلس ، هادئات ، في الظلمة ، تحت الأوراق الهامسة ، ولسوف يريق القمرُ المتعبُ أشعّته الشّاحبة فوق نافذتك .

إيهٍ أيّها الرحّالة ، أيّ روحٍ مؤرّقةٍ تناهت إليك من جوف الليل ثمّ لامستك .

٦٤

لقد أنفقت بياض يومي فوق غبار الطّريق اللاسع الحار .

الآن ، في هذا المساء الرطيب ، أقرع باب الفندق الذي أقفز وأمسى خراباً يباباً .

وتُنشِب شجرة (الأشات) الشرسةُ جذورها الغرثى بصدوع الجدران المتشقّقة .

وانقضت أيّام ، كان يقدِم فيها السّابلة الى هنا ليغسلوا أقدامهم المرهقة .

وكانوا يمدّون بسطهم في فناء الدّار ، تحت النّور الواني المنثال من القمر المبكّر ، ثمّ يتّخذون مجلسهم ثمّة ويتحدّثون عن بلادٍ عجيبة .

وكانوا يستيقظون صباحاً ، متوثّبي النّشاط ، وكانت العصافير تملأ أعطافهم بهجةً ويتلع الزهر من عذار الدرب رأسه نحوهم في تحبّبٍ وودٍ .

ولكن لم يستقبلني مصباح منير واحد حين قدمت إلى هنا .

كانت لطخات الدخان السّوداء المخلفة من عديد السهرات تبدو على الجدار كأنها عيون عميٍ .

وترفرف يراعات[1] في الدغل القريب من البركة المجففة ، وتبسط أغصان البامبو ظلالها فوق الدرب المعشوشبة .

لست بضيف أحد في نهاية يومي .

الليل الطويل ، يمتد أمامي ، وأنا متعب .

٦٥

تراه نداؤك الذي يوافي من جديد ؟

لقد أهلّ المساء ، وتشبّث بي التعب كأنه أذرع الحب الضّارعة . أتنادينني ؟

لقد منحتك نهاري كلّه ، ياسيّدتي القاسية ، أتريدين أن تنهبي منّي ليلي أيضاً ؟ ومع هذا ، فإنّ لكلّ شيء نهاية ، وإنّ عزلة الظلام هي ملك كلّ إنسان . ولكن ، أيجب على صوتك أن يمزّقها ويلفحني ؟

---

(١) اليراعة : ذبابة تضيء وهي تطير في الليل .

أليس للسماء موسيقا نوم مهدهدة على بابك ؟
ألا تتسلّق أجنحة النجوم الصّامتة السّماء فوق برجك الجبار ؟
ألا يتهاوى الزهر على تراب حديقتك في ميتة ناعمة ؟
ألا يتعيّن عليك أيّتها القلقة أن تناديني ؟
دعي عيون الحب الحزينة تسهر وتذرف الدمعَ دون جدوى .
دعي المصباح يشتعل في الدّار الموحشة .
دعي الزّورق ينقل الحرّاثين المكدودين الى بيوتهم .
إنني أهجر أحلامي وألبّي نداءَك .

٦٦

كان ثمّة مجنونٌ هيمانٌ بسبيل البحث عن الفلاسفة ، وكان أشعثَ الشّعرِ ، أسفعَ الوجه مغبراً ، ذا جسم هضيمٍ كالطّيف في الرّقة ، وكانت شفتاه مضمومتين كأبواب قلبه المغلقة وعيناه متّقدتين كنور القطرب[1] المضيء يلتمس أنثاه .

وكان البحر ينفسح أمامه هادراً مزمجراً .

وكانت الأمواج المثرثرة لاتأتلي تتحدّث عن الكنوز الخبيئة وتسخر ممّن يجهل ماتعنيه .

لعلّه كان يهيم بلا أمل ، بيد أنّه ظلّ يواصل البحثَ الذي أضحى جذع حياته .

إنه كالبحر اللجّي الذي يعطو أيديه الى السّماء ، دوماً ، ليظفر بما لايمكن الوصول اليه .

---

(١) القطرب : دويبة تضيء في الليل كأنها شعلة .

إنه كالنجوم التي تدور في أفلاكها وتظلّ تنشد هدفاً لايمكن إدراكه البتّة .

هكذا كان المجنون الأغبر الأشعث الشعر يهيم على الشّاطىء المقفر ، بحثاً عن حجر الفلاسفة .

ودنا منه ، ذات يوم طفلٌ من القرية وقال له : « كيف عثرت على هذا الزّنار الذهبي الذي يطوّق خصرك » ؟

وارتعدت أوصال المجنون ، فإنّ هذا الزّنار المصنوعَ من الحديد ، من قبل ، قد تحوّل الى ذهبٍ حقيقي ، أجل ، لم يكن ذاك من وشي الحلم ، غير أنّه لم يذكر قط متى تحوّل الزّنار الحديدي الى ذهب .

وضرب جبينه بضراوة ، أين ؟ آه!! أين ؟ لقد ظفر بطلبته دون أن يدري .

فقد تعوّد أن يلتقط الأحجار ويقدح بها زنّاره ، « ثمّ يرمي بها دون أن يهتم بأن يلقي نظرة الى زنّاره ليرى الى أيّما تحوّل يطرأ عليه .

وهكذا فإنّ ذلك المجنون المسكين قد عثر على حجر الفلاسفة ثمّ أضاعه .

وكانت الشّمس تغوص جانحةً الى مغربها ، وكانت السّماء تشعّ ذهباً .

وعاد المجنون على أعقابه ، باحثاً عن كنزه المفقود ، موهونَ القوى ، مهدود الجسم ، وقلبه ملقىً على التراب كأنه شجرة مجتثّة مقلوعة .

٦٧

مهلاً أيّتها العصفورة ، ياعصفورتي ، أصغي إليّ ولاتطوي جناحيك .

وإن يكن المساء قد هبط بخطا وئيدة وأومأ الى الأغاني كلّها بأن تسكت ،

وإن تكن رفيقاتك قد ذهبن لينعمن بالراحة ، وإن كنت متعبة ، وإن يكن الخوف جعل يعدو في الظّلام ، وإن يكن وجه السّماء قد تقنّع .

مهلاً أيّتها العصفورة ، ياعصفورتي ، أصغي إليّ ولاتطوي جناحيك .

إنّ الظّلام المنتشر ليس بظلام أوراق الغابة ، إنه البحر الذي ينتفخ كأنه ثعبان ضخمٌ أسودُ .

ليس هذا رقص زهر الياسمين ، إنه الزبد المتلألىء .

آه... أين الشّاطئ الممرع المنير ؟ أين عشّك ؟

آه... أيّتها العصفورة ، ياعصفورتي ، أصغي إليّ ولاتطوي جناحيك .

الليل الموحش يتمطّى فوق الطّريق ، والفجر يهوّم خلف الربى الظليلة .

النجوم تمس أنفاسها وهي تعدّ السّاعات ، والقمر الواني يسبح في الليل العميق .

إيهِ أيّتها العصفورة ، ياعصفورتي ، أصغي إليّ ولاتطوي جناحيك .

من أجلك ليس ثمّ أمل ولاخوف .

ليس ثمّ كلام ولاهمس ولانحيب .

ليس ثمّ بيت ولاسرير راحة .

ليس ثمّ سوى جناحيك والسّماء الرحيبة .

إيهِ أيّتها العصفورة ، ياعصفورتي ، أصغي إليّ ولاتطوي جناحيك .

٦٨

ليس هناك حياة تُؤتى الخلود ياأخي . ليس هناك شيء يتاح له البقاء ، اذكر هذا ثمّ متّع نفسك .

إنّ حياتنا ليست ذاك العبء القديمَ ، وطريقُنا ليست طريقَ الرحلة الطّويلة .

على الشّاعر ألاّ يردّد الأغنية القديمة نفسَها .

إنّ الزهرة تصوّح وتموت ، ولكن على من يحمل الزهرة ألاّ يبكيها دوماً .

اذكرْ هذا ياأخي ثمّ متّع نفسك .

ينبغي أن تمرّ فترةُ صمتٍ طويلةٌ ، قبل أن يتمّ نسج لحنٍ كامل .

إنّ الحياة تتلاشى مع غروبها حتّى تفنى في الظّلال الذهبيّة .

يجب أن يدعى الحب من لهوه ، لينهل من الألم ويولد في سماء الدموع .

اذكرْ هذا ياأخي ثمّ متّع نفسك .

إننا نبادر الى قطف الزهر لئلا تجنيه الرياحُ العابرةُ قبلنا .

إنّ مايجعل دمنا يفور وعيوننا تتلظّى ، هو اختلاسُنا القبلات التي قد تُمحى ويفوت أوانها إن أمهلناها .

إنّ حياتنا تتّقد ولذّاتنا تستوفز توقاً الى الزمن الذي يُقرع فيه ناقوس الرحيل .

اذكرْ هذا ياأخي ثمّ متّع نفسك .

ليس هذا أواننا في أن نتعلّق بشيء ونحطّمه ثمّ نرمي به أرضاً ، إنّ السّاعات تُغِذُّ السير مسربلةً بثيابها أحلامَها .

إنّ حياتنا قصيرةٌ ولكنّها لاتهب للحبّ غير أيّام قليلة ، وقد كُتبَ علينا فيها الكدّ ، وقد تُضحي قاسيةً طويلةً الى الأبد .

اذكرْ هذا ياأخي ثمّ متّع نفسك .

إننا نستعذب الجَمال لأنه يواكب في رقصه نفس الوزن الهائم مع حياتنا .

إنّ المعرفة ثمينةٌ لدينا ، إذ لن ينفسح لنا زمن نستطيع فيه أن نتمّها .

كلّ شيء مقدّرٌ له ، في السّماء الخالدة ، أن يخلق ثمّ يزول .

ولكنّ أزاهير الوهمِ الأرضيّة تظل بالموت غضّةً ريّا ، الى الأبد .

اذكرْ هذا ياأخي ثمّ متّع نفسك .

٦٩

إني أقنص الأيلَ الذهبي .

في ميسوركم أن تبتسموا . ، يارفاقي ، ولكنني ألاحق الخيالَ الذي يفرُ منّي .

وأعدو فأفرغُ الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلادٍ مجهولةٍ لأنني أسعى وراء قنص الأيل الذَهبي .

وتقدمون الى السّوق وتبتاعون ثمّ تؤوبون الى بيوتكم مزوّدين بالشرى ، بيدَ أنّ نداء الرياح المشرّدة قد مسّني ، لاأدري متى وأين .

لايحكُّ في صدري أيّ هم ، فكل ما في حوزتي قد خلّفته ورائي بعيداً .

وأعدو فأفرع الربى وأجوز الأودية وأهيم في بلاد مجهولة لأنني أسعى وراء قنص الأيل الدّهبي .

٧٠

أذكر أنني دفعت ، ذات يومٍ من أيّام الطّفولة ، بزورقٍ ورقيٍّ في الجدول .

كان يوماً نديّاً من شهر تمّوز ، وكنت وحيداً سعيداً بلعبتي .

لقد دفعت بزورقي الورقيّ في الجدول .

وعلى حين غرّة ، تجمّع رُكامُ السّحب الداكنة ، وهبّت الرياح النكباء وأسبل المطرُ غدقاً مدراراً .

وانقضت سيولٌ من الماء الوحل ، على الجدول ، فغمرته وأغرقت زورقي .

ومَثُل في خاطري ، ومرارة الأسى في نفسي ، أنّ العاصفة قد تعمّدت أن تهبّ لتكدّر صفو فرحتي وأنّ إساءتها موجّهةٌ إليّ .

إنّ نهار تمّوز الغائم هو اليوم طويل ، وفكّرت في جميع لعب الحياة التي كنت فيها الخاسر دوماً .

وبينما كنت ألوم قدري على صروفه وعبثه بي . تذكّرت فجأة زورقي الذي غرق في الجدول .

٧١

لم يكنّ النّهار قد انقضى ، ولم تُغلقْ سوقُ المعرض ، السوقُ القائمةُ على ضفّة النهر .

كنت أخشى أن يكون وقتي قد تبدّد ، وأن يكون آخر درهم عندي قد فقد .

لا ياأخي ، لقد تبقّى شيء لديّ ، فإنّ قدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء

لقد انتهى البيعُ والشراءُ .

وسُدّدَ الحسابُ كلّه بين كلا الطرفين ، وأزفَ وقتُ عودتي الى البيت .

ولكن ، تُراك تطالب حقّاً بضريبتك ، أيّها الحارس ؟

لاتخف لقد تبقّى شيء لديّ ، فإنّ قدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء .

إنّ هدهدةَ الريح تنذر بالعاصفة والغيومَ المتطامنة في الغرب لاتشي بخير .

وينتظر الماء الهادىء هبوب الريح .

وأخفّ مسرعاً لأجوز النهر ، قبل أن يدهمني الليل .

أيها الملاح ، أتريد أجرك ؟

أجل ياأخي لقد تبقّى شيء لدي فإنّ قدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء .

على حيد الطريق اتّخذ الشّحاذُ مجلسه ، تحت الشجرة ، واأسفاه! إنه يرامق وجهي بأملٍ خجولٍ .

إنه يحسب أنني غني من أرباح النهار .

أجل ياأخي لقد تبقّى شيء لدي ، فإنّ قدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء .
الليل يحلولك والطريق تقفر ، واليراعات المضيئة تتلألأ بين الأوراق .
من أنت يامن تتبعني ، صامتاً ، منسرقَ الخُطا ؟
آهِ إنني أعلم : تلك هي رغبتك في أن تنهبَ منّي جميعَ أرباحي .
لن أخيّبك أبداً .
فقد تبقّى شيء لدي وقدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء .
عند منتصف الليل ، أدرك بيتي ويداي خاويتان .
إنّك تنتظرين ، بعينين واجلتين ، على بابي ، ساهرةً صامتة .
وكعصفورة خجلى ترفرفين حول صدري بوجدٍ مضرمٍ .
أجل . أجل يارب . لقد تبقّى لي شيءٌ كثير ، فإنّ قدري لم يختلسْ منّي كلّ شيء .

٧٢

وفي أيام كلّها عناء متّصلُ أنشأتُ معبداً ، ولم يكن له أبوابٌ أو نوافذُ ، كانت جدرانهُ غليظة ًمبنيّةً بأحجارٍ ضخمةٍ .

ونسيت كلّ شيء سواه ، عازفاً عن العالم كلّه ، وجعلت أتطلّع وأنا مستغرقٌ في التأمّل ، الى الصّورة التي أقمتها على المذبح .

وكان الليل حبيساً في الدّاخل دوماً ، تنيرهُ سُرُجُ الزيت الشذي .

وكان الدخان المتّصلُ المنعقدُ من البخور يملأ قلبي بسحائبه . الثقيلة ونقشتُ على الجدران ، وأنا ساهر ، رسوماً عجيبةً ذات خطوطٍ ملتاثةٍ غريبةٍ ، كصور خيولٍ مجنّحةٍ وزهرٍ بوجوهٍ إنسانيّةٍ ونساءٍ بإهاب ثعابين .

ولم يكن في جوانبه منفذٌ يمكن أن يدخل منه تغريدُ العصافير وحفيف الأوراق أو ضجّة القرية الكادحة .

وكان صدى الرُقى التي كنتُ أرتّلها يتجاوبُ ، وحدَه في الحنايا المظلمة من القبّة .

وأضحى فكري حاداً ثابتاً كاللهب الذّرِب ، وتلاشت حواسي في نشوة .

ولم أشعر كيفِ مرّ الزمنِ ، حتى انقضت الصاعقة على المعبد ، فانغرس الألم في قلبي .

وتراءى السراج شاحباً والرسوم على الجدران كأنّها أحلامٌ مصفّدةٌ ، وبدت ، في النور ، خاليةً من المعنى كأنّها تود أن تتوارى .

ونظرت إلى الصورة القائمة فوق المذبح فرأيت إليها تبتسم وتدبّ فيها الحياة بلمسة الله الحيّة ، أمّا الليل الذي حبسته ثمّة فقد بسط جناحيهَ وغاب .

٧٣

إنّ الثروة غير المتناهية ليست بثروتكِ أيّتها الأرض ، ياأمّي الصّابرة الغبراء .

أنت تكدحين لإطعام أولادك ،ولكنّ الغذاء نادرٌ يسيرٌ .

إنّ الفرح الذي تزجينه إلينا ليس بكامل .

إنّ الدُمى التي تصنعينها لأولادك قصيفةٌ هشّةٌ .

ليس في استطاعتك أن تشبعي نهم آمالنا الجائعة ، ولكن أأجفوكِ وأهجرك من أجل ذلك ؟

إنّ ابتسامتك المظلمة بالألم هي عذبةٌ في عيني .

إنّ حبّك الذي لايعرف الانتهاء هو [illegible]

لقد غذّانا صدركِ حياةً لاخلودا ، وبهذا فإن عينيك ساهرتان دوما .

منذ العصور الخوالي وأنت تنسجين اللون واللحن ، ومع هذا فإنّ جنّتك لم تقم بعد ، إن هي إلا إيحاءٌ حزينٌ .

إنّ كلّ ما أبدعته من طُرف الجّمال مغلّف بضبابٍ من الدموع .
سوف أريق أغنياتي في قلبك الصامت وأريق حبّي في حبّك .
سوف أعبدك في الكدّ والعناء .
لقد لمحت محياك الحنون ، وإنني لأعشق ترابك الباكي ، أيّتها الأرض ، ياأمّي .

٧٤

في محفل الكون ، يقف العود الصّغير من العشب على صعيدٍ واحدٍ من أشعّة الشمس ونجوم منتصف الليل .
ولهذا فإنّ أغنياتي تلتمس أمكنتها في قلب الكون مع موسيقا الغيوم والغابات .
ولكن ثروتك أيها الرجل الغني ليس لها نصيب في العظمة البسيطة المترقرقة من ذهب الشّمس الجذلى ، ولا في الأشعّة الطرية المنثالة من القمر المفكّر .
إنّ بركة السّماء التي تعانق كلّ شيء لاتظلّل ثروتك هذه .
وحين يدركك الموت ، فإنها تشحب وتذوي وتتفتّت في التّراب .

٧٥

عند منتصف الليل ، هتف رجلٌ يتشوّف إلى أن يصبح ناسكاً :
« لقد أزف الوقت الذي أهجر فيه بيتي ، بحثاً عن الله ، آه ، من شدّني الى هنا ، بين الأوهام زمناً طويلاً » ؟ .
وهمس الله : « أنا » . بيدَ أنَ اذنيَ الرجل كانتا موقورتين .

وكانت زوجه مضطجعةً على السرير ، الى جانبه ، في دعةٍ واطمئنانٍ ، وعلى صدرها يغفو طفلٌ صغير .

وقال الرجل : « من أنت يامن مكرتَ بي مليّاً » ؟

وأجاب الصوت قائلاً : « هو اللّه » ولكن الرجل لم يسمع قط .

وبكى الطفل في حلمه وتجمّع قريباً من أمه .

وأمر اللّه قائلاً : « قف أيها المخبول ، لاتهجر بيتك » . ولكنّ الرجل لم يسمع أيضاً .

وتنهّد الله وقال في أسى : « لماذا يحسب عبدي وهو ينأى عنّي أنه يبحث عنّي ؟ » .

٧٦

كانت سوق المعرض قائمةً أمام المعبد ، وكان المطر لايني يهطل منذ الصّباح الباكر ، وكان النهار قد جنح الى الزوال .

وكانت هناك ابتسامةٌ أكثر تألّقاً من جذل جموع النّاس كلّهم ، ابتسامة طفلةٍ صغيرةٍ اشترت بدرهمٍ صفّارةً من سعف النخل .

وكان الصّوتُ المرحُ المنسربُ من هذه الصفارة يطفو على كلّ ضحكةٍ وضجّةٍ .

وقدم جمعٌ غفيرٌ من الناس وأخذ يتدافع ويزحم بعضه بعضاً ، وكانت الطّريق وحلةً ، والنهر طافحاً والسّهل مغموراً بماء المطر المنهمر المتّصل .

وكان هناك غمٌّ أكبر من غموم النّاس كلّهم ، غمُّ طفلٍ صغيرٍ لم يكن لديه درهمٌ يشتري به قصبةً ملوّنةً .

وكانت عيناه القلقتان المتطلّعتان الى المخزن تبعثان الشفقة في قلوب حشد النّاس كلّهم .

٧٧

إنّ العاملَ وزوجَه القادمين من غرب البلاد مشغولان بالحفر وبصنع القرميد ، بغيةَ بناء الفرن .

وتردُ طفلتهما الصغيرةُ ضفّة النهر حيثُ لاتني تغسل القدور والأواني ويتبعها أخوها الصغير الحليقُ الشعرِ الأسمر العريان الملطّخ بالوحل ثمّ يجلس على الضّفة العالية ، وينتظر صابراً ، دعوتها للعودة .

وتؤوب الطفلة الى البيت ، حاملةً على رأسها جرّة ملأى ، ممسكةً بيدها اليسرى قدراً نحاسيّةً برّاقةً وباليمنى يد الطفل ـ إنّها البنت العطوف التي تخدم أمّها ، البنتُ الرزانُ التي تأخذ على عاتقها النهوض بأعباء البيت .

ولمحت ذات يوم ، الطّفل العريان جالساً ، باسطاً ساقيه على الأرض ، وكانت أخته في الماء تفرك ، بقبضة من التراب كوباً ، ثمّ تقلّبه وتديره .

وبدا قريباً منهما خروفٌ ناعمُ الجزّة يرعى العشب على شط النهر .

واقترب من الطفل القاعد ، وفجأة جعل يثغو ثغاءً عالياً ، فارتعدت فرائص الطفل وأنشأ يبكي .

وتركت أخته غسلَ كوبها وخفّتْ اليه .

وأحاطت أخاها بذراعٍ والخروف بذراع ووزّعت بينهما ملاطفتها . جامعةً في الرّابطة نفسها من الحنان ، ولد الحيوانِ وولدَ الإنسان .

٧٨

كان ذلك في شهر مايس وكان قيظُ الظهيرة يبدو متصلاً لا ينتهي ، وكانت الأرض الجافة تلهث في الحر ظمأً ، حين سَكّ سمعي صوتٌ ينادي من عدوْةِ النهر المقابلة : تعالَ يا حبيبي .

وأغلقت كتابي ، وفتحت النافذة مستطلعاً فرأيت ثوراً قريباً من ضفة النهر ، ملطخ الأطراف بالطين ، وهو ينظر بعينيه الصابرتين الوديعتين ، ولمحت طفلاً يخوض في الماء إلى الركبتين يناديه ليغسله .

وابتسمت ، مستظرفاً منظرهما ، وشعرت بعذوبة تنسمُ في قلبي .

٧٩

أسائل نفسي غالباً : ترى الى أيّ مدى خفي يستطيع الإنسان والحيوان الأعجم الذي لم يؤت الكلام ، أن يتعرّف الواحدُ منهما الآخر ؟

تُرى في أيّ فردوسٍ بدائي من فجر الخلق القديم تسعى تلك الدرب البسيطة التي يتجاوز فيها قلباهما ؟

إنّ آثار اتّحادهما الدائم لم تمحِ رغم أن قرابتهما قد عفّاها النسيان .

وعلى حين غرّة تستيقظ الذكرى المبهّمة ، في موسيقا لا ألفاظ فيها ويرامق الحيوان محيا الإنسان في طمأنينة ، ويحدّر الإنسان بصره الى عيني الحيوان ، في حنانٍ مستظرف .

ويبدو الصّديقان وكأنهما يلتقيان متنكّرين ، وكأنّ الواحد منهما يتعرّف رغم تنكّره ، صديقه الآخر .

٨٠

أيّتها المرأة الحسناء . بنظرةٍ من عينيك ، قد تستطيعين ، أن تجني كنز الأغاني التي تهزجُ بها معازفُ الشعراء .

ولكنّك لاتصيخين الى تشبيههم بك ، ولهذا جئتك مادحاً .

قد يكون في ميسورك أن تجعلي أكثر الرؤوس اختيالاً في الكون خاضعةً بين قدميك .

بيد أنّ الذين تؤثرينهم لعبادتك بين محبّيك هم العاطلون عن المجد ، ولهذا فإنني أعبدك .

إنّ ذراعيك الكاملتين قد تقرنان المجد الى الجلال الملكي بلمسةٍ منهما .

ولكنّك تستخدمينهما لكنس الغبار وتنظيف بيتك المتواضع ، ولهذا فإنني أجلّهما وأهابهما .

٨١

آه ، أيّتها المنيّة ، يامنيّتي ، لِمَ تهمسين همساً خفيضاً في أذني ؟

حين يذبل الزهر ، في المساء ، ويعود القطيع الى مراحه ، فإنّك تقدّمين ، خلسةً ، الى جانبي وتتحدّثين إليّ حديثاً لا أفقه معناه .

أتأملين في أن تغازليني وتكسبي ودّي بهمسك المخدّر المنوّم وقبلاتك الباردة ، آه ، أيّتها المنيّة ، يامنيّتي ؟

ترى أيقام احتفالٌ زاهٍ لعرسنا ؟

ألا تنوطين بخصلات شعرك الوحف(١) المصفّف طوقاً من الزهر ؟

أيوجد من يحمل رايتك أمامك ؟ ألا يتلظّى الليل ناراً بشعلاتك الحمر المضيئة ، أيّتها المنيّة يامنيّتي ؟

تعالي ، على هزج قواقعك ، تعالي في ليلة مؤرّقة .

زمّليني بمعطفك القرمزي ، وشدّي على يدي ثمّ خذيني .

---

(١) الوحف : الشعر الكثير الأسود الحسن .

أعدّي أمام بابي مركبتك بجيادها التي تصهل ، نافدة الصّبر ؟
احســري قناعي ثمّ انظري ، في خيــلاء ، إلى وجـهي ، أيهـا المنيّـة ، يامنيّتي .

٨٢

سنذهب ، أنا وزوجيَ الصبيّة ، الليلة ، لنلعب لعبة الموت .
الليل داجٍ ، والغيومُ في السّماء ملولٌ متقلّبةٌ ، وأمواجُ البحر مثرثرةٌ .
لقد هجرنا فراش أحلامنا وفتحنا الباب على مصراعيه ، وخرجنا ، أنا وزوجي .
وركبنا أرجوحةً ودفعتنا ريحُ صرصرُ ، من خلف ، دفعةً ضارية .
وانتصبت زوجي ، فجأة ، في خوفٍ تمازجه لذّة ، وارتجفت ثمّ تعلّقت بصدري .
وجعلت أغازلها ، في حنانٍ ، أمداً طويلاً .
وسوّيت لها فراشاً من الزّهر ، وغلّقت الأبواب ، لئلا يعشي النورُ الباهرُ عينيها .
وقبّلتها ، في لطفٍ ، من شفتيها ، وهمست في أذنيها كلماتٍ رقيقةً حتّى كادت تتلاشى فتوراً .
وغابتْ في ضبابٍ مستديم من العذوبة المبهمة .
ولم تجبْ عن لمسة راحتي ، وانسابت أغنياتي لتوقظها .
لقد قدم الينا الليلةَ ، نداء العاصفة الضاربة .
وارتعشت زوجي ونهضت وتشبّثتْ بذراعي ثمّ خرجنا .
ومـاجَ شـعـرها في الريحِ وخـفقَ خـمـارُها ، وارتعش طوق الزهر فـوق صدرها .

إنّ دفعة الموت ألقت بها في أرجوحة الحياة .
وها نحن أولاء ، وجهي قبالة وجهها ، وقلبي أمام قلبها ، أنا وزوجي .

٨٣

كانت تسكن ، في سفحِ الرابيةِ ، الى جانبِ حقلٍ من الذرة ، قريباً من النبع الذي يتفجّر جداول ، ضاحكةً ، متفيّئةً الظلالَ المهيبة من الأشجارِ الهرمة ، وكانت النساء يردنه ليملأن جرارهن ، وكان المسافرون يستمرئون الجلوس ثمّة ، ليستريحوا ويتجاذبوا أطراف الأحاديث ، هناك... كانت تعمل وتحلم ، كلّ يومٍ ، على هدير الماء المنبجس المتفجّر .

وهبط ، ذات مساء ، رجلٌ من شعفة جبلٍ ملتمعٍ بالغيوم ، وكانت خصلاتُ شعره مجدولةً كأنها ثعابينُ ضخمةٌ ، وسألناه ، وقد أخذنا العجب...! « من أنت ؟ » . فلم يحر جواباً ، بل جلس الى جانب الجدول المثرثر وأخذ يجيل نظراته ، صامتاً ، في الكوخ الذي كانت تسكن فيه ، وألمّ بقلوبنا الخوف ، فعدنا الى البيت ، والليل مرخٍ سدوله .

وفي صباح اليوم التالي ، حين وردت النساء النبع ، ليسقين الماء قرب أشجار (الديودار) ألفين أبواب كوخها مفتوحةً ، ولم يعد صوتها يتجاوب في حناياه ، ترى أين وجهها المبتسم ؟

وكانت الجرة الفارغةُ تتوسّد الأرض ، والمصباح قد استنفد نوره في ركن الحجرة ، ولم يعلم أحدٌ الى أين هربت قبل منبلج الفجر ، وكان الرجل الغريب قد مضى أيضاً .

وفي شهر مايس أضحت الشّمسُ لاهبةً ، وذاب الثلج ، واتّخذنا مجلسنا قرب النبع ، وبكينا وجعلنا نتساءل : تُراها تجد في البلد الذي فزعت إليه نبعاً تملأ منه جرّتها ، في هذه الأيام القائظة اللاهثة ظمأً ؟

وكان الواحد منّا يسأل الآخر في جزعٍ ، تُرى أيوجد بلد خلف هذه الربى التي نعيش في جنباتها . ؟

وكانت ليلةٌ من ليالي الصيف ، وكان النّسيم يهبُّ من الجنوب ، وكنت جالساً في حجرتها المهجورة ، حيث كان المصباح المنطفىء قابعاً ، حين انزاحت الربى أمام عيني ، فجأةً ، وكأنّها ستائرُ قد انحسرت ، آه ، ها هي ذي قادمة . كيف حالك يابنيّتي ؟ أأنت سعيدة ؟ كيف يتاح لك أن تتفيّئي ملاذاً لك تحت منفسح السّماء ؟ واأسفاه إنّ نبعنا لايتسلسل ، ثمّة ، لينقع ظمأك .

وأجابت : «ههنا ترتفع السماء نفسها ، بيد أنّها حرّةٌ من مناجزة الربى لها ، ههنا الجدول نفسه الذي يكبر ويحور نهراً ، ههنا الأرض نفسها التي تتّسع وتنبسط سهلاً » .

وأجبت متنهّداً : «هنا يوجد كلّ شيء ، ولكننا لسنا هنا » .

وابتسمت في أسى وقالت : «إنّكم في قلبي » .

واستيقظتُ وسمعتُ ثرثرة الجدول وهمس شجرة (الديودار) في الليل .

٨٤

فوق حقول الأرز الخضراء والصفراء ، تترادف ظلال غيوم الخريف التي تطاردها الشّمس المغذّة في السير .

وتنسى النحلات أن ترتشف رحيقَ الزهر المعسول وترفرف وتأخذ في الطّنين ، مجنونة ، سكرى بوهج النور .

وفوق جزر النهر تزقو البطّات فرحاً ، دون أن تعلم هناءتها .

ياإخواني ، ليمسك كلّ واحد منكم عن العودة الى البيت ، في هذا الصباح .

فلنفتتح السَماء الزرقاء بزوبعة ، لننهب الأرض نهباً ، ونحن نعدو .
وتطفو الضحكة في الفضاء كأنها الزبد فوق الماء .
ياإخواني لنبدّد صباحنا ، في أغنياتٍ تافهةٍ .

٨٥

من أنتَ ، أيها القارىء ، أنتَ الذي سوف تقرؤني ، بعد مائة عام ؟
ليس في مكنتي أن أبعث بزهرةٍ واحدةٍ من هذا الإكليل الربيعي ، ولابشعاعٍ مذهّبٍ واحدٍ من تلك السحب هناك .
افتح الأبواب وتأمّل في المدى القصيّ .
واجن من حديقتك الزاهرة ، الذكريات العاطرة الفاغمة من الزهر المصوّح منذ مائة عام .
فقد يكون في ميسورك أن تشعر ، والسرور يملأ عطفيك ، بالفرحة الحيّة التي تغنّتْ ، ذات صباح ربيعيّ مريقةً صوتَها الهنيء ، عبر مائة عام .

الهِلال



البيت[1]

سلكتُ وحدي الدرب الممتدّة في الحقل ، فيما كانت الشّمس الآفلة تبدو كبخيلٍ وهي تلملم آخر أشعتها الذهبية .

وكان النهار يغيب ، شيئاً فشيئاً تحت جنحِ الدجى ، وكانت الأرض الجرداء ، تنبسط ، إثر الحصاد ، صامتةً .

وتعالى الى السماء ، بغتةً ، صوتٌ حاد ، صوت طفل كان يدلج في الظّلمة ، مخلفاً أثر أغنيّته في هدأة المساء .

وكان بيته في القرية قائماً هناك ، في نهاية الأرض المبهمة ، وراء حقل قصب السّكر ، مختبئاً بين أفياء أغصان الموز وسعف النخل الهندي الوانية وأشجار جوز الهند والجاك ذات الثمار الحانئة الخضرة[2]

وتوقّفت هنيهة ، في دربي المنعزلة ، تحت ضوء النجوم ، وأجلت بصري

---

(١) في هذه المجموعة الشعرية ، ثلاث قصائد هي : (على الشاطىء) و (النبع) و (متى ولماذا) ، لم نشأ إيرادها . هنا ، لورود هذه القصائد نفسها في المجموعة الشعرية (جيتنجالي) حاملة الأرقام : ٦٠ ، و٦١ ، و٦٢ (المعرّب)

(٢) الخضرة الحانئة : الشديدة الضاربة إلى السواد .

في الأرض المظلمة ، تحضن بذراعيها شتيت البيوت العامرة بالأسرة والمهود ، الآهلة بقلوب الأمّهات ومصابيح المساء ، الزاخرة بنفوس فتيّة تمتلىء أعطافها بفرح لايعلم نفسُه ، مدى قيمته لهذا الكون .

درب الطفل

يتأتّى للطفل أن يطير الى السماء ، إمّا جاذبته هذه الرغبة . ولكنه لايفعل لأنّ لديه مايحمله على ألاّ يغادرنا . أجل ، إنه ليحب أن يوسد رأسه ثدي أمّه ، ولايقوى البتّة على رؤيتها تغيب عن ناظريه .

إنّ الطفل الصغير يحيط بجميع ضروب الكلام السديد ، غير أنّ الذين يدركون معناها في الأرض قلائل .

فليس عبثاً ألاّ يرغب في الكلام .

إنه الشيء الوحيد الذي يتشوّف إليه هو أن يتلقّن كلمات أمّه من شفتيها ، ولهذا يتراءى بريئاً نقيّاً .

إنّ في حوزة الطفل الصّغير أكواماً من الذهب واللآلىء ، ومع ذلك فقد قدم كشحّاذ الى هذه الأرض .

إنّ لديه سبباً يحفزه على أن يقدم في هذا التنكّر .

أجل ، إنّ هذا الشحاذ الصغير الأثير العريان يصطنع العوز الشديد ليتيسّر له أن يطالب أمّه بكنز حبّها .

لقد كان الطفل الصغير حرّاً من أي رباط في هذه الأرض التي يتسامى فوقها الهلال الصغير .

فليس عبثاً أن يتخلّى عن حرّيته .

أجل ، إنه ليعلم أنّ ثمّة مكاناً زاخراً بفرحةٍ ثرّةٍ ، يتّسق في ركنٍ صغيرٍ من قلب أمّه وأنه لأشهى لديه من الحرّية نفسها . أن تشدّه أمّه

وتضمّه بين ذراعيها الحبيبتين .

لم يكن الطفل يعرف البكاء ، كان يسكن أرض الغبطة الكاملة ، فلديه سبب يحمله على ذرف الدموع . أجل ، رغم أنه يداعب بابتسامة من وجهه الحبيب أوتارَ قلبِ أمّه ، فإنّ نشيجه الرقيق المنبثق من آلامه الصغيرة ، هوالذي ينسج بينه وبين أمّه رباطاً مزدوجاً من الحب والرحمة .

الموكب الخفي

إيهٍ ياطفلي ، تُرى من الذي لوّن ثوبك الصغير وغطّى أطرافك الغضّة بهذا النّفاض[1] الصغير الأرجوانيّ ؟

لقد خرجت صباحاً الى فناء الدار لتلعب فوقعت وتعثّرت وأنت تركض ، تُرى من الذي صبغ ثوبك الصغير ياطفلي ؟

ما الذي يحملك على الضحك يابرعم حياتي الصّغير ؟

إنّ أمّك تبتسم لك وهي واقفة في العتبة ، إنها تصفّق لك ، فتهزج أساورها ، وترقص أنت وفي يدك قضيب من شجر المامبو ، كأنّك راعٍ صغير .

ما الذي يضحكك يابرعم حياتي الصغير ؟ .

إيهٍ أيها الشحّاذ ، ماذا تستجدي من أمّك وذراعاك تتعلّقان بعنقها ؟

أيها القلب الجشع ، هل تودّ أن أقطف لك الكون من الفضاء ، كما أقطف ثمرة ، لأضعه في راحتك الصغيرة المورّدة ؟

إيهٍ أيها الشّحاذ ، ماذا تستجدي ؟

إنّ النسيم يحمل ، في جذلٍ ، وسوسةَ خلخالك . والشمس تُرامق زينتك وهي تبتسم .

---

(١) النفّاض : ازار الصّبي .

إنّ السماء تحنو عليك ، ساهرةً ، حين تغفو بين ذراعي أمّك ويقدم الصباح ، منسرق الخُطا ، الى سريرك ليلثم عينيك .

ويحمل النسيم ، في جذلٍ ، وسوسةَ خلخالك .

إنّ الجنّية ملهمة الأحلام قادمة اليك ، وهي ترفرف عبر الغروب ، في السماء .

إنّ الذي يعزف موسيقاه للنجوم ، هو قائمٌ الى جانب نافذتك ، يحمل نايه .

وتقبل اليك الجنّية ملهمة الأحلام ، وهي ترفرف ، عبر الغروب ، في السماء .

سارقة النوم

من الذي اختلس النوم من عينيّ الطفل الصغير ؟ يجب أن أعلم .

لقد اتّخذت أمّه أدراجها الى القرية لتستقي من الماء ، مسندةً جرّتها الى خصرها .

وكان الوقت ظهراً ، وكان الأطفال قد استوفوا لعبهم ، وكان البط ، في الغيضة ، صامتاً .

وكان الراعي الفتى قد أخلد الى النوم متفيّئاً شجرة (البانيان) .

وانتصب الكركي هادئاً زميتاً ، في البركة ، قريباً ، من أجمة شجر العنباء (المانجو) .

في تلك الأثناء ، قدمت سارقة النوم ، وسلّت الغفوةَ من عيني الطفل الصغير ثمّ طارت .

ولمّا آبت الأم الى البيت ألفت الطفل يحبو على أربع في أركان الغرفة .

تُرى من الذي اختلسَ النوم من عيني الطفل الصَغير ؟ ينبغي أن أعلم ، يجب أن أعثر على السّارقة وأكبّلها .

عليَ أن أنظر في ذلك الغار المظلم ، حيث ينساب جدولٌ صغير بين الحصى والصّخور الداكنة .

عليّ أن أبحث بين الظلال المهوّمة في حرج شجر (الباكولا) حيث يهدل الحمام في مجاثمه وحيث تهزج خلاخيل الجن ، في الليالي المتلامحة النجوم .

وفي المساء سوف ألوب عليها خلال الصمت الهامس المخيّم في غابة المامبو حيث تريق اليراعات[1] نورها وسوف أسأل المخلوقات التي ألتقي بها : هلاّ ذكرت لي أين تقيم سارقة النوم ؟

من الذي اختلس النوم من عينيَ الطفل الصغير ؟ ينبغي أن أعلم .

تُرى أيجب أن ألقنها درساً مفيداً إن تيسّر لي أن أمسك بها ؟

سوف أنقضّ على عشّها لأرى أين تكدّس ما اختلست من الكرى .

سوف أوثق جناحيها بقسوةٍ وأضعها على ضفّة النهر ، ثمّ أدعها تلعب بقصبة صيدٍ بين فسائل النيلوفر .

وفي المساء حين ينتهي البيع ، ويفزع الأطفال الى أحضان أمّهاتهم فإنّ طيور المساء سوف تصمّ آذانهن وهي تردّد ساخرةً : تُرى من الذي تختلسين كراه الآن ؟

البداية

سأل طفلٌ صغير أمّه : من أين أتيت ؟ وأين ظفرتِ بي ؟

وأجابتْ أمّه ، يتجاذبها ضحكٌ وبكاء ، ضامّةً طفلها الى صدرها : لقد كنتَ مختبئاً في قلبي ، كنتَ رغبته ياحبيبي .

---

(١) اليراعة : ذبابة تضيء وهي تطير في الليل .

كنتَ بين دُمى طفولتي ، وفي كل صباح ، حين كنت أسوّي من الصلصال تمثالَ ربّي فقد كنتَ أنت الذي أسوّيه ثمّ أنقضه .

كنتَ فوق المذبح الى جانب نصب بيتنا ، وكنتُ أعبدك ، فيما كنتُ أتّجه إليها بعبادتي .

لقد عشتَ في جميع تَعِلاّتي ووجدي ، عشتَ في حياتي ، في حياة أمّي .

إنّ الروح الخالدة التي ترعى بيتنا قد غذّتك ، العمرَ كلّه ، من ثديها .

وحين كان قلبي يفتح ، في ريق صباي ، أفوافه ، فقد كنتَ تغلّفني كالشذا الفاغم منه .

إنّ عذوبتك الناعمة كانت تترقرق في أطرافي الفتيّة ، كأنها الألقة التي تسبق منبلج الفجر في السّماء .

أنت ياحبيب السّماءالأوّل ، أنت ياتوأم شعاع الصباح ،لقد جرفك تيّار حياة الكون حتّى رسوت أخيراً في قلبي .

وبينما كنت أرامق وجهك ، والغموض يسربلني ، أضحيتَ أنتَ ، يامن تخصّ الجميع ، ملكاً لي .

وخشيةَ أن أضيّعك فقد جذبتكَ وشددتكَ الى صدري ، تُرى أيّ سحرٍ قد وهب كنز الدنيا لذراعيّ النحيلتين ؟

دنيا الطفل

كم أودّ لو يتأتّى لي أن أنتبذ ركناً هادئاً من قلب دنيا طفلي .

إنني أعلم أنّ لهذه الدنيا نجوماً تتحدّث إليه وسماءً تتطامن الى وجهه لتسلّيه بقوس قزحها وغيومها العابثة .

إنّ الذين يزعمون أنهم بكمٌ ويصطنعون العجز عن الحركة ، يدلفونَ ،

خلسةً ، الى نافذته ، ليسردوا له القصص ويزجوا اليه أطباقاً حافلةً بدُمى برّاقةٍ .

كم أودّ لو يتأتّى لي أن أسير في الدرب التي يسلكها فكر الطفل الصغير وأضرب فيها بعيداً ، خلف جميع الحدود .

هناك ، حيث يعبر الرسل ، هائمين ، دون غاية ، في ممالك الملوك التي لا تاريخ لها .

هناك ، حيث يتّخذ العقل من قوانينه دميةً طائرةً ثمّ يطلقها في الفضاء ، هناك حيث تحرّر الحقيقة الفعلَ من أغلاله .

ذم

علامَ تترقرق الدموع في عينيكَ ياطفلي ؟

ما أجفى طبعهم وهم لا يألون يؤنّبونك على تافه الأشياء ؟!

لقد لطّخت بالمداد أناملك ووجهك وأنت تكتب ـ ألهذا السبب يدعونك بالقذر ؟

بخٍ ، بخٍ ، أيجرؤون على أن يدعوا البدرَ الكامل بالقذر ، لأنّ وجهه ملطّخٌ بالمداد ؟

إنهم يؤنبونك على تافه الأشياء ، إنهم مستعدّون لإيجاد هفوة لك من العدم .

لقد مزّقت ثيابك وأنت تلعب ، ألهذا السبب يدعونك بالمهمل ؟

بخٍ ، بخٍ ، تُرى بماذا يدعون صباحاً خريفيّاً ، يبتسم من خلال غيومه المهلهلة ؟

لاتولِ اهتمامك الى قالتهم ، ياطفلي ، إنهم يعدون ثبتاً طويلاً ينتظم مساوئك .

كلّ إنسان يعلم مدى كلفك بالحلوى ، ألهذا السبب يدعونك بالنهم!

بخٍ ، بخٍ ، بِمَ يدعوننا إذن ، نحن الذين نحبّك ؟

الحكم

قُلْ عنه مايحلو لكَ ، فأنا أعرف عثراتِ طفلي .

أنا أحبّه لا لأنّه طيب السّريرة ، بل لأنه طفلي الصغير . ماذا تستطيع أن تعلم كيف يتّسق له أن يكونَ أثيراً لديّ ، حين تحاول أن توازن بين حسناته وسيّئاته .

وحين ألجأ الى معاقبته ، فإنه يضحي ، إذ ذاك ، أكبر جزء من كياني .

وحين أجعل دموعه تنهمر فإنّ قلبي يبكي معه .

لي الحق وحدي أن أؤنّبه وأعاقبه ، فلمن يحب ، الحقُ ، وحده ، بأن يعاقب .

الدُّمى

أيّها الطفل ، يالهناءتك وأنتَ تقتعد التراب ، لاهياً بغصنٍ قصيفٍ ، طوال النهار .

إنني أبتسم وأنا أرى إليك تلهو بهذا الغصن القصيف الصغير .

إنني مشغول بإعداد حسابي ، فأظلّ ساعةً ، معنيّاً بجمع الأرقام .

لعلّك أن تسارقني النظرَ ، مفكّراً : أيّ غباوة في إفساد صباحك بهذا الحساب! .

أيّها الطفل ، لقد فقدت فنّ الإهتمام بالعصي والطّين المعجون .

إنني أبحث عن دُمى ثمينةٍ ، فأنا أحتجن أكواماً من الذهب والفضّة .

إنّك تخلق من أيّ شيء تجده دُمى سارّةً ، أمّا أنا فإنني أبدّد قواي ووقتي بحثاً عن الأشياء التي لن أستطيع الفوز بها .

إنني أبذل جهدي في عبور بحر اللذّات بقاربي الهزيل الصغير وأنسى ، فيما أقوم بذلك أنني ألهو بدميتي .

الفلكي

لقد اجتزأت بهذا القول : حين يتسلّل البدر المدوّر مساء بين أغصَان شجر (الكادام) تُرى من يقدر أن يمسك به ؟

ولكنّ (دادا)[1] سخر منّي وقال : لم أرَ ، عمري كلّه ، غبيّاً مثلك ، إنّ البدر لجدّ بعيد عنّا فكيف يمكن الإمساك به ؟

وقلت : يالك من مجنون يا (دادا) أتقدر أن تدّعي بأنّ أمّنا بعيدة عنّا حين تُطلُّ من النافذة وتبتسم لنا ونحن نلعب في فناء الدّار ؟

وأجاب (دادا) : يالك من طفل ساذج!ولكن كيف تستطيع أن تظفر بشبكة تسعَ البدرَ كلّه ؟

وقلت : من المؤكّد أنّك تقدر أن تناله بيديك .

وتهانف (دادا) ضاحكاً ، قائلاً : لم أرَ ، عمري كلّه ، غبيّاً مثلك ، لعلّك أن ترى الى البدر حين يقترب كمْ هو كبير .

وقلت : أيّ هراء تتلقّنه في مدرستك ، أيتراءى وجه أمّنا كبيراً حين تنحني لتقبّلنا ؟

وردّد (دادا) قائلاً : يالك من طفلٍ ساذَج!

غيوم وأمواج

ـ أمّاه ، أولئك الذين يعيشون بين الغيوم يهتفون لي إننا نلعب منذ يقظتنا حتّى ينقضي النهار .

---

(١) (دادا) : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

إننا نلعب مع الفجر الذهبي ونلهو مع القمر الفضّي .

وقلت : كيف أستطيع أن أصل إليكم ؟

فأجابوا : تعال الى طرف الأرض ، وارفع يديك نحو السَماء ، فلسوف تحملك الغيوم .

وقلت : إنّ أمّي تنتظرني في البيت ، فكيف أقوى على مغادرتها والمجيء إليكم ؟

حينذاك ابتسموا ومضوا طائرين .

ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة ياأمّي : سوف أمثّل أنا دورَ السحاب وتمثّلين أنتِ دورَ القمر ، سوف ألفّك بيدي الاثنتين ، وسوف يمسي سقف بيتنا السّماءَ الزرقاء .

أولئك الذين يعيشون بين الأمواج يهتفون لي : إننا نغنّي من الصباح حتّى المساء ونهيم في كلّ مراد . لا ندري أنّى نمر .

وسألت : ولكن كيف السّبيل الى الإجتماع بكم ؟

فأجابوا : تعال الى طرف الشّاطىء ، وقفْ ثمّة ، وعيناك مغمضتان ، فلسوف تحملك الأمواج إلينا .

وقلت : إنّ أمّي تنتظرني ، مساءً ، في البيت ، فكيف أقوى على مغادرتها والمجيء إليكم ؟

حينذاك ابتسموا ورقصوا ثمّ مضوا .

ولكنني أعرف لعبة أمتع من هذه اللعبة ياأمّي : سوف أمثّل أنا دورَ الأمواج وتمثّلين أنتِ دورَالشاطىءالبعيد .

سوف أتقلّب ثمّ أتقلّب حتّى أمسّ ركبتك ، مرسلاً ضحكتي . ولن يعلم إنسان ، في الأرض ، مكاننا ، أبداً .

زهرة الشامبا

افترضي أنني انقلبت ، طلباً للدعابة ، وحُلْت الى زهرة (شامبا) ، ونموت عالياً فوق غصن من هذه الشّجرة ، وجعل النّسيم يهزّني وأنا أضحك وأرقص فوق تفرتها[1] الغضّة ، تُراك تتعرّفين عليّ ياأمّي ؟

لعلّك أن تناديني : ياطفلي الصّغير أين أنت ؟ حينذاك سوف أضحك وحدي وألزم الهدوء .

سوف أفتح ، خلسةً ، أفوافي وأراقبك وأنت منصرفة الى عملك .

وحين تمرّين ، في ظلّ شجرة (الشامبا) ، إثر استحمامك ، وتتّخذين سمتك ، وشعرك المبتل مرسلٌ على كتفيك ، نحو القاعة الصغيرة التي تلهجين فيها بصلواتك ، فلعلّك أن تتنسّمي شذا الزهرة ، ولكنّك لن تعلمي أنه يضوع منّي .

وحين تتّخذين مجلسك الى جانب النافذة ، بعد طعام الغداء ، لتقرأي في كتاب (الرامايانا) ، وظلّ الشجرة يتنقّل بين شعرك وركبتك فلسوف أريق ظلّي الصغير فوق صفحة كتابك حيث تقرأين ، تُراك تحزرين أنّه ظلّ طفلك الصغير ؟

وحين تذهبين ، مساءً ، إلى مربض البقر ، ويدك تحمل السراج المضيء ، فلسوف أتهاوى ، فجأةً ، على الأرض ، وأحول ، مجدّداً ، إلى طفلك الصغير ، وأستعطفك لتروي لي حكاية :

ـ أين كنتَ ياطفلي العاصي ؟

ـ لاأريد أن أذكر لك ذلك ياأمّي .

لعلّ هذا ماقد نردّده كلانا ، آنذاك .

---

(١) التفرة : أوّل مايبدو من ورق الشجر .

أرض الجن

إذا علم الناس أين يقوم قصر الملك ، فسرعان ما يغيب في الفضاء .

إنّ جدرانه مشيّده بالفضّة وسقفه مبني بالذهب البرّاق .

تسكن الملكة قصراً ذا سبعة أفنية ، وتُزهى بجوهرة ، ثمنها ثروة سبع ممالك .

ولكن دعيني أهمس في أذنك ياأمّي وأسألك : أين قصر ملكي ؟

إنه في ركن من سطح بيتنا ، هناك ، حيث يقبع أصيص نبات (التولسي) .

الأميرة ترقد ، مضطجعة ، على الشاطىء البعيد ، شاطىء البحور السبعة ، الممتنعة العبور .

ليس ثمّة إنسان ، في الدنيا ، سواي ، يتأتّى له أن يجدها .

تزدان ذراعاها بالأساور وتتعلّق بأذنيها لؤلؤتان ، وينحدر فرعها ، متموّجاً ، حتّى يلامس الأرض .

سوف تستيقظ حين أمسّها بمخصرتي السحرية ، ولسوف تتهاوى جواهرُ من شفتيها ، حين تبتسم .

ولكن دعيني أهمس في أذنك ياأمّي لأذكر لك بأنّها هناك في ركنٍ من سطح بيتنا حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .

حين يأزف الوقت الذي ترِدين فيه النهرَ لتغتسلي ، فاصعدي الى السطح .

سوف تجدينني ألزم ركناً منه ، هناك ، حيث تتلاقى ظلال الجدران .

لقد أتيح للهرّة الصغيرة وحدها ، أن ترافقني ، لأنها تعلم أين يسكن الحلاق ، في الحكاية .

ولكن دعيني أهمس في أذنك ياأمّي لأذكر لك أين يسكن الحلاق في الحكاية .

إنه مقيم ، في ركن السّطح ، حيث يجثم أصيص نبات (التولسي) .

أرض المنفى

أمّاه لقد أربد النور في السماء ، ولاأعلم ماهو الوقت .

لقد برمت بلعبي ، ولهذا فقد قصدتك . اليوم هو السبت ، يوم عطلتنا .

دعي عملك ياأمّي ، تعالي اجلسي هنا ، قرب النافذة ، وقولي لي أين تمتد صحراء (التيابنتار) التي ذكرتها الخرافة .

إنّ ظلّ المطر قد غطّى كلّ منفسح السماء .

البرق الضّاري يمزّق بمخالبه الفضاء .

وحين تهدر الغيوم ويتهزّم الرعد ، فإنني أحبّ أن أشعر بوجيب قلبي الخائف وأن أتعلّق بك .

وحين يسحّ المطر الغزير طوال ساعاتٍ ، فوق أوراق المامبو وتهتزُّ نوافذنا وتضجُّ ، إمّا جاذبتها الريح ، فإنني أوثر أن أمكث في الغرفة ، ملتزماً جانبك ، وأنت تتحدّثين لي عن صحراء (التيابنتار) التي ذَكَرتها الخرافة .

تُرى أين تمتد يا أمّي ؟ على شاطىء أيّ بحر ؟ في سفحِ أيّ ربوةٍ ؟ في مملكةِ أيّ ملك ، تُراها تنبسط ؟

ـ هناك حيث لاتلفي وشيعاً يفصل بين الحقول ولا درباً تنساب فيها ، درباً تقود الفلاحين الى قريتهم ، مساءً ، أو تقود المرأة حمّالة الحطب اليابس ، من الغابة الى السوق . هناك حيث تمتدّ الرمال ، ينجم في مواضع منها عشبٌ أصفرُ وتنتصب شجرة واحدة عشّش فيها عصفوران حكيمان عجوزان ، أجل هناك ، تنبسط صحراء (التيابنتار) .

في ميسوري أن أتخيّل كيف يمتطي ابن الملك ، في يومٍ غائم كهذا اليوم ، صهوة جواده الرمادي ليجوز الصحراء وحده . بحثاً عن الأميرة المضطجعة الحبيسة في قصر المارد الجبار ، القائم على حيد هذا الماء المجهول .

وحين يحبو ضباب المطر الى الفضاء القصيّ ، وينقضّ البرق كأنه وخزة الألم المداهم ، تُراه يفكّر في أمّه المسكينة التي هجرها الملك ، في أمّه التي تنظّف الحظيرة وهي تكفكف دمعها ، فما يخبُّ به جواده في صحراء (التيابنتار) التي ذَكَرَتها الخرافة .

انظري ياأمّي ، يكاد الظلام أن ينتشر ، قبل أن يتجرّم النهار ، هناك في درب القرية لايسعى أيّ مسافر .

لقد عاد الراعي الفتى من المرعى مبكّراً ، وغادر الرجال حقولهم ليجلسوا فوق شباكهم ، تحت طنوف أكواخهم الصغيرة ، وهم يجيلون أبصارهم في السحب المتوعّدة .

أمّاه ، لقد تركت كتبي على الرف ، حنانيكَ ، لا تسأليني ، اليوم ، إعداد دروسي .

حين أضحي كبيراً كأبي ، سوف أتعلّم كلّ مايجب أن أعرف .

ولكن اذكري لي ، اليوم فقط ، أين تمتد صحراء (التيابنتار) .

اليوم المطير

تجمّعتْ غيوم مكفهرّة ، في خفّةٍ فوق طرف الغابة المظلم .

إيه ياطفلي إيّاك أن تخرج .

إنّ أشجار النخل المصطفة على شاطئ البحيرة ، تتحدر بذراها السماء العابسة وتفيء الغربان ذات الأجنحة المتسخة إلى الصمت فوق أغصان الحناء ، وتخيم ، على الضفة الشرقية ، ظلمة داجية .

إن بقرتنا المربوطة بالوشيع تخور خواراً عالياً .

إيه ياطفلي ابقَ هنا ، ريثما أقودها إلى الحظيرة .

ويتدافع الرجال مزدحمين إلى الحقل المغمور بالماء ، بحثاً عن الأسماك المنزلقة من البرك الطافية ، ويجري الماء المجتمع من المطر ويتفطر إلى سواقٍ منسربة في حدور ضيقة فكأنه طفل ضاحك قد فصل عن أمه وعدا أمامها مازحاً معابثاً .

إصغ إنني أسمع صوتاً يهتف بملاّح المعبر[1] .

إيه ياطفلي لقد غلبت العتمة ، ولم يعد العبور بالمركب متاحاً .

وبدت السماء تركض[2] المطر الجامحة المجنون السريع ، وتراءى النهر الهادر نافد الصبر ، وصدرت النساء ، عجالى ، من نهر الغانج ، بجرارهن الملأى .

ينبغي أن تعد سُرُج المساء .

إيه أيها الطفل إياك أن تخرج .

إن الطريق المفضية إلى السوق مقفرة والدرب المحاذية للنهر زلقة والريح تزمجر هائجة ، بين أغصان المامبو كأنها طريدة ضارية قد وقعت في شبكة .

زوارق ورقية

يوماً بعد يوم ، أدفع بزوارقي الورقية ، واحداً إثر واحد ، في الجدول الجاري .

لقد كتبت عليها ، بأحرف سود كبيرة ، اسمي واسم القرية التي أسكن فيها .

---

(١) المعبر : المركب الذي يعبر به .

(٢) ركض الفارس الجواد : استحثه للعدو .

آملاً أن يلقاها إنسان في أرض غريبة ما ، ويعرف منها من أنا .

لقد أوسقت زوارقي الصغيرة بزهور (الشيولي) المقطوفة من حديقتنا ، آملاً أن يتاح لهذه الزهور ، زهور الفجر بأن تنقل غضة ريّا إلى أرض الليل .

ودفعت زوارقي وشخصت ببصري إلى السماء ، فشمتُ قزعات من الغيوم تنصب أشرعتها البيضاء الحدباء .

لاأدري أي رفيق لي عابث ، في السماء ، يحدر إلى هذه الغيوم نسيماً ، لتجري مع زوارقي .

وحين يجن الليل ، فإنني أدفع رأسي بين ذراعي وأحلم أن زوارقي تمخر ، بعيداً ، بعيداً ، في موهن من الليل تحت أشعة النجوم ، تواكبها جنيات النوم ، متخذةً حمولتها سلالاً ملأى بالأحلام .

الملاّح

لقد رسا قارب الملاح (مادهو) في مرفأ (راجكوني) . وكان محملاً بالقنب ، دون أي طائل ، وظل ، ثمة ، راسياً عاطلاً منذ أمد بعيد .

كم أود لو أنه يعيرني قاربه فإني أزوده بمائة مجداف وأنصب له خمسة أشرعة أو ستة بل سبعة .

ولن أقوده إلى أسواق غبية .

سوف أمخر به الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المنسابة في أرض الجن .

أماه لا تنتبذي ركناً ، لتبكيني في غيابي .

فلم أذهب مثل (رامشاندرا) إلى الغابة ، لأعود منها بعد أربعة عشر عاماً .

سوف آخذ بمدرجة الأمير في الحكاية ، وأوسق قاربي بكل مايطيب لي .

سوف أصطحب صديقي (آشو) وسوف نمخر ، والغبطة ملء أعطافنا ، الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المناسبة في أرض الجن .

سوف ننصب أشرعتنا ، حين يسفر الفجر .

وفي الظهر ، حين يأزف وقت استحمامك في البركة ، نكون قد شارفنا أرض الملك العجيب .

سوف نجوز مخاضة (تيربورني) وندع صحراء (التيابنتار) خلفنا .

وحين نعود ، فلسوف أجد الظلمة توشك أن تنتشر ، ولسوف أحدثك عن كل ما شاهدت .

سوف أمخر الأبحر السبعة والنهور الثلاثة عشر المنسابة في أرض الجن .

الضفة الأخرى

كم أود أن أذهب إلى هناك ، إلى الضفة الأخرى من النهر .

حيث نيطت تلك القوارب بجذوع شجر المامبو ، في صف واحد .

هناك ، يعبر الرجال بقواربهم النهر ، صباحاً ، حاملين على عواتقهم محاريثهم لحرث حقولهم النائية .

هناك ، يدفع الرعاة قطعانهم الخوّارة ، لتسبح إلى المرعى المجاور ،

من هناك يؤوبون جميعاً إلى بيوتهم مساءً ، تاركين الجزيرة الصغيرة الكاسية بالعشب تعوي فيها بنات آوى .

أماه هلاّ سمحت لي بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاحَ المعبر ؟

يقال إن خلف هذه الضفة العالية ، تتوارى برك عجيبة .

إلى هناك تفزع أسراب البط الوحشي ، إثر موسم الأمطار .

هناك تربو فسائل القصب الكثيفة ، على عِذار البرك ، حيث تضع الطيور المائية بيضَها .

هناك ، يخلِّف الدجاج ذو الذيل المتخلِّج ، آثارَ براثنه الصغيرة ، فوق الوحل النظيف .

هناك تدعو ، في المساء ، الأعشاب السوقاء[1] المتماوجة المتوجة بالزهور البيضاء أشعة القمر لتسبح فوقها .

أماه ، هلاّ سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاّح المعبر ؟

سوف أتنقل ، من ضفة إلى ضفة ، وسوف يرامقني ، بإعجاب ، صبيان القرية وبناتها ، وهم يغتسلون .

وحين تستشرف الشمس كبد السماء ويزحل[2] الضحى عن مكانه للظهيرة ، فلسوف أقدم راكضاً إلى أمي وأقول لها : أماه إنني جائع .

وحين ينقضي النهار ، وتجثم الظلال ، تحت الأشجار ، فلسوف أقدم مع الغروب .

ولن أتركك أبداً ، وأقصد المدينة لأكتدح مثل أبي .

أماه ، هلاّ سمحت لي ، بأن أصبح ، حين أكبر ، ملاح المعبر ؟

مدرسة الزهور

حين تنهزم رعود الغيوم العاصفة في السماء ، وتهطل أمطار حزيران .

فإن الريح الشرقية الرطبة ، تنسم عبر أشجار الخلنج ، وتنفخ في مزمارها بين أغصان المامبو .

وحينئذ تتفتح أكمام الزهور ، فجأة ، ولايدري أحد ، من أي مكان قد وافت وتشرع في رقصها ، فرحةً فوق العشب .

أماه ، أعتقد ، أن للزهور مدرسةً ، في جوف الأرض .

(١) السوقاء : الطويلة الساق .

(٢) زحل عن مكانه : زال وتنحى . من فصيح العامية .

إنها تتلقن دروسها ضمن أبواب مغلقة ، وإن رغبت في الظهور قبل الأوان ، فإن معلمها يلزمها بأن تقف في ركن ما .

وحين يقبل موسم الأمطار ، فإنها تحظى بعطلتها .

إن الأغصان تصطفق في الغابة ، وترتعش الأوراق على هبّة الريح النكباء ، وتصفق السحب المرعدة بأيديها الضخمة .

وتنطلق الزهور الطفلة ، بثيابها ، الصبيغة بالحمرة والصفرة والبياض .

ألا تعلمين ياأمي أن مسكنها في السماء ، حيث تقيم النجوم .

ألم تلحظي كيف تتمنى أن تصل إلى هناك .

ألا تعلمين ما الذي يحفزها على العجلة .

أجل ، في ميسوري أن أحزر لمن تمد أذرعتها : إن لها مثلي أماً .

التاجر

تصوري ياأمي ، أنك ستلزمين البيت ، وأنني بسبيل الرحيل إلى بلاد مجهولة .

وتصوري أن زورقي معد في مرساه ، موسق بالحمولة .

والآن ، فكري جيداً ياأمي ، قبل أن تذكري لي ماذا تودين أن أجلبه لك ، في عودتي .

أتريدين ذهباً ، أكواماً من الذهب ؟

هناك ، على ضفاف الجداول الذهبية ، فإن الحقول حافلة بالحصاد الذهبي .

وفي ظلال ممر الغابة تتهاوى زهور (الشامبا) الذهبية على الأرض .

سوف أجمعها كلها لك في مئات السلال .

أماه . أتريدين لآلئَ كبيرةً تماثل قطرات غيث الخريف ؟

سوف أبحر إلى شاطئ جزيرة اللؤلؤ .

هناك ، ترتعش لآلىءُ براقةٌ ، في سدفة الفجر ، فوق زهور المرج ، وتنهمر لآلئُ ، قطرةً ، قطرةً ، على العشب ويتناثر زبد أمواج البحرالهائج ، لآلئَ ، فوق رمل الشاطئ .

سوف أجلب لأخي زوجاً من الجياد المجنحة ، ليطير بين الغيوم .

سوف أجلبْ لأبي قلماً سحريّاً ، يدرج وحده في الكتابه ، دون علم صاحبه .

لكِ أنتِ ياأمّي ، سوف أجلبُ الجوهرة والسفط اللذين بذل سبعة ملوك ممالكهم ثمناً لها .

ودْ

لو أنني لم أكن طفلك ، ياأمّي الحبيبة ، بل كنتُ جرواً صغيراً ، تراكِ تنهينني قائلةً : مه ، إن حاولتُ أن آكل من صحنك! ؟

تراك تزجرينني ، قائلة : اذهب ، أيها الجرو الشرّير .

على رسلك إذن ياأمّي ، على رسلك ، لن آتي اليك حين تنادينني ، ولن أدعك تطعمينني بعد الآن .

لو أنني لم أكن طفلك يا أمّي الحبيبة ، بل كنت ببّغاء صغيرة ، تراكِ تقيّدينني ، خشية أن أطير ؟

تراكِ تتوعّدينني بإصبعكِ قائلة : أيّها الطائر القبيح الذي لاينى ينقر قيده ، في الليل والنهار .

على رسلكِ إذن ، ياأمّي على رسلكِ ، سوف أعدو هارباً الى الغابة ، ولن أدعك تضمّينني بذراعيكِ بعد الآن .

نزهة

حين يدوّي درداب الطبل[1] ، في الصّباح ، عشر مرّات ، وأتّخذ سمتي الى المدرسة .

فإنني ألتقي ، كلّ يوم ، بالبائع ينادي : أساور ، أساور زجاجيّة .

لاشيء يحـمله على حثّ خطاه ، ليس ثمّـة درب عليـه أن يسلكهـا أو مكان عليه أن يقصده ، أو زمان عليه أن يؤوب فيه الى البيت .

كم أودّ أن أصـبحَ بـائعـاً ، أسلخ سـحـابة يومي ، وأنا أجـوب الدروب منادياً : أساور ، أساور زجاجيّة .

وحين أعود من المدرسة ، في الساعة الرابعة ، عصراً .

فإنني أستطيع أن أرى من خلف حاجز هذه الدّارِ الى البستاني وهو يحفر الأرض .

إنه يعمل بمسحاته مايحلو له ويعفّر ثيابه بالتراب ، ليس ثمّ إنسان يؤنّبه إن لوّحته الشمس أو بللته الأمطار .

كم أودّ أن أصبح بستانيّاً ، وأنصرف الى الحفر دون أن يثنيني أيّ إنسان .

وحين تنتشر العتمة ، في المساء ، وتبعث بي أمّي الى السرير .

فإنني أستطيع أن أرى من نافذة مفتوحة الى العسّاس[2] ، غادياً رائحاً .

الطريق مقفرة مظلمة ومصباح الشارع قائمُ كأنّه عملاق ذو عينٍ حمراء واحدة في هامته .

ويرجّح العسّاس سراجه ، ويمشي وظلّه يسعى الى جانبه ولايفيء الى سريره ، عمره كلّه ، مرّةً واحدةً .

---

(١) درداب الطبل : صوته .

(٢) العساس : حارس الليل .

كمْ أودّ أن أضحي عسّاساً ، أجوب الدروب ، طوال الليالي ، وأطارد بسراجي الظلال .

المتعالي

أمّاه ، إنّ طفلتك لحمقاء ، إنها تبدو هُزأةً بعبثها الوليد ، إنّها لاتستبين الفرق بين ضوء الشارع وضوء النجوم .

وحين نلهو بلعبة آكل الحصى فإنها تحسبه طعاماً سائغاً وتحاول أن تضعه في فمها .

وحين أفتح أمامها كتاباً ، وأطلب اليها أن تتعلّم :آ ، ب ، ج ، فإنّها تمزّق بيديها الصفحات ، وتتهانف ضاحكةً ، دون سبب ، هكذا تريد طفلتك الصغيرة أن تتعلّم .

وحين أهزّ رأسي غضباً ، وأؤنبها قائلاً : أيّتها الشريرة . فإنّها تضحك وتحسب ذلك هزلاً .

كلّنا يعلم أنّ أبي غائب ، ولكن ، حين أنادي وأنا ألعب : أبتاه ، فإنها تجيل بصرها عجباً ، وتظنّ أنّ أباها قريب .

حين يقدم الغسّال بحميره لينقل عليها الثياب ، وأتّخذ من حميره طلاّباً لي ، ثمّ أفسّر لأختي أنني معلّم مدرسة ، فإنها تزعق ، دون سبب ، وتناديني : دادا[١] .

إنّ طفلتك الصغيرة تريد أن تمسك بالقمر ، إنها لمضحكة ، إنها تدعو : غانوش بدلاً من غانيش[٢] .

---

(١) دادا : الأخ الأكبر في اللغة الهندية .

(٢) غانيش : اسم متداول في الهند .

الرجل الصغير

أنا صغير لأنني طفل ، سوف أصبح كبيراً حين أصير في عمر أبي .
سوف يقول لي معلّمي : لقد تأخّرت ، أحضر لوحك وكتبكَ .

سوف أجيب : ألا تعلم أنني كبير مثل أبي ؟ ولست بمحتاج الى مزيد من الدروس .

سوف يعجب المعلّم ويقول : في مكنته أن يدع كتبه ، إن أراد ، فقد أضحى الآن رجلاً ، سوف أرتدي ثيابي وحدي وسوف أتّخذ أدراجي نحو المعرض حيث تزدحم جموعٌ غفيرة .

سوف يخفّ عمّي إليّ ويقول لي : أخشى أن تضلّ طريقك يابنيّ دعني أحملك .

سوف أجيب : ألا ترى ياعمّي ، أنني كبيرٌ مثلَ أبي ، أريد أن أذهب الى المعرض وحدي .

سوف يقول عمّي : أجل ، إنه يقدر أن يذهب ، أنّى يشاء ، فقد أضحى الآن رجلاً .

سوف تقبل أمّي من الحمام لتجدني أمنح حاضنتي دراهمَ ، فأنا أعرف كيف أفتح الصندوق بمفتاحي .

سوف تصرخ أمّي وتردّد : ماذا تفعل أيها الطفل العابث ؟

سوف أقول لها : أمّاه ، ألا تعلمين أنني كبير مثل أبي ، وأنّ عليّ أن أهب الحاضنة فضة ؟ .

سوف تردّد أمّي : في مستطاعه أن يمنح دراهم من يودّ ، فقد أضحى رجلاً .

وفي عطلة تشرين الأوّل سوف يعود أبي الى البيت ، حاملاً إليّ من المدينة أحذيةً صغيرة ونُفُضاً حريرية[1] ظانّاً أنني ماأزال طفلاً صغيراً .

---

(١) النفاض وجمعه نفض : أزرار الطفل الصغير .

سوف أقول له : أعطها الى (دادا) إذ إنني رجلاً مثلك .

سوف يفكّر أبي ويقول : في ميسوره أن يشتري ثيابه كما يرغب فقد أضحى رجلاً .

الساعة الثانية عشر

أماه ، إنني أتشوف إلى أن أدع دروسي جانباً ، لقد عكفت على كتبي ، منذ متوع الصباح .

تقولين إن الساعة لا تتجاوز الثانية عشرة ، ولكن ، افترضي أنه لايوجد أي تأخر ، أفلا تستطيعين أن تتصوري أن العصر قد حل ، فيما تشير الساعة إلى الثانية عشرة .

في ميسوري أن أتخيل ، في يسرٍ ، أن الشمس قد لامست طرف حقل الأرز ، وأن الصيادة العجوز تقطف الأعشاب ، لتعدها عشاءً لها ، إلى جانب البركة .

إنني أقدر أن أغمض جفني لأتمثل الظلال ، تزداد قتامة ، تحت أشجار (المادار) ، ويتراءى ماء البركة أسودَ براقاً .

مادامت الساعة قد تشير في الليل إلى الثانية عشرة فعلامَ لايتّسق لليل أن يحل حين تشير الساعة في الظهيرة إلى الثانية عشرة ؟

حرفة الكاتب

تقولين إن أبي يؤلف شتيت الكتب ، بيد أنني لا أفقَه شيئاً مما يخط .

لقد أنفق السهرة كلها ، وهو يقرأ لك ، ترى أتدركين في الحق ، ما يعنيه ؟

أيّ حكايات طريفةٍ تستطيعين أن تقصيها علينا ياأمي ، وإنني لأتساءل ، عجباً ، لِمَ لايكتب أبي مثلها ؟ ترى ألم تقص عليه أمه حكايات المردة والجن والأميرات . ؟

تراه قد نسيها كلها ؟

وفي الغالب ، حين يتلكأ في الذهاب إلى الحمام ، فإن عليك أن تمضي وتناديه مائة مرة .

إنك تنتظرينه وتجهدين في حفظ صحون الطعام ساخنة ، من أجله ، فيما يعكف على الكتابة ، ناسياً كل شيء .

إن أبي يلهو دوماً بتأليف الكتب .

وحين يتفق لي أن أذهب لألهو في غرفته ، تبادرين إلى البحث عني وتدعينني بالطفل العابث .

وحين تتناهى مني أقل ضجة ، تخاطبينني : ألا ترى إلى أبيك وهو يشتغل ؟

أي لذة يستمرنها في أن يكتب ويكتب ويكتب ؟

وحين أمسك بقلمه أو بريشته وأخط في دفتره ، مثلما يفعل : أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، فعلام تسخطين علي يا أمي ؟

إنك لا تنبسين ببنت شفة حين يكتب أبي .

وحين يبدد أبي أكواماً من الورق ، فلا يكرثك ذلك البتة .

ولكن حين أمسك بوريقة واحدة لأصنع منها قارباً ، تقولين : يالك من طفل مضايق!

مارأيك إذن بأبي الذي يخربش في صحائف وصحائف ويملأها بخطوطٍ سوداء في كلا وجهيها ؟

الساعي الشرير

لِمَ تقتعدين الأرض ، هادئة صامتة ؟ قولي لي ، ياأمي الحبيبة .

إن المطر يسحّ من النافذة المفتوحة ويبلّل جسمك كله ، وأنت غير آبهة لذلك .

ألا تسمعين درداب الطب يدوي أربع مرات ، لقد أزف أوان عودة أخي من المدرسة إلى البيت .

ماذا دهاك ؟ لماذا تتراءين كئيبة ؟

ألم تتلقي ، اليوم رسالة من أبي ؟

لقد رأيت الساعي يحمل الرسائل في قمطرة[1] ، ليوزعها على معظم أهالي البلد .

بيد أنه يحتفظ برسائل أبي ، ليقرأها وحده ، إنني لموقن بأن الساعي رجل شرير .

ولكن لاتحزني لذلك ، ياأمي الحبيبة .

ففي غد تقام سوق القرية المجاورة ، اطلبي إلى الخادم أن تشتري لي أقلاماً وورقاً .

سأكتب أنا رسائل أبي كلها ، ولن تجدي فيها خطأً واحداً .

سأخط ابتداءً من حرف الألف إلى حرف الكاف .

ولكن لم تبتسمين ياأمي ؟

ألا تعتقدين أن في ميسوري أن أكتب مثل أبي ، كتابة جميلة ؟

غير أنني سأسطر الورق ، في عنايةٍ ، سأخط الحروف كلها كبيرةً رائعة .

---

(١) القمطر : ماتصان فيه الرسائل والكتب

وحين أنتهي من كتابة رسالتي ، أفتظنين أنني سآخذ بمدرجة أبي المخبول فأرمي بالرسالة في قمطر هذا الساعي البغيض .

سأحملها أنا إليك ، دون انتظار ، سأعينك على قراءة خطي ، حرفاً فحرفاً .

إنني أعلم أن هذا الساعي لا يود أن يحمل إليك الرسائل الرقيقة .

البطل

أماه ، لنتصور أننا ماضيان في الرحيل وأننا نضرب في أرض عجيبة محفوفة بالمخاطر .

أنت تسعين في حداجتك[1] وأنا على صهوة كميت يخب إلى جانبك .

الشمس تجنح إلى المغيب ، إنه المساء . وتمتد مفازة (جواردي‌غي) جهمة غبراء ، في منسرح نظرنا ، وتنفسخ البيداء مقفرة جرداء .

وتفكرين واجفة ، وتتساءلين : لاأدري أين وصلنا ، وأقول لك ، أماه ، لاتخافي .

المرج مكسو بالأعشاب الشائكة ، تعدو في بعض أطرافها دربٌ ضيّقةٌ مهشمة .

وفي المدى الوسيع ، لايبين أي قطيع ، فقد عادت القطعان إلى حظائرها في القرى .

الحلكة تنتشر ، والظلمة تغزو الأرض والسماء ، ونحن لاندري أنّى ندلج .

وتناديني ، فجأة ، وتسأليتني بصوتٍ خفيضٍ : ماهذا النور الذي يشع قرب الشاطئ ؟

---

(١) الحداجة : هودج تركب فيه المرأة .

في تلك اللحظة يدوي زئير مخيفٌ ، وتهرول أشباح نحونا .

وتتمسكين بحداجتك وترددين أسماء الله ، في دعائك .

ويفزع الحمالون ، إلى أجمة شائكة ، وقد ارتعدت فرائصهم ، فَرَقاً ورعباً .

وأصرخ : لاتفزعي ياأمي ، فأنا هنا .

ويتقدم المغيرون ، شيئاً فشيئاً ، وقد بدوا شُعْثَ الشعور ، شاهرين في أيديهم العصي الطويلة .

وأصرخ : احذروا أيها الأشرار ، إن خطوة واحدة تنتهي بكم إلى الردى .

ويتعالى مجدداً ، زئيرهم المخيف ، ويتقدمون إلى الأمام .

وتشدين على يدي وتقولين : بحق السماء ياطفلي الحبيب ابتعد عنهم .

وأقول : سترين ما أنا فاعل بهم .

وأهمز جوادي وأركضه في تقريب[1] هائجٍ ، وسيفي وترسي يقعقعان معاً .

وتدور معركة رهيبة ياأمي ، قد تبعث في أطرافك الرعدة ، لو يتسنى لك أن تشاهديها من حداجتك .

ويلوذ أكثرهم بالفرار ، ويُضحي بعضهم قطعاً ممزقةً .

وأعلم أنك تفكرين وأنت جالسة منفردة ، بأن طفلك قد لقي ، ولا بد مصرعه ، إذ ذاك .

ولكنني أقدم إليك ، مخضباً بالدماء ، وأقول لك : أماه لقد انتهت المعركة .

وتهبطين من حداجتك ثم تقبلينني وتضمينني إلى صدرك وتتساءلين تُرى ماذا كنت أفعل لو لم يرافقني طفلي ؟

---

(١) تقريب الجواد : عدوه .

تقع ، كل يوم ، آلاف الحوادث العقيمة ، فلِمَ لا يتفق لمثل هذا الحادث أن يحظى بأن يكون حقيقة واقعة ؟

لعله أن يشابه قصةً في كتاب ، وقد يعلق عليه أخي : تُراه ممكناً ؟ إنني أتمثله جدّ طريف .

وقد يردد أهالي القرية جميعاً : أليس من حسن الطالع ، أن يكون هذا الطفل إلى جانب أمه ؟

النهاية

أفد الترحل ياأمي ، فأنا ذاهب .

حين تمدين ذراعيك ، في الغلس[1] الشاحب من الفجر المنزوي نحو وليدك في السرير ، سوف أقول لك : ليس طفلك هنا ، أماه أنا ذاهب .

سوف أحول الى زفرة طريّة من النسيم تداعبك ، سوف أحوّل الى غضون الماء حين تستحمّين فيه فألثمك وألثمك .

وحين يجلد المطر ، في الليالي العاصفة أوراقَ الشجر ، سوف تسمعين وأنت في السّرير همسي ، وسوف تشعُ ضحكتي مع البرق ، وتنسرب من النافذة المفتوحة الى غرفتك .

وحين تأوين الى مضجعك وينقضي هزيعٌ كبيرٌ من الليل وأنت تفكّرين في ابنك ، فلسوف أغنّي لك من ذُرى النجوم : نامي ياأمّي نامي ، ولسوف أتدحرج على أشعّة القمر الهائمة حتّى أشارف سريرك وأضطجع على صدرك وأنت نائمة .

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .

سوف أنقلب الى حلم وانزلق من أجفانك المنفرجة حتّى أصل الى أغوار نومك ، وحين تستيقظين وتجيلين طرفك حواليك ، وأنت مرتعشة ، فلسوفَ أنسلّ من الظلمة ، مرفرفاً ، كأنني يراعة مضيئة .

وفي عيد (بوجا) الكبير حين يقدم أطفال الجيران ليلعبوا ، في فناء لدار ، سوف أذوب في موسيقا الناي وأخفق في قلبك ، سحابة اليوم .

سوف تقدم خالتي الطيّبة ، حاملة هدايا عيد (بوجا) وسوف تسألك : ين طفلك ياأختي ؟

سوف تقولين لها في رقّة : إنه في إنسان عينيّ ، إنه في جسمي ، إنه في روحي .

النداء

كان الليل داجياً حين مضت ، وكانوا مستغرقين في سبات .

الليل حالك ، الآن ، وإنني أناديها : عودي يا حبيبتي فإنّ الكونَ غافٍ ، وقد لايدري أحد إن قدمتِ لتمكثي فترة قصيرة ، فيما تتلامح النجوم .

لقد مضت ، حين كانت الأشجار مبرعمةً ، وكان الربيع في ريعان شبابه .

إنّ الأزهار منوّرة ، الآن ، وأناديها : عودي ياحبيبتي ، الأطفال يقطفون الأزهار ، ثمّ يبعثرونها في غمرة لهوهم الغافلة ، وإن عدت وتناولت زهرةً صغيرةً ، فلن يشعر أحد بفقدانها .

إنّ الذين كانوا يلهون مايزالون يستمرئون اللهو ـ فما أكثر ماتبدّد الحياة!

وأصغي الى لغوهم ، وأقول : عودي ياحبيبتي ، فإنّ قلب أمّك يطفح

بالحبّ ، حتّى حفافيه ، فإن عدت واختلست منها قبلة واحدة ، فلن ينفّسَ بها على أمّك أيّ إنسان .

طلائع الياسمين

آه ، يالهذا الياسمين ، هذا الياسمين الأبيض! أحسبني مازال أذكر اليوم الأوّل الذي ملأت فيه ذراعيّ بهذا الياسمين ، بهذا الياسمين الأبيض .

لقد شغفتُ بنور الشّمس ، بالسّماء ، بالأرض الخضراء .

لقد تناهى الى سمعي الخرير الناعم من النهر المترقرق في ظلمة منتصف الليل .

لقد سعى الخريف وغروب الشّمس إلى لقائي ، عند منعطف الطريق ، في العزلة المنزوية ، كعروسٍ تحسر عن خمارها لتستقبل حبيبها .

لما تزل ذاكرتي معطّرةً ، بطلائع الياسمين الأبيض الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

لقد مرّت في حياتي أيّامٌ رغيدةٌ ، ولقد ضحكت ، مع اللاهين ، في ليالي الأعياد .

وفي الأصباح المربّدة الممطرة ، جعلت أنغّم شتى الأغاني الوانية .

لقد أحطت عنقي بطوق مسائي من زّهر الباكولا ، مضفورٍ بيد الحب .

لما تزل ذاكرتي معطّرة بطلائع الياسمين الريّان الذي ملأت به ذراعيّ ، حين كنت طفلاً صغيراً .

شجرة البانيان

ياشجرة البانيان ، أنت ياذات الذروة المشعّثة ، التي تنتصبين على ضفّة البركة ، تُراك نسيت ذلك الطفل الصغير ، كما نسيت العصافير التي عشعشت فوق أغصانك ثمّ هجرتك ؟

ألا تذكرين كيف كان يتّخذ مجلسه قرب النافذة ، ليتأمّل في جذورك المتشابكة الناشبة في الأرض .

سوف ترد النساء البركة ، ليملأن جرارهن ، وظلّك الكبير الأسود يرتجف على صقال الماء ، كأنه النعاس الذي يغالب اليقظة .

كانت أشعّة الشمس تتراقص فوق الماء الجعد كأنها مكوكٌ دقيقٌ لايألو ينسج بساطاً من ذهب .

وكانت بطّتان تسبحان قريباً من الضفّة المعشوشبة ، وكان الطفل يجلس ، هادئاً مفكّراً .

كان يتمنّى أن يصبح الريح التي تهبُّ بين أغصانك الهامسة ، أن يصبح ظلّك الذي يتطاول مع امتداد النهار فوق صفحة الماء ، أن يصبح عصفوراً يحطُّ فوق أعلى غصنٍ لك ، ثمّ يستدفُّ[1] ، كهاتين البطّتين ، بين الأعشاب والظلال .

بركة

باركْ هذا القلب ، هذه الروح البيضاء التي ظفرت بقبلة السّماء ، من أجل الأرض .

---

(١) استدف الطائر : طار قريباً من الأرض .

إنه يحبّ نور الشّمس ، يحب نظرة أمّه إليه .
لم يتعلّم بعد ، أن يحتقر التراب وأن يطمع بالذهب ، ضمّه الى قلبك وباركه .
لقد جاء الى هذه الأرض المتشعّبة الى مائة مفرق طريق .
لاأدري كيف اختارك من بين الجمع الغفير ،وكيف قَدِمِ الى بابك ، وصافح يدك ، طالباً أن تهديه طريقه .
سوف يتبعك ، ضاحكاً ، لاغياً ، لاتنسّم في قلبه أيّ ريبة .
احتفظ بثقته ودلّه على الطريق القويمة وباركه .
أبسط يدك فوق رأسه وادعُ بأن ينساق النسيم اليه ، من العلاء ، مهما ارتفعت الأمواج متوعدة ، ليملأ أشرعته وينحو به الى مرفأ الأمان .
لاتنسه وأنت تمضي مسرعاً . دعه يقدم الى قلبك ثمّ باركه .

الهدية

أودّ أن أقدّم إليك هدية ياطفلي ، فإنّ تيّار الكون يجرفنا .
سوف تهفو حياة كلّ منّا في سبيل لها وسوف يضحي حبّنا منسيّاً .
ولكنني لست من الحمق ، بحيث أتمنّى أن أشتري بهداياي ، قلبك .
إنّ حياتك لغضةُ الشباب ، وإنّ طريقك لطويلةٌ ، وإنّك لتنهل المحبّة التي نزجيها إليك في جَرعةٍ واحدةٍ ثمّ تدور على عقبيك وتعدو بعيداً عنّا .
إنّك منصرف الى لعبك مع لدّاتك ، فأي ضير إن لم تولنا وقتاً أو تفكيراً .
وفي الحق إننا لنستطيب أن نحصي ، في شيخوختنا أيّامنا الغابرة وأن نعطف في قلوبنا على مافقدته أيدينا .
إنّ النهر يجري سريعاً ، وهو يغنّي ، ويحطّم أمامه السّدود كلّها ، ولكنّ الجبل القائم الحالم بذكرياته ، يتابعه بوجده .

أغنيتي

سوف تلفّك أغنيتي بنغمتها ، ياطفلي ، كأنها أيدي الحب العاشقة .
سوف تلامس أغنيتي جبينكَ كأنها القبلة المباركة .
وحين تضحي وحيداً ، فلسوف تجلس الى جانبك ، وتهمس في أذنيك .
وحين تغيب بين جموع الناس فلسوف تحميك بسياج من العزلة .
سوف تصبح أغنيتي كجناحين لأحلامك ، ثمّ تنحو بقلبك الى حدود المجهول .
سوف تضحي كنجمٍ أمين ، في العلاء ، حين يغلّف الليل الحالك دربَك .
سوف تسكن أغنيتي الى أجفانك ثمّ تحمل نظرتك الى قلب الأشياء .
وحين يلوذ صوتي بالصّمت . في الموت ، فلسوف تتردّد أغنيتي في قلبك الحي .

الطفل الملاك

إنّهم يصيحون ويقاتلون ، يحكُّ في صدورهم الشّكّ واليأس ، إنهم لايعرفون نهاية لمنازعاتهم .

دع حياتك ياطفلي ، تتألّق بينهم ، كشعلةٍ من ضياء سنّي نقي ، دعهم يفزعوا ، مبهورين ، الى الصّمت .

إنهم قساةٌ في جشعهم وحسدهم ، إنَ كلماتهم كمِدى خبيئةٍ ظمأى الى الدّم .

إذهب الى هذه القلوب المعذّبة ، وقف بينها ، واحدر اليها نظرتك الرقيقة ، كالسلام الرحيم المتطامن من المساء الى كفاح النهار .

دعهم ينظروا الى وجهك ياطفلي ، ليتأتّى لهم فهم معنى الأشياء كلّها ، دعهم يحبّوك ، ليحب بعضهم بعضاً .

تعال واجلس في قلب اللانهاية ياطفلي ، وحين ينشقّ الفجر ، افتَح قلبك وارفعه كزهرةٍ منوّرة ، واحن رأسك حين تغرب الشمس ، وتمّم في صمتٍ ، عبادة النهار .

العقد الأخير

ـ ألا من يستخدمني لديه!

هذا ماكنت أردّده ،عالياً ،في الصباح ،وأنا أسير في الطّريق المعبّدة الحجرية .

ومرّ ملك مستقلاً مركبته ، في يده سيفه .

وأمسك بيدي ، ثمّ قال : إنني أستخدمك ، على أن أدفع أجرتك ، مشاركتك لي في سلطاني .

ولكن سلطانه لم يكن يحتوي على شيء ، ومضى بمركبته .

وفي الظهيرة القائظة ، كانت أبواب الدور القائمة مغلقةً .

وأخذت ، أضرب ، هائماً ، في دربٍ ملتوية .

وتقدّم شيخ يحمل سفطاً مليئاً بالذهب .

وفكّر ثمّ قال :إنني أستخدمك على أن أنقدك أجرتك من مالي .

وجعل يعدّ نقوده ، قطعة ، قطعة ، ولكنني انكفأت راجعاً .

وكان الوقت مساءً ، وكان وشيع الحديقة كلّه مزهراً .

وتقدّمت الفتاة الوسيمة وقالت : إنني أستخدمك ، على أن أمنحك أجرتك إبتسامةً .

غير أنّ ابتسامتها شحبت ، واطّردت دموعها ، باكيةً ، وعادت ، وحدها وغابت في الظلام .

وكانت الشمس تتألّق فوق الرمال وكانت الأمواج تتلاطم جامحةً .

وكان ثمّة طفل جالس ، يلهو بالأصداف .

ورفع رأسه وبدا كما لو أنه يعرفني وقال : إنني أستخدمك ، على أن أدفع شيئاً ، أجرةً لك .

ومنذ أن تمّ الإتّفاق على هذا العقد الذي جرى فيما كنت ألهو مع طفل ، فقد أصبحت رجلاً حرّاً .

دَوْرة الربيع



تمهيد

شخصيّات التمهيد

الملك ـ الوزير ـ الجنرال (بيجوي فارما)
السفير الصّيني ـ الحكيم (سروتي بوشان)
الشّاعر (كابي شيكار) ـ حجاب ، حاشية ،
رسول بشير .

(يتألّف المسرح من مستويين ، أعلاهما ـ ويقع في الخلف ـ مخصّص لمنشدي المقدّمة الغنائيّة ، ومسدلٌ عليهما ستارٌ قرمزي . وأسفلهما يتراءى ، حين ينحسر ستار المسرح .

في زاوية المسرح الأسفل ، ومن أقصى يساره ، أعدّ بلاط الملك ، وقام ، على نشزٍ ، عرش ذو مظلّة ، وقد انفسح صدر هذا المسرح ، لأداء التمثيل واطّراده) .

(يدخل بعض أفراد الحاشية)

(أسماء المتكلّمين ليست مذكورة ، على الهامش ، إذ يمكن حزرها في يسر) .

ـ صه . صه .

ـ ما الأمر ؟

ـ لقد استبد بالملك ضيقٌ كبير .

ـ ياللهول!

ـ منِ الذي يزمّر ، في النّاي ، هناك ؟

ـ لماذا ؟ ما الأمر ؟

ـ إنّ الملك لفي قلقٍ شديد .

ـ ياللهول!

ـ ماذا يفعل أولئك الأطفال الطائشون الذين يثيرون هذه الضجّة ؟

ـ إنهم من أسرة (ماندال) .

ـ اذن قلْ لأسرة (ماندال) أن تحمل أطفالها على الهدوء .

ـ تُرى الى أين مضى الوزير ؟

ـ هأنذا ، ما الأمر ؟

ـ ألم تتأدّ الى سمعك الأخبار ؟

ـ لا ، أيّ أخبار ؟

ـ إنّ الملك مضطرب الفكر أشدّ الاضطراب .

ـ حسنٌ ، لقد تناهى إليّ بعض الأخبار الهامة حول حرب الحدود .

ـ الحرب ؟ إنّ في ميسورنا أن نظفر بها ، ولكن ليس في وسعنا أن نظفر بالأخبار .

ـ ثمّ إنّ السفير الصيني ينتظر مقابلة جلالة الملك .

ـ دعه ينتظر ، إنه لايستطيع ، على أي حال ، أن يرى الملك .

ـ لايستطيع أن يرى الملك ؟ ـ آه ، وبعدُ ، فها هو ذا الملك ، انظر اليه ، قادماً في هذه الطريق حاملاً بيده مرآة . «ليحيَّ الملك حياة مديدة» .

الـوزيـر : لعلّه يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أنّ وقت ذهابه الى البلاط قد أزف .

الـمـلـك : أزف وقت الذهاب ؟ أجل ، أزف وقتُ الذهاب ، ولكن لا إلى البلاط .

الـوزيـر : ماذا يعني صاحب الجلالة ؟

الـمـلـك : ألم تسمع ؟ إنّ الناقوس قد رنّ ، اللحظةَ ، مؤذناً بصرف حاشية البلاط .

الـوزيـر : متى ؟ أيّ ناقوس ؟ إننا لم نسمع أيّ ناقوس .

الـمـلـك : كيف يكون في مكنتكم أن تسمعوا ؟ لقد قُرع الناقوس في مسمعي وحدي .

الـوزيـر : أوه يا مولاي . لايمكن لأحدٍ أن تبلغ به الصفاقة أن يفعلَ ذلك .

الـمـلـك : أيها الوزير إنّه يُقرع الآن .

الـوزيـر : عفواً مولاي ، إن كنتُ كثيرَ الغباء ، بيد أنني لاأقدر على الفهم .

الـمـلـك : انظر الى هذا ، أيها الوزير ، انظر الى هذا .

الـوزيـر : انظرْ الى شعْر صاحب الجلالة ؟ . .

الـمـلـك : ألا تستطيع أن تلمح ، ثمّة ، قارعَ ناقوس ؟

الـوزيـر : أوه ، يا صاحب الجلالة ، أيمزح جلالته ؟

الـمـلـك : ليس المزاح من شأني ، ولكن من شأنِه (هو) ذاك الذي يمسك بالعالم كلّه من اذنه ، ويتّخذ منه هُزأةً له . ليلة أمس ، فيما كانت الملكة تطوّق عنقي بعقد من ياسمين ، صرختْ فزعةً : « أيها الملك . ما هذا ؟ ههنا ، خلف اذنك ، شعرتان شائبتان » .

الـوزيـر : أوه حنانيك يا مولاي ، لاتدعَ القلقَ يستحوذ عليك ، من أجل شيء بسيط كهذا ، ماذا! حكيم البلاط...

الـمـلـك : أيها الوزير ، لقد كان لمؤسّس أسرتنا المالكة حكيمٌ أيضاً ، ولكن أي شيء يستطيع أن يفعل ؟ إنّ الموت قد ترك بطاقةَ دعوته خلف اذني ، لقد ودّت الملكة أن تقتلع الشعرات البيضَ ، ههنا وههنا ، ولكنني قلت لها : «أيتها الملكة ، ماذا يجدي هذا كلّه ؟ إنّ في ميسورك أن تستبعدي دعوة الموت ، ولكن ، أيكون في ميسورك أن تستبعدي الموتَ الداعي ؟» ، هكذا... أمّا الآن...

الـوزيـر : أجل يا مولاي ، أمّا الآن ، فلننصرف الى العمل .

الـمـلـك : العمل ؟ أيها الوزير ، لا ينفسح لي وقتٌ للعمل استدع لي الحكيم (البانديت)[1] ، استدعِ (سروتي بوشان) .

الـوزيـر : ولكن ، مولاي ، الجنرال...

الـمـلـك : الجنرال ؟ ـ لا ، لا ، لا أبغي الجنرال ، استدعِ الحكيم .

الـوزيـر : ولكنّ ، أخبار الحدود...

الـمـلـك : أيها الوزير ، لقد تناهت إليّ الأخبار من آخر الحدود وأعظمها كلّها ، من حدود الموت ، استدعِ لي الحكيم .

الـوزيـر : ولكن... إذا شاء صاحب الجلالة أن يمنحني لحظةً ، فإنّ السفير القادم من لدن امبراطور الصين العظيم...

الـمـلـك : أيها الوزير إنّ أكبر الأباطرة قد بعث إليّ بسفارته ، استدعِ (سروتي بوشان) .

الـوزيـر : حسنٌ يامولاي ، ولكنّ حماك...

الـمـلـك : ليس حموي بالذي أرغب في رؤيته الآن ، استدعِ الحكيم .

الـوزيـر : ولكن لعلّه أن يروق لك أن تصغي إليّ هذه المرّة : إنّ الشاعر

---

(١) البانديت : في الهندية الحكيم الذي يزاول الحكمة والطب معاً .

(كابي شيكار) ينتظر، حاملاً كتابه الجديد (حديقة الشعر) .

الـمـلـك : دعْ شاعركَ يمتّع نفسه ، لاهياً ، متسلّقاً عَذباتَ الأغصان من حديقة شعره ، ولكن استدعِ الحكيم .

الـوزيـر : حسنٌ يامولاي ، سأطلب إليه القدوم فوراً .

الـمـلـك : قل له أن يصطحب معه كتَابه في الصّلوات المسمّى (اوقيانوس الزهد) .

الـوزيـر : أجل يا مولاي .

الـمـلـك : ولكن ، أيها الوزير ، من هم هؤلاء الذين يثيرون هذه الضجّة كلّها ؟ اخرج واطلب اليهم أن يلتزموا الصمتَ فوراً ، ينبغي أن أنعمَ بالهدوء .

الـوزيـر : إنْ راقَ لصاحب الجلالة أن يعرف ، أنّ مجاعة كبرى قد انتشرت في (ناجاباتان) ، وأنّ رؤساء القوم في القرى يرجون أن يسمح لهم برؤية محياك .

الـمـلـك : إنّ زمن عمري لقصير ، أيها الوزير ، ينبغي أن أنعمَ بالهدوء .

الـوزيـر : إنهم يقولون أنّ زمن أعمارهم لأقصر ، وإنهم ماثلون أمام باب الموت ، إنهم يتشوّفون أيضاً الى الهدوء ، الهدوء بإطفاء حرقة الجوع .

الـمـلـك : أيها الوزير إنّ حُرقة الجوع لتطفأ ، أخيراً ، على المحرقة الجنائزيّة .

الـوزيـر : إذن فهذه الرعيّة الشقيّة...

الـمـلـك : شقيّة! إصغِ إلى نصيحة ملك شقي يزجيها الى رعيّتة الشقيّة : إنه لمن العبث أن ينفدَ صبرُ المرء ، وأن يحاول التملّصَ من شبكة الصّيّاد القاسي ، فإنّ الموت ، هذا الصّياد ، سوف يظفر عاجلاً أم آجلاً بصيده .

الـوزيـر : حسنٌ وبعدُ ؟

الـمـلـك : عليّ بالحكيم وبكتابه (اوقيانوس الزهد) .

الـوزيـر : وفي هذا القحط...

الـمـلـك : أيها الوزير ، إنّ القحط الحقيقي هو قحط الزمن لا قحط القوت إننا نتألّم جميعاً من جوعنا الى الزمن ، وليس ثمّة أحدٌ قد ظفر بما يكفيه منه ، لا الملك ولا شعبه .

الـوزيـر : وإذن...

الـمـلـك : إذن ، فاعلم أنّ التماسنا مزيداً من الزمن سيكون مصيره لهيب الدينونة ، فلماذا نقسر صَوتنا على الدعاء ؟ آه ، ها هو ذا ، أخيراً (سروتي بوشان) ، اليك تحيّتي...

الـوزيـر : أيها الحكيم ، هلاّ قلتَ للملك إنّ إله الحظ يتخلّى عمن يدع سبيلاً للكآبة أن تستبدّ به .

الـمـلـك : (سروتي بوشان) . ماذا يهمس وزيري في أذنك ؟

الحكـيم : إنه يسألني ، أيها الملك ، أن أرشدك الى طُرُق الحظ .

الـمـلـك : أي إرشاد تستطيع أن تزجيه ؟

الحكـيم : ثمّة رباعيّة في كتابي ، كتاب الصلوات ، تترادف على هذا النحو :

ألا إنّ حظ ابن آدمَ يبدو ... سريعَ التقلّب ، لا يستقرْ

كزهرةِ لوتسَ ، تهفو شروداً ... فطوراً تقرُّ ، وطوراً تفرْ

وينهبُ ، في الغد ، ماكان أعطا ... هُ أمس ، ويلعبُ لعبَ القدرْ

فكلُّ اعتقادٍ بحظٍ جنونٌ ... وكلُّ اعتمادٍ على الحظّ شرْ[1]

---

(١) آثرنا نقل الرباعيات شعراً ، أخذاً بمدرجة الشاعر طاغور الذي نظمها في الانكليزية شعراً ملتزمين بذلك ما التزمه الشاعر نفسه حين نقل المسرحية من البنغالية الى الانكليزية . (المعرب)

الـمـلـك : إيهٍ أيها الحكيم ، إنّ خفقةً ناسمةً من تعاليمك لتطفىء شعلةَ الجشعِ الزائفةِ ، لقد قال معلّمنا : «إنّ الأسنان لتتساقط ، وإنّ الشعرَ ليخطّه الشيب . ومع ذلك فإنّ الإنسان ليتعلّق بالأمل الخدّاع الذي يلهو به» .

الحكيم : حسنٌ أيها الملك ، مادمت قد عرضت ، الآن ، لموضوع الأمل فذرني أقدّم اليك رباعيّةً أخرى من (اوقيانوس الزهد) ، وإنها لتترادّف على النحو التالي :

ونعلمُ أنّ القيودَ تشدّ جميعَ الأناسي ، فوقَ الثرى
ولكن قيد التّعلّة يبدو كأعجبِ قيدٍ يغلّ الورى
فكل ابنِ انثى أسيرُ بقيدٍ من الأمل الحلو ، رهنُ العنا
ولا يجدُ الأمنَ إلا متى تحطّم وأنفكّ قيدُ المنى

الـمـلـك : آه أيها الحكيم ، إنّ كلماتك لثمينةٌ . أيها الوزير ، انفحه ، على التو ، مائةَ دينارٍ ذهبيّة ، ماهذه الضجّة في الخارج ؟

الـوزيـر : إنهم جوعى القحط .

الـمـلـك : قل لهم أن يلزموا الهدوء .

الـوزيـر : دع (سروتي بوشان) يذهبْ ويحاولْ ، بكتاب الصلوات ، أن يحملَ اليهم الهدوءَ ، فيما يكون في ميسور صاحب الجلالة أن يبحث في شؤون الحرب .

الـمـلـك : لا ، لا ، دع شؤون الحرب تقبل فيما بعد ، ليس في مقدوري أن أدع (سروتي بوشان) يمضي .

الحكيم : أيها الملك ، لقد عرضتَ في حديثك ، منذ هنيهةٍ ، لعطيّةٍ من ذهب ، ولكن الذهب ، في حد ذاته لايتيح أيّ فائدة مستديمة فقد جاء في كتابي عن الصلوات المسمّى (اوقيانوس الزهد) :

ومن يهب الذهبَ اللامعا يهبْ ألماً دائماً موجعا
ومن ينفق الذهبَ الساطعا يتحْ للندامةِ أن ترجعا
وسيّان من شاءَ إنفاق بَدْرةْ ومن شاءَ إنفاقَ عشرين بدرةْ
فهذا يؤوبُ ويسفحُ عَبرةْ وذاك يعودُ ويمنّى بحسرةْ

الملك : آه أيها الحكيم ، ياللمعنى الشهي! إذن أنت لاترغب في أيّ ذهب ، يا معلّمي ؟

الحكيم : لا . أيها الملك ، لا أرغب في الذهب بل في شيء أكثر بقاءً منه ، في شيءٍ قد يجعل فضلكَ باقياً أيضاً ، لعلّي أن أكون سعيداً جدّاً ، إن وهبتَ لي مُلْكَ (كانشانبور) فقد جاء من أجل هذا في كتاب الزهد...

الملك : لا ، أيها الحكيم ، لقد فهمتُ جيداً ، لستَ بمحتاجٍ الى أن تستشهد بالكتاب ، دعماً لمطلبك فقد فهمتُ أحسنَ الفهم .
أيها الوزير...
أنظر في أمر جعل مقاطعة (كانشابور) مُلْكاً للحكيم ـ ماذا يجري الآن في الخارج ؟ لِمَ يصرخون ؟

الوزير : إن راق لصاحب الجلالة أن يعلم : إنهم جموع الشعب .

الملك : لِمَ لا يأتلون يصرخون ؟

الوزير : إنّ صراخهم لا يني يتردّد ، إنني أسلّم بهذا ، غير أنّ السبب يظلّ نفسه ، على نحوٍ رتيبٍ دائمٍ : إنهم جوعى .

الحكيم : ولكن أيها الملك ، ينبغي أن أفضي إليك بشيء قبل أن أنساه : إنّ الرغبةَ الوحيدةَ التي تجاذب زوجي ، هي أن تدعَ جسدها كلّه ، من رأسها الى أخمص قدميها ، يَهزَجُ مسبّحاً بجودك ، ولكن... واأسفاه إنّ الرنين الذي يخلص منها جدّ خفيض ، لأنها عاطلةٌ من الحلي .

الـمـلـك : إنني أفهمك أيها الحكيم . أيها الوزير! استوصِ ، حالاً ، على حليٍ من صائغ البلاط ، لتوهب لزوج (سروتي بوشان) .

الحكيم : أيها الملك ، هلاّ قلتَ للوزير ، فيما يقوم بما طلبت إليه ، إننا كلينا مضطربان في صلاتنا ، بسبب ترميم الدار ، دعه يطلب إلى بنّائي البلاط أن ينشئوا ، بإتقانٍ ، داراً حسنةَ البناء ، يتيسّر لنا فيها القيام بصلواتنا ، في هدوءٍ وأمنٍ .

الـمـلـك : حسنٌ أيها الحكيم . أيها الوزير!

الـوزيـر : أجل ياصاحب الجلالة .

الـمـلـك : قُمْ بهذا الأمر ، على التو .

الـوزيـر : مولاي ، إنّ خزينتك خاويةٌ عاطلةٌ من المال .

الـمـلـك : أفٍ ، إنها لقصّة قديمة اسمعها كلّ عام . عليكَ أنت أن تزيد في المال ، وعليّ أنا أن أوسّع في الإنفاق ، ماذا تقول في ذلك يا (سروتي بوشان) ؟

الحكيم : أيها المليك ، ليس في مُكنتي أن ألزمَ الوزير ، إنه يهتم بثرواتك في الدنيا ، فيما نهتم نحن بثرواتك في الآخرة ، لهذا فحيثما يرى هو نقصاناً نرى نحن سعةً وغنىً . والآن ، إنّ تركتني أغوصُ ، مرّةً أخرى ، في أعماق (اوقيانوس الزهد) ، فلسوف تجد مكتوباً فيه مايلي :

فحيث يجودُ المليكُ بمالِ   تكون الخِزانةُ في خيرِ حالِ

الـمـلـك : أيها الحكيم ، إنّ صحبتك لا تُقدّرُ بثمن .

الـوزيـر : يا صاحب الجلالة ، إنّ (سروتي بوشان) ، يعرف مدى قيمته وإن شارفت دانقاً واحداً . تعال يا (سروتي بوشان) ، هلّم نحتجن كلّ الثروات التي تحتاج اليها ، لتعمّر خزينة صلواتك . إنّ للثروة عادةً قبيحةً ، عادةَ التناقص السريع ، فإن لم نبادر

لجمعها ، فلن يتبقّى سوى النزر اليسير ممّا يكفي للحفاظ على الزهد في تمام روعته .

الحكيم : أجل أيها الوزير ، دعنا نمضِ ، على التو ، (يخاطب الملك) مادام يصطنع مثل هذه الجلبةِ ، من أجل أمرٍ تافهٍ كهذا ، فالأولى أن يُشرع بتهدئته ، ثمّ أعود إليك بعد ذلك .

الملك : أيها الحكيم ، أخشى أن تتخلّى ، ذات يوم عن حمايتي الملكية نهائيّاً ، لتفزعَ الى عزلتكَ في الغابة .

الحكيم : أيها الملك ، مادمتُ أجد الهناءةَ والدعةَ ، في قصر الملك ، فإنه صالحُ لي صلاحَ صومعةٍ لراحتي الفكرية ، عليّ أن أغادرك ، أيها الملك الآن . أيها الوزير! هيّا بنا .

(يخرج الوزير والحكيم)

الملك : إيهٍ يا ربّي العزيز ماذا أفعل ؟ ها هو ذا الشاعر قادمٌ ، أخشى أن يحملني على تحطيم عزيمتي كلّها ، إيهٍ يا شَعري الشائب ، غطّ اذني على نحوٍ ، لايتسنّى لكلمات الشاعر المضَلّلة ، أن تنسرب الى مسمعي .

الشاعر : أيها الملك ، ما الأمر ؟ أسمع أنّك تريد أن تصرف شاعرَكَ .

الملك : ماذا أتوقّع من الشعراء ، حين يحمل إليّ الشعرُ رسالةَ الرحيل ؟

الشاعر : أيّ رسالة رحيل ؟

الملك : انظر إلى هذا ، خلف اذني ، أفلا تلمحه ؟

الشاعر : ماذا أرى ؟ شعراً شائباً أيها الملك ، لايأخذنّك القلق من أجل هذا .

الملك : أيها الشاعر ، إنّ الطبيعة تحاول أن تسلبني اخضرارَ الشباب وأن تصبغَ كلَ شيءٍ بلون البياض .

الشاعر : لا ، لا ، أيها الملك ، إنّكَ لم تفهم الفنان ، فعلى مدى هذا القاعِ الأبيض سوف تضفي الطبيعةُ ألواناً جديدة .

الملك : لمّا ألمحْ بعدُ أيَّ أثرٍ للألوان .

الشاعر : إنها ماتزالُ كامنةً ، ففي قلب اللون الأبيض تكمن ألوانِ قوسِ قزح كلّها .

الملك : أوه أيها الشاعر ، هلاّ هدأتَ ، إنّك تهيّج الاضطراب في عطفيّ حين تتحدّث على هذا النحو .

الشاعر : أيها الملك ، إن جعل هذا الشباب يُصَوّحُ فدْعهُ يُصَوّحْ . إنّ ملكةً أخرى للشباب مقبلةٌ إليك ، إنها تضع على رأسك إكليلاً من الياسمين رجاة أن تضحي عروساً لك ، إنّ مهرجان الزفافِ يهيّأ ويُعدّ خلف الستار .

الملك : أوه ، أيها الشاعر العزيز ، إنّك تشيع الاضطراب في كلّ شيء إمضِ من هنا ، هيه أيها الحاجب ، هناك ، اذهب فوراً ، واستدعِ (سروتي بوشان) .

الشاعر : ماذا ستفعل معه ، أيها الملك ، حين يقدم ؟

الملك : سأهيبُ بفكري أن يثوب إلى الهدوء وسأمارس زهدي .

الشاعر : آه أيها الملك ، حين سمعت هذه الأخبار ، قدمتُ على الفور ، ليكونَ في استطاعتي أن أكون رفيقكَ في ممارسةِ الزهد .

الملك : أنتَ ؟

الشاعر : أجل أنا ، أيها الملك ، إننا نحن الشعراءَ نوجد ، لهذا الهدف الحق : أن نحرّرَ البشرَ من أهوائهم .

الملك : لا أفهم ماتقول ، إنّك تتكلّم ألغازاً .

الشاعر : كيف ؟ ليس في مقدوركَ أن تفهمني ، في حين كنتَ تُنْفِقُ الوقتَ في تلاوة قصائدي . إنَ في كلماتنا لزهداً ، وإنَ في

قريضنا لزهداً ، وإنّ في موسيقانا لزهداً . لهذا كلّه فإنّ الحظَّ يهجرنا ، ونحنُ أيضاً نهجره ، إننا نسعى ، طوال اليوم الى تلقين الشبيبةِ الطقوسَ المقدّسةَ ، طقوسَ الحظ المهجور .

الـمـلـك : وماذا تقول لنا هذه الطقوس ؟

الشـاعـر : إنـها تـقـول : « إيهٍ ، أيـهـا الأخوة ، لا تـتـعلّقـوا بخيـراتـكـم ورياشكم ، ولا تنتبذوا دوماً ، ركناً من حجرتكم ، اخرجوا ،
اخرجوا الى العالم الرحب ،
اخرجوا الى سُبل الحياة ،
اخرجوا ، أيها الزاهدون الشباب » .

الـمـلـك : ولكن أتعني أيها الشاعر ، حقّاً ، أنّ العالم الرحب هو طريق الزهد ؟

الشـاعـر : لِمَ لا أيها الملك ؟ في العالم الرحب ، كلُّ شيءٍ هو الحياة ، كلُّ شيءٍ هو الحركة ، إنّ من يتحرّك دوماً متنقّلاً ، مع حركة الحياة هذه ، راقصاً يزمّر في نايه ، ساعياً في كلّ مضطربٍ من الأرض هو الزهدُ الحقيقيّ ، هو المريدُ الحقيقي للشاعر الرائد .

الـمـلـك : ولكن كيف يتاح لي أن أظفرَ بالأمن ؟ ينبغي أن أحظى بالأمن .

الشـاعـر : أوه أيها الملك ، لا تخالجنا أقلُ رغبةٍ في الأمن . إننا الزاهدون .

الـمـلـك : ولكن ألا يجب علينا أن نبحث عن الكنز الذي يقال إنه لا يتغيّر البتّة ؟

الشـاعـر : لا ، إننا لانطمع في أيّ كنز لايتغيّر البتّة ، إننا الزاهدون .

الـمـلـك : ماذا تعني ؟ أوه أيها الشاعرُ العزيزُ ، إنّك لتشوّش كلّ شيءٍ إن جعلتَ تتحدّث هكذا ، إنّك تودي بأمن أفكاري ، نادِ (سروتي بوشان) ، أطلب الى أحدٍ ما أن يستدعي الحكيم .

الشـاعـر : اليكَ ما أعنيه أيها الملك : إننا الزاهدون الحقيقيّون ، لأنّ التغيّر

هو سُرّنا الحقيقي ، إننا نخسر رجاةَ أن نجد ، إننا لا نؤمن بالذي لا يتغيّر البتّة .

الملك : ماذا تعني ؟

الشاعر : ألم تلاحظ انعتاق النهرَ المندفع وهو يعدو مزبداً ، من كهفه الجبلي . إنه يهبُ لنفسه الإنطلاقَ ففي هذه اللحظة وحدها ، يجد نفسه...
إنّ الشيء الذي لايتغيّر البتّة ، بالنسبة للنهر ، هو رملُ الصحراء حيث يغيب .

الملك : آه ، ولكن إصغِ أيها الشاعر ، إصغِ الى هذه الأصوات في الخارج ، إنه عالمك ، فماذا تفعل به ؟

الشاعر : أيها الملك ، إنه شعبُك الساغب .

الملك : شعبي ؟ أيّها الشاعر! لِمَ تدعوه كذلك ؟ إنه شعب العالم ، لا شعبي ، هل خلقتُ أنا شقاءه ؟ قل لي ماذا يستطيع شعراؤك الشباب الزاهدون أن يفعلوا ، ليواسوا آلاماً كهذه ؟

الشاعر : إننا وحدَنا ، نستطيع حقّاً أن نبلو هذه الآلام ، لأننا كالنهر الذي يتدفّق ، فرحانَ جذلانَ ، وكذلك نخفّف عبئنا وعبء العالم ، ولكنَ الطريق الوعثاءَ المحصوبةَ لا تتغيّر البتّة وبهذا فإنها تجعل العبءَ أكثر وقراً ، إنّ الأحمالَ الثقيلة تئنّ وتصرّ ، في مدى الطريق ، وتحزُّ جروحاً رغيبةً في الصدور ، إننا نحنُ الشعراءَ ، ندعو كلّ إنسانٍ أن يحملَ أفراحه وأتراحه في هينةٍ ، وعلى نغمٍ موزونٍ . إنّ نداءنا هو نداءُ الزاهدين .

الملك : آه أيها الشاعر ، الآن ، لاأعني نفسي بـ (سروتي بوشان) فليُشنق الحكيم نفسه ، ولكن أتدري أيّ قلقٍ يُحكُّ في صدري الآن ؟ قسماً بحياتي ، إنّ موسيقا كلماتك ، وإن لم أفقه

معناها ، لتملؤني اضطراباً ، والأمر مع الحكيم يتّخذ سبيلاً أخرى مخالفةً تماماً ، إنّ كلماته واضحةٌ وضوحاً كافياً ، خاضعةً خضوعاً صحيحاً لقواعد الإعراب ، ولكن النغم... لا ، لا فائدةَ من المضي في التحدّث إليكَ أكثر من هذا...

الشاعر : أيها الملك ، إنّ كلماتنا لا تتكلّم بل تغنّي .

الملك : حسنٌ ، أيها الشاعر ، ماذا تودّ أن تفعل الآن ؟

الشاعر : أيها الملك ، أنا ذاهب ، لأنطلق عبر هذا الصراخ الذي يتعالى وراء بابك .

الملك : ماذا تعني ؟ ، إنه غوث الذين أصابتهم المجاعة يقع على عاتق رجال الأعمال وليس للشعراء شأن بأمورٍ كهذه .

الشاعر : أيها الملك ، إنّ رجال الأعمال يقومون بعملهم دون انسجام ، ولهذا فإننا نبادر ، نحن الشعراءَ لنجعل هذا العملَ منسجماً .

الملك : تعالَ ، الآن ، يا شاعري العزيز ، وتحدّث بكلامٍ جليّ .

الشاعر : أيها الملك ، إنهم يعملون لأنّ عليهم أن يعملوا ، أمّا نحن فنعمل لأننا مُدَلّهون بالحياة ، ولذا فإنهم يأخذون علينا ، أننا غير عمليّين ، ونأخذ عليهم أنهم فارغون من الحياة .

الملك : ولكنْ من منكم على صواب أيها الشاعر ؟ من منكم الظافر ، أنتم أم هم ؟

الشاعر : نحن أيّها الملك ، نحن الظافرون دوماً .

الملك : ولكن مابرهانك على ذلك أيها الشاعر ؟

الشاعر : أيها الملك ، إنّ أعظم الأمور في الدنيا ليستهين بالبرهان ، ولكن إن استطعت أن تزيل من الدنيا لأمدٍ ما ، الشعراء كلّهم وقريضَهم كلّه ، فسرعانَ ماتكتَشف ، بغيابهم نفسه ، من أين يمتح رجال الأعمال حيويّتهم ومن هم الذين يمدّون ، في

الواقع ، حصادَ حقولهم بنسغ الحياة . إنهم ليسوا بأولئك الذين استغرقوا في قراءة كتاب الحكيم (اوقيانوس الزهد) ولا بأولئك الذين يتشبّثون بثرواتهم دوماً ، ولا بأولئك الذين أضحوا مهرةً ، إذ يؤدون أصنافاً شتّى من العمل ، ولا بأولئك الذين يلهجون بواجباتهم الجافة ، لا ، ليس هؤلاء هم الذين يظفرون في النهاية بل أولئك الذين يحبّون لأنهم يحيون ، هؤلاء هم الذين سيؤتى لهم الغلاب حقّاً ، لأنهم يذعنون حقّاً ، إنهم يرضون بالألم بجماعِ قواهم ، ويزيلونَ الألم بجماعِ قواهم ، إنهم همْ الذين يبدِعون ، لأنهم يعرفون سرّ الفرحة الحقيقيّ الذي هو سرُّ الزهد .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر ، إن كان ماذكرتَ هكذا ، فماذا تطلب إليّ أن أفعل الآن ؟

الشاعر : أطلبْ اليكَ ، أيها الملك أن تنهض وتتحرّك ، إنّ الصراخ الذي يتناهى من الخارج هو صراخ الحياة للحياة ، فإن لم تتحرّك الحياة في أعماقك ، متجاوبةً مع ذلك النداء ، فثمّة سبب يستدعي الخوف حقّاً ، لا لأنّ الواجب قد أهمل ، بل أنّك بسبيل الى الموت .

الملك : ولكن... من المؤكّد أنّ علينا أن نموت ، عاجلاً أمْ آجلاً ، أيّها الشاعر .

الشاعر : لا ، أيها الملك ، إنه لكذبٌ ، حين نشعر على نحوٍ مؤكّدٍ بأننا نحيا ، فإننا نعرف على نحوٍ مؤكّدٍ، أننا ماضون في الحياة والعيش ، أمّا الذين لمْ يُخضِعوا الحياةَ لمحكّ التجربة ، في السُبُل الممكنة كلّها ، فهم الذين لايأتلون يصرخون : «الحياة منقضية ، الحياة ذابلة ،

الحياة شبيهة بقطرة ندى فوق ورقة لوتس » .

الـمـلـك : ولكن أليستْ الحياةُ متقلّبة ؟

الـشاعـر : إنها لكذلك ، لأنّ حركتها متّصلةٌ دائبةٌ ، فاللحظة التي توقّف فيها أنت هذه الحركة ، هي اللحظة التي تشرع أنت فيها بأداء مأساة الموت .

الـمـلـك : أيها الشاعر ، تُراكَ تقول الحقيقة ؟ أحقّاً أننا سنستمرُّ في الحياة ؟

الـشاعـر : أجل إننا سنستمرُّ في الحياة .

الـمـلـك : إذن فإنّ علينا ، إن استمررنا في الحياة ، أن نجعلها جديرةً بالخلود أليس كذلك ؟

الـشاعـر : أجل ، حقّاً .

الـمـلـك : إيهٍ أيها الحاجب .

الحاجب : أجل ، يا صاحب الجلالة .

الـمـلـك : ادعُ الوزير حالاً .

(يدخل الوزير)

الـوزيـر : فيمَ يرغب جلالتك ؟

الـمـلـك : بحقّ الأرض أيها الوزير لِمَ جعلتني أنتظر طويلاً ؟

الـوزيـر : كنتُ مشغولاً جداً ، ياصاحب الجلالة .

الـمـلـك : مشغولاً ؟ بأيّ شيء كنتَ مشغولاً ؟

الـوزيـر : كنتُ مشغولاً بدعوةِ الجنرال الى الإنصراف .

الـمـلـك : لِمَ صرفتَ الجنرال ؟ لقد كان علينا أن نناقشَ معه قضايا الحرب .

الـوزيـر : كان عليّ ، إلى ذلك ، أنْ أعدّ التدابيرَ اللازمةَ لسفر السفير

الصيني رسمياً .

الملك : ماذا تعني بسفره رسمياً ؟

الوزير : لعلّه يروقُ لصاحبِ الجلالة أن يعلم ، أنه لم يُسْمحْ له بمقابلة ، لهذا فإنّه...

الملك : أيها الوزير ، إنّك تثير عجبي ، أهكذا تدير أمور الدولة ؟ ماذا دهاك ؟ هل فقدتَ صوابك ؟

الوزير : أضفْ الى ذلك ، يا مولاي ، أنني كنت أحاول أن أجد وسيلةً لهدم دار الشاعر . لم يشأ أحدٌ ، في البدء ، أن يقوم بذلك ، وأخيراً فإنّ جميع حكماء المدرسة الملكيّة لتعليم النحو والمنطق ، قدموا بأدواتهم وشرعوا في العمل .

الملك : أيها الوزير ، تُراكَ جُننتَ في هذا الصباح ؟ أتهدم دار الشاعر ، ولِمهْ ؟ إنّ في وسعكَ إذن أن تقتل كلّ الطيور في الحديقة ، لتُعدّ منها حَشْوَ الفطائر .

الوزير : إذا راق لصاحبِ الجلالة ، فليس ثمّة ضرورة لإزعاجه ، لن نعمد الى هدم الدار فإنّ (سروتي بوشان) قرّر استملاكها لنفسه حين سمع بأنها ستهدم .

الملك : ماذا أيها الوزير ؟ إنّ هذا لأسوأ بكثير ، إنّ آلهة الموسيقا قد تحطّمُ معزفَها على رأسي ، إن سكّ سمعها خبرٌ كهذا .

الوزير : ثمّة شيء آخر ، ينبغي القيام به ياصاحب الجلالة ، علينا أن نهبَ للحكيم مقاطعةَ (كانشانبور) .

الملك : لا ، أيها الوزير ، أيّ خطأ تقترف! ينبغي أن تصير المقاطعة الى شاعرنا .

الشاعر : إليّ ، أيها الملك ؟ لا ، إنّ شعري لايقبل مكافأةً البتّة .

الملك : حسنٌ ، حسنٌ ، دع الحكيمَ يستأثر بها .

الـوزيـر : وأخيراً يا مولاي ، فقد أنهيتُ الى الجنود أوامرَ بأن يفرّقوا الشعب الجائع .

الـمـلـك : أيها الوزير إنّك لاتفعل سوى الخطأ ، إنّ السبيلَ المثلى لتفريقِ الشعب الجائع الساغب هي تفريقه بالقوت لا بالقوّة .

(يدخل الحاجب)

الحاجب : أيسمح صاحب الجلالة ؟

الـمـلـك : ما الأمر أيها الحاجب ؟

الحاجب : لعلّه أن يروق لصاحب الجلالة أن يعلم أنّ (سروتي بوشان) الحكيم ماثلٌ هنا ، لقد جاء مصطحباً (كتاب الصلوات) .

الـمـلـك : أوه ، أوقفه أيها الوزير أوقفه ، سيبثُّ البلبلةَ في كلّ شيء ، لا تدَعه يَقْدمَ إليّ هكذا ، فجأةً ، ففي لحظةِ ضعف يمكن أن ألفي نفسي وقد أصبحتُ غريقاً في أعماق (اوقيانوس الزهد) ، أيها الشاعر ، لاتدع لي وقتاً أحمل فيه على هذا الأمر ، افعل شيئاً ما ، أيَّ شيء . ألديك شيءٌ معدٌّ تقوم به ؟ أيّ ملهاة ؟ أيّ قصيدة ؟ أيّ حفلة مقنّعة ؟ أيّ...

الـشـاعـر : أجل أيها الملك ، أعددتُ الشيءَ اللازمَ ، ولكن لا أستطيع أن أقول أهوَ مأساة ، أم قصيدة أم حفلة مقنّعة .

الـمـلـك : تُرى أيكون في وسعي أن أفهم ماكتبت ؟

الـشـاعـر . لا ، أيها الملك ، إنّ ما يكتبه الشاعر لا يرمي الى أن يتضمّن معنىً ما .

الـمـلـك : إذن فإلامَ يرمي ؟

الـشـاعـر : إلى أن يتضمّن الجرسَ الموسيقيَ نفسه .

الـمـلـك : ماذا تعني ؟ ألا يتضمّن ما ينظّمه فلسفةً ما ؟

الـشـاعـر : لا ، لا يتضمّن ذلك والحمد لله .

الـمـلـك : إذن ، فماذا يقول هذا الشعر ؟

الـشـاعـر : إنه يقول : « إنني موجود » . أتعرف معنى الصرخة الأولى التي يطلقها الطفل الوليدُ ؟ إنّ الطفل يسمع حين يولد صرخات الأرض والماء والسّماء التي تحيط به تهتف له كلّه : « إننا نوجد » ويجيب قلبه الضنيل الصغير صارخاً بدوره : « إنني موجود » . إنّ شعري شبيهٌ بصرخة هذا الطفل الوليد ، إنه جوابٌ عن صرخة الكون .

الـمـلـك : أليس هو بأكثر من هذا أيها الشاعر ؟

الـشـاعـر : لا ، ليس هو بأكثر من هذا ، إنّ في نشيدي حياةً تهتف : « في الفرح والحزن ، في العمل والراحة ، في الحياة والموت ، في الإنتصار والإنـدحار ، في هذه الدنيا وفي الآخرة ، كلُّ شيءٍ يهتف : « إنني موجودٌ » .

الـمـلـك : حسن ، أيها الشاعر ، في ميسوري أن أؤكّد لك ، أنّ مسرحيّتك لن تصبح ، إنْ لم تحوِ فلسفةً ما ، مثالاً يحتذى في أيامنا هذه .

الـشـاعـر : إنّ هذا لصحيحٌ ، أيها الملك ، إنّ الرغبة الجديدة ، في هذا العصر الحديث هي إلى الجمع والتكديس أكثر تشوّفاً منها الى الإيجاد . إنّها في جيلها هذا ، أوسعْ فطنةً من أطفال النور .

الـمـلـك : من الذين سندعوهم إذن ، ليحضروا الحفلة ؟ هل ندعو طلبة مدرستنا الملكية الشباب ؟

الـشـاعـر : لا ، أيها الملك ،إنهم يجرحون الشعر بمنطقهم ، إنهم كالأيل الأروق[1] الفتي الذي يجرّب أن ينطحَ بقرنيه الصغيرين مزاهر الورد .

---

(١) الأروق : ذو القرن .

الـمـلـك : اذن فمن أدعو ؟

الـشاعـر : ادعُ أولئك الذين وخط الشيب شَعرهم .

الـمـلـك : ماذا تعني أيها الشّاعر ؟

الـشاعـر : إنّ شبيبة من أدركوا منتصف العمر هي شبيبة التجرّد ، لقد خوّضتْ في أمواه اللذّة وجازتها ، واستشرفتْ منظرَ أرضِ الهناءة الصافية ، إنها لاترغب في التهامِ الثمرة بل في إنتاجها .

الـمـلـك : أنا ، على الأقل ، قد بلغتُ عمرَ التبصّر ، وأضحى لزاماً عليّ أن يكون في وسعي تذوّق أغانيك ، هل أدعو الجنرال ؟

الـشاعـر : أجل ، ادعُه .

الـمـلـك : والسفير الصيني ؟

الـشاعـر : ادعُه أيضاً .

الـمـلـك : سمعتُ أنّ حَميَّ بسبيلِ المجيء .

الـشاعـر : حسنٌ ، ادعُه أيضاً ، ولكن تخالجني الشكوكُ في أولاده الشبّان .

الـمـلـك : ولكن لا تنسَ ابنته .

الـشاعـر : لا يأخذنّك القلقُ من أجلها ، إنها تعمل على ألاّ تُنسى .

الـمـلـك : و(سروتي بوشان) هل أدعوه ؟

الـشاعـر : لا أيها الملك ، لا تدعُه ، على التأكيد ، إنني لا أكنّ له أيّ موجدة ، فلمَ اقتص منه ؟

الـمـلـك : حسنٌ أيها الشاعر ، لك أن تنصرف ، اذهب وقمْ بإعداد المسرح .

الـشاعـر : لا ، أيها الملك سوف نقوم بهذه المسرحيّة ، دون أيّ استعدادٍ خاصٍ . إنّ الحقيقةَ تبدو مزيّفةً حين يُغالى في تزيينها .

الـمـلـك : ولكن ، أيها الشاعر ، ينبغي أن تكون هناك ستارة خلفيّة .

الشاعر : لا ، سوف يكون الذُهن ستارتنا الخلفية ، ولسوف تنفِضُ عصا الموسيقا السحرية ، الصورةَ على صفحته .

الملك : أيكون في المسرحيّة أناشيدُ ؟

الشاعر : أجل ، أيها الملك ، سوف يُفتحُ باب كلّ فصل ، بمفتاحٍ موسيقي .

الملك : وما موضوع هذه الأناشيد ؟

الشاعر : تعرّي الشتاء .

الملك : ولكن لم نقرأ أيهّا الشاعر هذه القصّة في علوم الأساطير .

الشاعر : سينظّم هذا النشيد بدوره في أسطورة العالم ، ففي كلّ عام ينحسر في مسرحيّة الفصول قناعُ الرجل الشيخ : الشتاء . ويتراءى محيا الربيع في تمام رونقه ، وهكذا فإننا نرى أنّ القديم هو جديدٌ دوماً .

الملك : حسنٌ أيها الشاعر إننا متّفقون أحسنَ إتّفاق على الأناشيد ، ولكن ما لديكَ بشأن ما تبقّى ؟

الشاعر : إنّ ما تبقّى كلّ يتّصل بموضوع الحياة .

الملك : الحياة ؟ ما هي الحياة ؟

الشاعر : يترادف موضوعها على النحو التالي : عصابةٌ من الفتيان يمضون ليلحقوا برجلٍ شيخٍ نذروا على أنفسهم أن يمسكوا به ثمّ يدخلون غاراً فزع إليه ، ويقبضون عليه ثمّ...

الملك : ثمّ ماذا ؟ . ماذا رأوا ؟

الشاعر : آه سوف يذكر هذا في أوانه .

الملك : ولكن ، لم أفهمْ أمراً واحداً : تُرى أيكون لمأساتكَ وأناشيدكَ الموضوع نفسه أم موضوعاتٌ مختلفةٌ ؟

الشاعر : الموضوع نفسه . أيها الملك ، إنّ دور الربيع في الطبيعة هو

الدور المقابل الذي يلعبه الشباب في حياتنا . لقد نهبتُ الموضوعَ في يسرٍ ، من المأساة الغنائيّة التي نظّمها شاعر الكون .

الملك : ومن هم إذن الأشخاص [illegible] ؟

الشاعر : أحدهم [illegible]

الملك : ومن [illegible]

الشاعر : [illegible] شاعرٌ آخرُ هو

الملك : من هو ؟

الشاعر : هو الذي يجعل الحياة محبّبةً إلينا .

الملك : ومن هناك أيضاً ؟

الشاعر : هناك (دادا) الذي يرى أنّ الواجب لا الفرح هو جوهرُ الحياة .

الملك : أهناكَ آخرونْ ؟

الشاعر : أجل المنشد الضرير .

الملك : الضريرُ ؟

الشاعر : لأنه لايرى بعينيه بلْ بكيانه كلّه ، بفكره كلّه ، بروحه كلّها .

الملك : ومن هناك أيضاً في مسرحيّتك بين الممثّلين الرئيسيّين ؟

الشاعر : أنتَ أيّها الملك .

الملك : أنا .

الشاعر : أجل ، لأنّك إنْ مكثتَ بمنأى عن المأساة ، بدلاً من المشاركة فيها فإنّ الملكَ قد يعاودُ الجور على الشاعر ، ويعاود استدعاء (سروتي بوشان) . ولن يكون ، بعد هذا ، أيّ أمل في نَجَاته ، وقدْ يندحرُ شاعرُ الكون نفسه ، ويتعيّن على ريح الربيع الجنوبيّة أن تنكفىء دون أن تظفر بتحيّة ولائها .

الفصل الأوّل

(بُشراء الربيعِ منتشرون في جميع الأرجاء ، تتناهى أغانٍ من بين أوراق البامبو المرتعشة وأعشاش الطيور والأغصان المزهَّرة) .

ـ مقدمة النشيد ـ

(يرتفع الستار القرمزي الثاني[1] حاسراً عن الجزء العلوي من مؤخرة المسرح ، ومظهراً قاعاً سماويّاً ذا زرقةٍ شديدةٍ ، يتراءى فوقه قرنُ الهلال ونقاط النجوم الفضّية . تقوم ، على وصيد المسرح الأمامي ، شجراتُ يصل فيما بينها حبلا أرجوحةٍ مكلّلةٍ بالزهور . في جميع الأركان أزهارٌ منوّرة ، وفي أقصى اليسار ، يظهر مدخل غار معتّم . فتيانٌ يحاكون أشكال البامبو وهم يترجَّحون) .

---

(١) لا يسحب الستار القرمزي الثاني ولاستار المسرح ، أثناء تمثيل المسرحية . يؤدى التمثيل في مقدّمة المسرح أو في مؤخّرته ، وتكون الأخيرة معتّمة ، حين لاتستعمل .

نشيد البامبو

إيهٍ أيّتها الريح الجنوبيّةُ ، أيّتها الجوّالةُ ، تعالي وهدهديني .
أيقظيني ، في نشوةِ الأوراق الغضّة .
أنا شجرة البامبو ، انتظر الى جانب الطريقِ لهاتَكِ .
لأدع الحياةَ توسوس بين أغصاني .
إيهٍ أيّتها الريح الجنوبيّةُ ، أيّتها الجوّالةُ ، إنّ مسكني هو نهاية الدرب .
إنني أعرف تجوابَك ولغةَ خطاك ،
إنّ أصغر لمسةٍ منكِ ترعشني وتوقظني من نعاسي ،
إنّ همسك يحصد أسراري .

(تدخل فرقة من الفتيات ، يرقصن
ويحاكين أشكال الطير)

نشيد الطير

السّماء تهُرق نورَها في قلوبنا .
فنفعِمُ السّماء بالأغاني ردّاً عليها ،
إننا نرشق السّماءَ بنغماتنا ،
حين يهيج الهواءُ أجنحتنا بجنونه .
إيهٍ ياشعلةَ الغابة
إنّ مشاعلَ زهوركِ كلّها ملتهبة .

لقد لثمتِ أغانينا اللاهبةَ بشغفِ شبابكِ .

وتدفع براعمُ المانجو ، في نسيم الربيع ، برسالتها الى المجهول ، ويتعالى همس أحلامِ الأوراق الفتيّةِ ، طوال النهار ،

إيهِ أيّها الربيع ، لقد ألقيتَ بشبكة أريجك حول قلوبنا ، وسَحَبْتها بين الأغاني .

(يتراءى بين أغصان الأشجار وهي تضاء
فجأة ، فتيانٌ يحاكون زهورَ الشامباك)

نشيد برعم الشامباك المنوِّر

إنّ ظلّي يرقص فوق مويجاتك ،

أيّها النهر المتدفّق دوماً ،

إنني أنتصب ، أنا برعم الشامباك المنوّر . ثابتاً لاأريم ، على الشاطىء مع زهوري الساهرة .

إنّ حركتي تختبىء ، في سكون أعماقي .

في عذوبةِ ميلادِ الأوراق الغضّة .

في فيضِ الزهور .

في الإندفاع الخفي من الحياةِ الجديدة نحو النّور ،

إنّ هزّتها ترعش السماء ، وتحرّك صمتَ الفجر .

(الصباح)

(تشيع العتمة في مؤخرة المسرح ، يتألّق النور في مقدّمته ، تدخل جماعة من الفتيان ـ يتراوح عددهم بين الثلاثة والثلاثين ـ وهم ينشدون)

إنّ نار نيسان تطفر من غابةٍ الى غابةٍ ، متوامضةً ، منتفضةً ، أوراقاً وزهوراً ،

من جميع الأنحاء والأركان ،

السّماءُ خيّرةٌ إذ تبذل ألوانها ،

والفضاءُ يهذَي بالأغاني ،

وأغصان الغابة التي تعبث بها الريح ،

تريقُ قلقها في دمنا ،

الفضاءُ مفعمٌ بذهولِ الغبطة ،

والنسيمُ يعدو من زهرةٍ الى زهرةٍ ، سائلاً عن أسمائها .

فتى : إنّ نيسان يجذب بشدّة يا أخي .

فتى آخر : كيف تبيّن لكَ ذلك ؟

فتى آخر : لو لم يفعل ذلك لما أتيحَ له أن يجذب (دادا) ويخرجه من غاره .

فتى آخر : حسنٌ ، إنني أعلن : ها هو ذا (دادا) قاربُنا المُوسقُ بالحِكم الخلقية ، يُجرُ في اتّجاهٍ مخالفٍ لمسيل قلمه ومداده .

شاندرا : ولكن ينبغي لك ألا تعزو الفضلَ كلّه لنيسان ، فإنني أنا (شاندرا) . قد خبّأت الأوراقَ الصفرَ من مخطوطة كتابه بين

البراعم الغضّة من غابة (بيال) . وإنّ (دادا) بسبيل البحث عنها .

فــتــى : أتكون مخطوطة كتابه قد ضاعت ؟ ياله من تخلّص حسن!

فتى آخر : علينا أن نسلب (دادا) معطف فلسفته الرماديّ أيضاً .

شـانـدرا : أجل ، إنّ تراب الأرض يرتعش فتوّةً ، ومع ذلك فليس ثمّة لمسة واحدةٌ من لمسات الربيع في جسد (دادا) كلّه .

دادا : أوه ، أوقفوا هذا الجنونَ ، أيّ أذى تلحقونه بأنفسكم! لم نعدْ نحن أطفالاً .

شـانـدرا : (دادا) ، إنّ عمرَ هذه الأرض ليس بأصغر من عمرك ، ومع هذا فإنها لاتخجل من أن تتراءى في ميعةِ الصبا .

فــتــى : (دادا) ، إنّك تجهد نفسك ، دوماً ، برباعيّاتك هذه الملأى بنصحٍ قديمٍ قدَمَ الموت ، فيما تجد الأرض والماءُ في أن يظلاّ فتيين .

فتى آخر : (دادا) . كيف تستطيع في الدنيا أن توالي نظمَ أشعارٍ كهذه وأنت قابعٌ في غارك ؟

دادا : حسن ، إنني لا أستنبتَ القصيد كما يُستَنْبِتُ البستاني الهاوي أزاهيره ، فإنّ قصائدي تتضمّن مادتها وقيمتها في ذاتها .

فــتــى : أجل ، إنّها كنباتِ اللفت المتشبّث بأديم الأرض .

دادا : حسنٌ ، اصغوا إليّ اذن .

فــتــى : يا له من أمرٍ مفزع! هاهو ذا (دادا) ينطلق ، هائجاً ، هائماً مع رباعيّاته .

فتى آخر : اوه ، ايها العزيز ، لقد تُركتْ الرباعيّات ، سائبةً ، وليس ثمّة وسيلةٌ لإيقافها .

فتى آخر : لقد انهيت الى السابلة **كافّةً** ، تحذيراً بأنّ رباعيّات (دادا) قد

أضحت مجنونةً ، وأنها تعدو هائجةً .

شـانـدرا : (دادا) ، لا تُعَنّ نفسكَ بمزاحهم ، وتابعْ قراءتكَ . إذا لم يقدرْ أحدٌ على تحمّلها ، فأحسب أنني قادرٌ على ذلك ، لست أنا بجبان كهؤلاء الأشخاص .

فـتـى : تعالَ ، إذن ، يا (دادا) ، لا نودّ أن نُضحي جبناء ، سوف نلزم مكاننَا ، لاننحرف عنه مقدارَ بوصةٍ واحدةٍ ، بل نأخذ في الإصغاءِ إليكَ ليس غير .

فتى آخر : سوفَ نتلقّى طعناتِ رماحِ رباعيّاتكَ في صدورنا لا في ظهورنا .

فتى آخر : ولكن ، حنانيكَ يا (دادا) ، هلاّ تلوتَ علينا رباعيّةً واحدةً وحسب ؟

دادا : حسنٌ ، أصغوا ، الآن :

إذا كانت قصبات البامبو تصلح أن تكون ناياتٍ فحسب ، فقد تذوي وتموت من الخزي الشديد .

إنّها تُتْلعُ رؤوسها ، عالياً ، نحو السّماء ، لأنّها ذاتُ منافعٍ جمّةٍ مختلفةٍ .

فـتـى : عفواً إليكم ، أيّها السّادة ، لاتضحكوا ، ولوذوا بالصّبر ، فيما أفسّر لكم . المعنى هو...

فتى آخر : المعنى ؟

فتى آخر : لماذا ؟ تُرى ، أينبغي أن يلي هجومُ جيش المعنى قصفَ مدافع رباعيّاتك ، حتّى تتمَ الغلبة ؟

دادا : ثمّة كلمةٌ واحدةٌ وحسب ، تحملكم على الفهم ، إنّها تعني أنه إذا كانت قصبات البامبو ليست بأفضل من تلك الآلات الصاخبة...

فـتـى : لا ، يا (دادا) ، ليس علينا أن نفهم .

فتى آخر : إنني أتحدّاك بأن تجعلنا نفهم .

فتى آخر : (دادا) ، إن فزعت الى القوة لحملنا على الفهم ، فلسوفَ نلجأ الى القوّة لنقسر أنفسَنا على ألا نفهم .

دادا : إنّ موضوع الرباعيّة هو : إنْ لمْ نفعل الخير للعالمْ فإنّ...

فــتــى : فإنّ العالم يفرّج عنه آنذاك ، أعظم تفريج .

دادا : ثمّة أبياتٍ ، تجلو ذلك على نحوٍ أوضح هي :

في سماء منتصفِ الليل ، نجومٌ شتّى ،

معلّقةٌ بالفضاء ، دون أيّما هدف ،

إذا شاءت أن تهبط الأرض ،

فني ميسورها أن تضحي مفيدة في إنارة الطّريق .

فــتــى : أرى أنّ واجبنا جعل المعنى أكثر وضوحاً ، اقبضوا عليه ، ولندعه ينتصبْ ، ناهضَ الكتفين ، ولنعد به الى غاره .

دادا : لماذا أنتمْ اليوم هائجو الأعصاب ، هكذا ، هل لديكم عملٌ خاصٌ تقومونَ به ؟

فــتــى : بلى ، لدينا ، في الحق ، عملٌ عاجلٌ جداً .

دادا : وما عملكم هذا ؟

فــتــى : إنا نبحث عن مسرحيّة ، نمثّل فيها ، في مهرجاننا ، مهرجانِ الربيع .

دادا : إلعبوا ليلَ نهارَ ، إلعبوا .

(ينشدون)

لقد تحرّرنا يارفاقي ، من الخوف من العمل ،

لأننا نعلم أن العمل هو لعب ،

لعب الحياة .

إنه للعبُ أن نكافحَ وندفعَ ،
بين الحياةِ والموت ،
إنه للعبُ ذاك الذي يتألّق ، في ضحكةِ النور المترقرقة في القلب اللانهائي ،
إنّه ليزأر في الريح .
ويرغي ، مزبداً ، في البحر .

فتى : أوه . ها هوَ ذا مُرشِدنا قادم ، يا إخواني ، . ها هوَ ذا مُرشِدُنا . ها هوَ ذا مُرشِدُنا .

المرشد : تحيّتي لكم ، أيّ ضجّة تثيرون!

فتى : أهذا ما حَمَلك على الخروج من الأبواب ؟

المرشد : أجل .

فتى : حسنٌ ، لقد قمنا بها ، لهذه الغاية .

المرشد : ألا تريدونَ أن أظلَّ حلْسَ بيتي ؟

فتى : ولماذا تظلَّ حلْسَ بيتك ؟ إنّ العالمَ الخارجي قد صُنِعَ من البَذْل السخي الذي تزجيه الشمس والقمرُ والنجومُ ، فذرنا نستمتعْ به ، ليكون في وسعنا أن نعذرَ الله في الإغضاءِ عن مثل هذا البذل والإسراف .

المرشد : بِمَ تتحدّثون ؟

الفتية : بما يلي :

(ينشدون)

اللعبُ ينوّر زهراً
ويُنضجُ ثمراً
في أشعّة شمس الشباب الخالد .

اللعب يتفجّر ، في النار الحمراء كالدّم ،
ويحيل التفسّخَ والموتَ الى رماد .

فــتـــى : إنّ اعتراض (دادا) يدور حول هذا اللعب .

دادا : أأقولُ لكمْ السببَ في ذلك ؟

الفتية : أجل ، يا (دادا) في وسعك أن تقولَه لنا ولكننا لا نَعِدُكَ بالإصغاء .

دادا : ها هو ذا :
الزمن هو رأسمال العمل ،
واللعب هو اختلاسه ،
اللعب ينهب الدّار ثمّ يتلف ماسلبه ،
لهذا فإنّ العاقل يسمُه بأنه سيّء أكثر ممّا هو عديم النفع .

شاندرا : مِنَ المؤكّدِ يا (دادا) أنّك تتكلّم هراء ، إنّ الزمنَ نَفسَهِ هو لعب ، إنّ هدفه هو تزجية الفراغ وحسب .

دادا : ما العمل اذن ؟

شاندرا : العملُ هو الغبارُ الذي ينعقد ما مرّ الزمن .

دادا : أيّها المرشد ، عليكَ أن تذكر لنا أجوبتكَ .

المرشد : لا ، لن أذكر لكم أيّ جواب ، ولكنني أسوقُ سؤالاً ، جواباًعن سؤالٍ آخر ، هذا هو نهجي في الإرشاد .

دادا : إنّ لكلّ شيءٍ حدوداً ، ولكن ليس لأعمالكم الغريرة حدود البتّة .

فــتـــى : أتعلم السّبب ؟ لأننا ، في الواقع ، لسنا سوى أطفال ، وأنّ لكلّ شيء ـ فيما عدا الطفل ـ حدودا .

دادا : أفما تدركون سنّ الرشد ؟

فــتـــى : لا . لن ندركَ هذا السنّ أبداً .

فتى آخر : سوف نموتُ شيوخاً ، ولكنْ لن ندركَ سنّ الرشد أبداً .

شـانـدرا : حين نقابل سنّ الرشد . فلسوف نحلق رأسها ، ونضعه على حمارٍ ونبعث به عبر النهر .

فـتـى : أوه ، تستطيع أن تتجنّب الإزعاج الذي يصيبك ، في حَلقِ رأس سنّ الرشد ، فإنّ هذا الرأسَ أصلعُ .

(ينشدون)

إنّ شَعرَنا لن يَخطَه الشيبُ أبداً .
أبداً .
ليس ثم ّبياضٌ من أجلنا في الدنيا .
ولاحفرةٌ في طريقنا .
لعلّ الذي نتبعه أن يكون وهماً .
ولكنه لايضلّلنا أبداً .
أبداً .

(المرشد ينشد)

إنّ شَعرَنا لن يَخطَه الشيبُ أبداً .
أبداً .
لن نشكّ في العالم ، ولن نغمض عيوننا لنذكر أبداً . أبداً ،
لنتلمّس متاهةَ فكرنا ،
سوف نتدفّق ، مع فيضان الأشياء ، من الجبل الى البحر .
ولكنْ لن نضلّ في الصحراء الرمليّة أبداً ، أبداً .

فـتـى : يبدو من مظهر (دادا) أنه سوف يسعى ذات يوم الى الرجل الشيخ ، ليتلقّى منه دروسه .

المرشد : أيّ رجلٍ شيخ ؟

فـتـى : الرجلُ الشيخُ المتحدّرُ من سلالة آدم .

فتى آخر : إنه يسكن في غار ، ولايفكّر في الموت البتّة .

المرشد : أين اتّصل علمكم به ؟

فـتـى : اوه ، كلُّ إنسان يتحدّث عنه ، وقدأشارت اليه الكتب أيضاً .

المرشد : أيّ شيءٍ يشابه ؟

فـتـى : بعضُهم يقول إنه أبيضُ كجمجمة رجلٍ ميّت ، وبعضهم يقول إنه أسودُ كوقب عين هيكلٍ عظمي .

فتى آخر : ولكن ، ألمْ يتأدَ إلى سمعكَ أخبارٌ عنه أيّها المرشد ؟

المرشد : إنني لا أؤمن به أبداً .

فـتـى : حسنٌ ، إنّ هذا ليناقض كلّ التناقض الرأيَ السائدَ بأنّ هذا الرجلَ الشيخَ هو أثبت وجوداً من أيّ شيءٍ آخر . إنه يحيا ضمن ضلوعِ الخلق .

فتى آخر : أخذاً برأي حكيمنا فإننا نحن الذين لا نحظى بالوجود ، فليس في وسعكَ التأكّدُ من أننا كائنونَ أو غير كائنين .

شاندرا : نحن ؟ إننا معاً جديدون أعظم الجدّة ، ولمْ نتلقّ بعدُ أوراقَ اعتمادنا التي تبرهن على أننا موجودون .

المرشد : ألمْ تمضوا حقّاً وتعقدوا صلةً وثيقةً مع الحكماء ؟

فـتـى : لماذا ؟ وأيّ ضرر في ذلك أيها المرشد ؟

المرشد : إنّ وجوهَكم سوفَ تشحُبُ كضبابِ الخريفِ الأبيضِ ، وإنّ آخر أثر من لونِ الدمِ سوفَ يزولُ من دماغكم . إنّ لديّ اقتراحاً .

فـتـى : ما هو أيها المرشد ، ماهو ؟

المرشد : ألم تكونوا بسبيل البحث عن مسرحيّة ؟

فـتـى : أجل ، أجل ، إننا نبحث عنها في لهفةٍ متّقدةٍ .

فتى آخر : إننا نفكّر فيها ، على نحوٍ عنيفٍ ، أهاب بالناس أن يبادروا الى بلاط الملك ، ليبسطوا له شكاتَهم .

المرشد : حسن ، أستطيع أن أقترح عليكم مسرحيّةً ذاتَ موضوعٍ مستجد .

فتى : ماذا ؟ ماذا ؟ قلْ لنا .

المرشد : أمضوا وأسروا الرجل الشيخ .

فتى : إنّ هذا لجديدٌ . لاشكّ في ذلك ، ولكننا نشك كثيراً في أن تكون هذه مسرحيّة .

المرشد : أنا واثقٌ بأنكم لستم أهلاً للقيام بها .

فتى : لسنا أهلاً لذلك ؟ . إننا سنقوم بها .

المرشد : لا ، لن تستطيعوا ذلك أبداً .

فتى : حسنٌ ، لنفترضْ أننا عَمدنا الى أسره ، فماذا تمنحنا ؟

المرشد : سوف أقبل كلاً منكا معلّماً لي .

فتى : معلّماً ؟ أنت تريد أن يخطّ الشيبُ شعرنا . وأن نصبح باردين ، شيوخاً قبل أواننا ؟

المرشد : إذن ماذا تريدون منّي أن أفعل ؟

فتى : إنْ أسرناه فلسوف ننزع عنكَ القياد .

المرشد : سيكون في ذلك لي تفريجٌ كبيرٌ ، فقد جعلتم عظامي كلها مفكّكةً ، حسنٌ لقد تقرّر كلّ شيء .

فتى : أجل ، لقد تقرّر ، سوف نقدَمُ به إليك ، حين يكتمل بدرُ الربيع المقبلُ .

فتى آخر : ولكن ماذا سنفعل به ؟

المرشد : سوف تدعونه يشارككم في مهرجان الربيع .

فتى : أوه ، لا ، إنّ في ذلكَ لمهانةً كبيرةً ، فإنّ زهور المانجو سوف

تستحيل على الفور الى بذر .

فتى آخر : وسوف تضحي طيورُ الوقواق كلّها بوماً .

فتى آخر : وسوف يذهب النحل منشداً شعراً سنسكريتيّاً ، مالئاً الفضاء بالطنين المدوّي : مسْسْ ـ نسسْ .

المرشد : ولسوف تصبح جمجمتكم ثقيلةً بالفطنة ، الى حدٍّ تجدون فيه مشقّةً لتستمسكوا على أرجلكم .

فتى : يا للهول!

فتى آخر : لسوفَ تُصاب مفاصِلكم كلّها بالرثْية[1] .

فتى آخر : يا للهول!

المرشد : سوف يصبح الواحد منكم الأخَ الأكبرَ للآخر ، فيما يشدّ بعضُكم آذانَ بعضٍ ، لتحملوا أنفسكم على الجلوس في اسِتقامة .

فتى : يا للهول!

المرشد : ولسوفَ...

فتى : كفى « سوف » . إننا مستعدّون للاستسلام .

فتى آخر : سوف نتخلّى عن لعبتنا الخاصة بأسر الرجل الشيخ .

فتى آخر : سوف نرجئها الى مقدم الطقس البارد ، فإنّ صحبتك في هذا الوقت الربيعي سوف تكفينا .

المرشد : آه ، لقد عرفت ، إنّكم ظفرتم برعشة الرجل الشيخ تسري في عظامكم .

فتى : لماذا ؟ وما علامات ذلك ؟

المرشد : ليس لديكم الحماسة ، أنتم تنكفئون على أعقابكم ، منذ

---

(١) الرثية : الروماتيزم .

البداية . لِمَ لاتعمدونَ الى التجربة ؟

فــتـــى : حسنٌ ، إننا متّفقون ، هيّا بنا .

فتى آخر : لنمضِ خلفَ الرجل الشيخ ، سوف نقتلعه ، كما نقتلع الشعرَ الشائبَ ، حيثما وجدناه .

المرشد : ولكنّ الرجلَ الشيخَ بارعٌ في أمورِ الإقتلاع ، وأحسنُ سلاح لديه هو المعول .

فــتـــى : لستَ بمحتاجٍ الى محاولة إخافتنا ، على هذا النحو ، فإنّ علينا حينَ نستعد للإقدام على مغامرة ، أن نرمي ظهريّاً ، بالخوف كلّه ، بالرّباعيّات كلّها ، بالحكماء كلّهم ، بالأسفار كلّها .

(ينشدون)

إننا ماضون في طريقنا ،
لا نخشى اللصّ : الرجلَ الشيخَ ،
إنّ طريقنا مستقيمةٌ ، فسيحةٌ .
إنّ عبئنا خفيفٌ ، لأنّ جيوبنا خاوية ،
من ذا الذي يستطيع أن ينهب منّا جيوبنا ؟
إننا لا نألف الراحة ولا نستمرئ الدَعة ،
ولا يهمّنا الثناء ولا النجاح .
إننا نرقص على إيقاع ارتفاع الحظّ وانخفاضه .
إننا نلعب لعبتنا ، سواء أخسرنا أم ربحنا ،
ولانخشى اللصّ .

الفصل الثاني

(بشراء الربيع يحاولون أن يسلبوا الشتاء ثيابه اللبيسة)
(المسرح الخلفي منير ، يكشف عن الشّتاء ، الشيخ ينال منه الفتية والفتيات الذين يحاكون بلباسهم بشراء الربيع)

نشيد بُشراء الربيع

إننا نبحثُ عن رفاقنا في اللعب ،
موقظين إيّاهم من كلّ الأرجاء ،
قبل منبلجِ الفجر ،
إننا نناديهم ، بتغريدِ الطيور ،
ونشير إليهم بهزّ الأغصان ،
وننفضُ لهم سحرنا ،
في روعةِ السحب ،
إننا نضحك من الموت المهيب ،
رجاةَ أن ينضمّ الى ضحكنا ،

إننا نمزّق جراب الزمن ،
ونظفر منه بسلبه .
إيهٍ أيّها الشتاء ، سوف تفقد قَلبَك لتَهبه لنا ،
ولسوفَ يتألّقُ في الأوراق المرتعشة ،
ويتحطّم في الأزاهير .

نشيد الشتاء

دعوني أذهبْ ،
إنني أنصب شراعي لزمهرير الشمال ، لسلام الشواطىء المتجمّدة .
إنّ ضحكتكم ليست في حينها يارفاقي ،
إنّكم تحيلون ألحانَ الوداع إلى أغنيةٍ مرحّبةٍ بالقادم الجديد ،
ولكنّ الأشياء كلّها ، عاودت دفعها بي الى حلبة الرقص القائمة في قلوبها .

نشيد بُشراء الربيع

نحن عيون الحياة ، نكمن متربّصين في كلّ مكان ، إننا ننتظر أن نسلبك الوفرَ الأخيرَ من السّاعات الذابلة ، لنبدّده في مهبّ الرياح الشكسة ،
سوف نوثقك بسلاسلَ من الزهر ،
حيث يحرس الربيعُ أسراه .
لأننا نعلم أنّك تحمل حليَكَ ، حلي الصبا ،
الخبيءَ خلفَ أسمالك المغبّرة .

الظهيرة

(المسرح الخلفي مظلم ، يدخل رهط من الفتيان من المسرح الرئيسي . ليس هناك ضرورة لتغيير في التزويق المسرحي (الديكور) فقد ترك لخيال النّظارة أن يتمثّله)

فـتـى : أيّها المُجيز[1] ، أيّها المُجيز ، إفتح بابك .

المجيز : ماذا تريدون ؟

فـتـى : نريد الرجلَ الشيخ .

المجيز : أيّ رجلٍ شيخٍ .

فـتـى : لا نريدُ أيّ رجل شيخٍ ، نريدُ الرجلَ الشيخَ .

المجيز : من هوَ ؟

فـتـى : الرجل الشيخَ الحقيقيّ الأصلي .

المجيز : أوه ، فهمت ، لِمَ تريدونه ؟

فـتـى : لمهرجاننا ، مهرجانَ الربيع .

المجيز : لمهرجان الربيع ؟ ها جُننتم ؟
لم نصبح كذلك فجأة ، فقد كنّا على هذا النحو ، منذ البدء ، وسنبقى على هذا النحو حتّى النهاية .

(ينشدون)

إنّ الزمّار ينفخ في نايه في بُهرة الحلقة ،

---

(١) المجيز : الذي ينقل الركاب بزورقه أو بمعبره من عدوة النهر الى العدوة المقابلة .

متوارياً عن النظر ، وقد عصف بنا الهياجُ ،
وجعلنا نرقص ،
وألمّ بريح آذار الجنون .
فأخذت تعدو وتدور وتترجّح مع الأغصان الصاخبة ،
إنّ الشّمس والنجومَ قد قُذف بها في دوّامة الحبور .

فــتــى : هلاّ ذكرت لنا ، الآن ، أيّها المُجيز ، أخبارَ الرجل الشيخ .

فتى آخر : إنّك تمضي بمعبرك[1] من مرسى شاطىء الى مرسى آخر ، لا ريب أنّك تعرف أين...

المجيز : إنّ عملي مقصور على الممر فحسب ، أمّا أيّ ممر هذا ، وماذا يعني ، فلمْ تسنح لي فرصةٌ بأن استوضح ذلك ، إنّ هدفي هو مرسى الشاطئ لا البيت .

فــتــى : حسنٌ ، لنمضِ ، ولنجرّب السّيرَ في السُبُلِ كلّها .

(ينشدون)

إنّ الزمّار ينفخ في نايه في بُهرة الحلقة ، متوارياً عن النظر .
آه ، يا للنغم الهائج الذي ترقص على إيقاعه البحور الكبرى!
وترقص قلوبنا الخفّاقة .
اقذف بالأعباء الكبرى والهموم يا أخي ،
ولا تأخذك الريبة في طريقك ،
فإنّ الطريق نفسها تتّضح .
تحت خُطا الحرّية الراقصة .

المجيز : ها هو ذا العاس[2] ، سَلْه ، أنا أعرف أمورَ الطريق ، وهو يعرف

---

(١) المعبر : ما يعبر به النهر .
(٢) العاس : الحارس الليلي .

أمور عابري النهر .

العاس : من أنتم ؟

فتى : نحن من ترانا ليس غير ، هذا هو وصفنا وحسب .

العاس : ولكن ماذا تريدون ؟

فتى : نريد الرجلَ الشيخَ .

العاس : أيّ رجل شيخ هذا ؟

فتى : الرجل الشيخ الأبدي .

العاس : ياللعبث! بينا أنتم تبحثون عنه ، يسعى هو في أعقابكم .

فتى : لماذا ؟

العاس : إنه يجب أن يدفىء دمه المتبرّدَ بخمر الشباب الحارة .

فتى : إننا نُعدُّ له استقبالاً حاراً ، إنّ كل مانريده هو أن نراه ، هل رأيته ؟

العاس : إنّ حراستي تتمّ في الليل ، إنني أرى مواطنيّ ، ولكنني لا أعرف قسماتِ وجوههم ، ولكن انتبهوا ، إنّ الجميع يعرفون أنّ الرجلَ الشيخَ خطّافٌ كبير ، فيما تريدون أنتم اختطافه . هذا منتهى الجنون .

فتى : لم يعدْ هذا سرّاً خبيئاً ، إذ لا يستدعي الأمرُ أمداً طويلاً ، ليكتشف أننا مجانين .

العاس : أنا الحارس الليلي ، إنّ الناس الذين أراهم ، في مدى الدرب ، يتشابهون كلّ التشابه ، لهذا فإمّا لمحتُ شيئاً عجيباً فإنه يصدم ناظري دوماً .

فتى : اصغوا إليه ، إنّ النخبةَ المرموقةَ من جيراننا تُردّدُ هذا الشيءَ نفسه بأنّ كلاً منّا عجيبٌ .

فتى آخر : أجل إنّ كلاً منّا عجيبٌ ، ليس في الأمر خطأ .

العاس : ولكن هذا كلّه غرارة طفولية .

فتى : أسمعتم هذا ؟ إنه نفس مايقوله صاحبنا (دادا) تماماً .

فتى آخر : لقد مضينا في ذلك ، مع غرارة طفولتنا ، عبر قرون سحيقة .

فتى آخر : والآن أصبحنا أطفالاً ثابتين .

فتى آخر : ولنا مرشدٌ هو دَرِبٌ في أمور الطفولة . إنه يندفع ، بكثيرٍ من الإستهانة ، فيطرح ، عند كلّ خطوة ، قليلاً من عمره .

العاس : ومن أنتم ؟

فتى : نحن فراشات تحرّرت من فيلجة العمر[١] .

العاس (لنفسه) : مجانين ، مجانين يهرفون .

المجيز : ماذا ستفعلون كلّكم ، الآن ؟

شاندرا : سنمضي .

المجيز : الى أين ؟

شاندرا : لمّا نقرّرْ بعد .

العاس : أقرّرتم المضي دون أن تعرفوا الى أين ؟

شاندرا : بلى سنقرّر ذلك ونحن ماضون .

العاس : وماذا يعني هذا ؟

شاندرا : إنه يعني هذا النشيد :

إننا نمضي ولاننى نمضي .

إننا نمضي ، فيما تلمعُ النجومُ الشاردةُ في السّماء ثمّ تشحب .

إننا نعزف لحنَ الطريق ،

فيما تنثر أعضاؤنا ، حواليها ، ضحكةَ الحركة ،

ويخف ، في الفضاءِ ، معطفُنا ، معطفُ الصبا ، المصبّغ بشتيت

---

(١) الفيلجة : بيت من حرير تنسجه دودة القز على نفسها وتعرف عند العامة بالشرنقة .

الألوان .

العـاس : أتكون عادتكم أن تجيبوا بالأناشيد عن الأسئلة ؟

شـانـدرا : أجل ، وإلاّ فإنّ جوابنا يضحي غيرَ مفهومٍ البتّة .

العـاس : إذن فأنتم ترون أنّ أناشيدكم مفهومةٌ .

شـانـدرا : أجل ، حقّاً ، لأنها تتضمّن موسيقا .

(ينشدون)

إننا نمضي ولانني نمضي ،

إنّ العالم ، هذا الجوّالة ، يحب رفاقَ طريقِه ،

إنّ نداءه يوافي في السّماء .

إنّ الفصولَ ترشدنا الى الطريق ، وتفعّم دربَنا بالأزاهير .

العـاس : ليس هناك ، كائناتٌ عاديّةٌ تغنّي هكذا ، خلال الحديث .

شـانـدرا : ها نحن أولاء ، نُستجلى من جديد : لسنا بكائناتٍ عاديّة .

العـاس : أليس لديكم عمل تؤدّونه ؟

شـانـدرا : لا ، نحن في عطلة .

العـاس : لماذا ؟

شـانـدرا : مخافة أن يتبدّد وقتنا كلّه .

العـاس : لاأفهمكم جيّداً .

شـانـدرا : إذن علينا أن نعاود الغناء .

العـاس : لا ، لا ، ليس ثمّة حاجة الى ذلك ، لا آمل أن أفهمكم على نحوٍ أفضلَ ولو تغنّيتم .

شـانـدرا : كلّ الناس تخلّوا عن أملهم في فهمنا .

العـاس : ولكن كيف يمكن أن تسير الأمور لمصلحتكم مادامت سيرتكم على هذه الشاكلة ؟

شانـدرا : ليس ثمّة مايدعو الى أن تطّرد الأمور وفق مصلحتنا ما دمنا نسعى نحن اليها .

العــاس : إنهم مجانين ، مجانين حقّاً ، مجانين يهرفون .

شانـدرا : ها هو ذا صاحبنا (دادا) قادم .

فـتـى : (دادا) ، ما الذي يحملك على التخلّف وراءنا ؟

شانـدرا : ألا تعلمون أننا أحرارٌ كالرّيح ، لأنه لا قوام لنا ، ولكنّ (دادا) شبيهٌ بسحابة آب الممطرة ، وعليه أن يتوقّف ، بين الفينة والفينة ، ليخفّف من عبثه .

دادا : من أنت ؟

المجيز : أنا المجيز .

دادا : ومن أنت ؟

العــاس : أنا العاس .

دادا : إنني مبتهجٌ برؤيتكما ، أريد أن أتلو عليكما بعضَ ماكَتبت ، إنه لا يتضمّن أشياءَ تافهةً ، بل يتضمّن أهمّ العبر .

المجيز : حسنٌ هلاّ أسمعتنا .

العــاس : لقد تعوّد معلّمنا أن يقول لنا : إنه يتوفّر عددٌ جمٌّ من الناس لترديد الأشياء الحسنة ، ولكن لايتّسق سوى عدد قليل للإصغاء اليها ، فإنّ الإصغاء يتطلّب قوّة الفكر ، والآن هيّا بنا يا مولاي ، هيّا اسمعنا .

دادا : ألمح في الشارع أحد الضبّاط يجرّ تاجراً ، لقد رمى الملك هذا التاجرَ بتهمةٍ كاذبةٍ ، رجاءَ أن يستولي على ماله ، لقد أوحى إليّ هذا بشيء : يجب أن تعرفوا أنني لا أخطّ سطراً واحداً دون أن يوحي إليّ به بعض الأحداث الجارية . في مقدوركم أن تتبيّنوا ذلك بشعري ، في الشوارع والأسواق .

المجيز : ارجوك ، يامولاي ، لنستمعْ الى ماكتبت .

دادا : إنّ قصبَة السَكر الممتلئةَ برحيقها ، .
قد امتصّها ومضغها الشّحاذون كلّهم ،
إيهٍ أيها الرجال المجانين ، خذوا دَرسكم من هذا :
إنّ الأشجار التي سلمت هي الأشجار المثمرة . سوف تدركون أنّ الإضطراب قد ألمَّ بقصبة السكّر ، لأنها تحاول أن تحتفظ برحيقها ، ولكن ليس ثمّة إنسان يقطع - مهما يكن مجنوناً - الشجرةَ التي تؤتي ثمارها بحرية .

العاس : يا لروعة هذه الكتابة! أيها المجيز .

المجيز : أجل ، أيّها العاس ، إنها تتضمّن عبراً جليلةً مفيدةً لنا .

العاس : إنها تزوّدني بغذاءٍ للتفكير ، لكم وددت لو أنّ جارَنا الكاتبَ كان هنا ، فلعلّي أن أستكتبه هذا . إبعث بشخصٍ يطلب الى الناس في السّاحة أن يجتمعوا .

شاندرا : ولكنّك قد وعدتَ أيها المجيز ، بأن تقدم معنا . إذا شرع (دادا) بتلاوة رباعيّاته ، فلسوف...

المجيز : على رسلك ، لامجال لجنونك هنا ، إننا مجدّدو الحظ بلقاء معلّمنا ، دعنا نهتبلْ هذه الفرصةَ فنظفر بالكلمات الطيّبة ، كلّنا بسبيل إلى الشيخوخة ، ومن يدري متى سنموت ؟

الفتية : هذا سبب آخر يحملكم على توثيق عرى صحبتنا .

شاندرا : إنّ في وسعكم ، دوماً ، الوقوعَ على (دادا) آخرَ ، ولكن ، إمّا اخترمتنا المنيّةُ ، فإنّ الله لن يعاود الخطأ في خلق كائناتٍ غير مجديةٍ مثلنا .

(يدخل الزيات)

الزيات : إيهٍ ، أيها الحارس الليلي .

العاس : من هنا ؟ أأنت الزيات ؟

الزيات : إنّ الطفل الذي كنت أرعاه قد اختطف ، ليلةَ أمس .

العاس : مَن الذي اختطفه ؟

الزيات : الرجل الشيخ .

الفتية (في صوت واحد) : الرجل الشيخ ، إنّك لا تعني ما تقول . الرجل الشيخ ؟ .

الزيات : أجل ، أيها السادة ، الرجل الشيخ ، ما الذي جعلكم مسرورين هذا السرورَ كلّه ؟

فتى : إنها عادةٌ سيّئةٌ ألفناها ، إننا نُسرُّ دون أيما سبب ؟

العاس (لنفسه) : مجانين ، مجانين يهرفون .

فتى : هل رأيتَ الرجلَ الشيخ ؟

الزيات : أحسب أنني لمحته ، من مسافةٍ بعيدةٍ ، ليلةَ أمس .

فتى : أشبه بمن كان يبدو ؟

الزيات : كان يبدو أكثر سواداً من أخينا الحارس الليلي ، كانَ أسودَ كالليل ، وفي صدره كانت عينان تبرقان كقطربين[1] .

فتى : هذا لا يلائمنا البتّة ، فإنّ فيه مضايقةً وحرجاً من أجل مهرجاننا الربيعي .

شاندرا : يجدُر بنا إذن ، أن نبدّل تاريخ عيدنا من وقت تمام القمر الى محاقه ، فإنّ للقمر ، في محاقه ، عيوناً لا عدادَ لها في صدره .

العاس : ولكن ، أحذّركم يا رفاقي ، إنّكم لا تقومون بهذا العمل في تبصّر .

---

(١) القطرب : دويبة تضيء ليلاً .

فـــتـــى : لا ، لا نقوم به في تبصّر .

فتى آخر : لقد كُشفنا ثانيةً ، إننا لا نقوم بشيء في تبصّر . هذا مخالفٌ لعادتنا .

الـعــاس : أتـأخذون ذلـك مأخذ الـمزاح ؟ أحذّركم يا رفاقي ، إنّ هذا لخطر .

فـــتـــى : خطر ؟ هذا خير مزحة بين المزحات كلّها .

(ينشدون)

لسنا جِدّ صالحين ولا جِدّ عاقلين .
هذا كلّ ما نحن أهلٌ له .
تتعقّبنا السعايةُ من أرضٍ الى أرضٍ ،
ويقتفي الخطرُ خطانا .
إننا نهتم اهتماماً بالغاً بأن ننسى ماتعلّمناه ،
إننا نتكلّم أشياءَ مخالفةً لما جاء في الكتاب ،
جالبين لأنفسنا الاضطراب ،
والتقريعَ ممن أوتي العلم .

الـعـــاس : سادتي ، إنّكم تتحدّثون عن مرشدٍ ما ، أين هو ؟ لو أنه كان معكم لوضعكم في السبيل السويّة .

فـــتـــى : إنه لا يمكث بيننا البتّة ، لئلا يضطر الى إبقائنا في السبيل السويّة .

فتى آخر : إنه يدفعنا في طريقنا ، ثمّ يتوارى .

الـعـــاس : إنها لفكرةٌ عميقةٌ في الإرشاد .

شـانـدرا : إنه لايعنى البتّة بأمر إرشاده ، لهذا فقد اعترفنا به مرشداً لنا .

الـعـــاس : إذن فإنّ مهمّته يسيرةٌ جداً .

شـانـدرا : ليس إرشاد الرجال مهمّةً يسيرةً ، ولكن تسييرهم أمرُ سهلُ جداً .

(ينشدون)

لسنا جِدّ صالحين ولا جِدّ عاقلين .
هذا كلّ مانحن أهلٌ له .
لقد ولدنا في وقتٍ سيّء الطالع ،
حين كان نجم الفطنة أكثر النجوم عتمةً ،
نستطيع ألا نأمل ربحاً من مغامراتنا ،
إننا نسيرُ قُدُماً ، لأنّ ذلك واجب علينا .

فـتـى : (دادا) تعال ، هيا بنا نذهب .
الـعـاس : لا ، لا ، يامولاي ، لاتعرّض نفسَك للأذى في صحبتهم .
المجيز : هلاّ قرأتَ لنا يامولاي شعرك ، إنّ جيراننا موشكون أن يصلوا وسيصيبون فائدةً عميقةً .
دادا : لا ، لن أبتعد قيد خطوةٍ من هنا .
فـتـى : إذن ، فلنذهب ، إنّ الرجال في الشوارع لا قِبَلَ لهم بتحمّلنا .
فتى آخر : لأننا نملؤهم صخباً وضجّةً .
فتى آخر : إنّكم تسمعون طنين النحل الانساني ، يفغم منه شَهْدُ رباعيّات (دادا) .
الـفـتـيـة (في صوت واحد) : إنهم قادمون . إنهم قادمون .

(يدخل رهط من الفلاحين)

فـلاح : أحقّاً تُعَدُ ندوةُ قراءة ؟ من أنتم ، أمزمعون على القراءة ؟
فـتـى : لا ، إننا نجترح كلّ أنواع القسوة ، فما عدا هذا النمط وسوف

تحمل إلينا هذه المزيّة الخلاصَ .

فـــلاح : ماذا يقولون ؟ يتراءون كأنهم يتكلّمون ألغازاً .

شـانـدرا : إننا نتكلّم أشياءَ نفهمها نحن أحسنَ الفهم ، ولكنّها تظلُ ألغازاً يستغلق عليكم فهمها ، إنّ (دادا) يردّد لكم أشياءَ تفهمونها جيّداً ، وإنها لتتجاوب في مسامعكم ، لباباً حقيقيّاً للفطنة .

(يدخل غلام)

الـغـلام : لم أستطع الإمساك به .

فـتـــى : من هو ؟

الـغـلام : الرجل الشيخ الذي تبحثونَ عنه .

فـتـــى : هل رأيتَه ؟

الـغـلام : أجل لقد رأيته يمر ، راكباً عربة .

فـتـــى : أين ؟ في أيّ إتّجاه ؟

الـغـلام : لا أستطيع أن أجلو لكم ذلك ، بدقّةٍ ، فإنّ الغبار المرتفع من عجالِ عربته مازال منعقداً في الفضاء .

فـتـــى : إذن فلنمضِ .

فتى آخر : لقد ملأ السّماءَ بالأوراق الميّتة .

(يحرجون)

الـعـاس : إنهم مجانين حقّاً ، مجانين يهرفون .

الفصل الثالث

(مقدّمة غنائيّة)

(الشتاء محسُور القِناع - شبابُه الخبيءُ يوشك أن يظهر)

(المسرح مضاءٌ ، مظهراً الشتاءَ وبُشراءَ الربيع)

نشيد بشراء الربيع

لكم يبدو وقوراً!
ياله من هرمٍ هُزأةٍ!
كم يتراءى هادئاً مهيباً ، بين معدّات الموت .
تعالوا ، أيها الرفاق ، أعينوه على أن يجدَ نفسَه ،
قبل أن يدرك بيتَه ،
استبدلوا بثوب هجرته ،
ثوبَ شبابه الهازج بالغناء ،
واختطفوا منه جُعبته الحافلةَ بالأشياء الميّتة ،
وأربكوا حساباته .

(جماعة أخرى تنشد)

سوف يأزف الزمن الذي يعرف فيه العالم ،
إنّك لن تتوارى خلف ظلالكَ نفسها ،
إنّ قلبك سوف يتفجّر سيولاً ،
منطلقةً من ركام الجليد ،
وريحك الشماليّة تلوي وجهها ،
نحو مثوى الأشباح المرفرفة ،
هنالك يتعالى درداب الطبل السحري ،
وتنتظر الشمس ، وفي نظرتها تشعُّ ضحكة ،
أنِ ترى الى شعرك الشائب يحول الى لونٍ أخضر .

(المساء)

(المسرح الخلفي مظلم ، النور في المسرح الرئيسي يميل الى العتمة ويتحوّل الى لون رمادي أسود) .

(جماعة من الفتية)

إنهم يهتفون جميعاً .

ها هو ذا ، ها هو ذا ، إننا لا نجد حين نبحث عنه ، سوى الغبار والأوراق الجافة . يخيّل إليّ أنني ألمح خفقةَ راية عربته ، عبر الغيوم .

إنّ اقتفاء أثره لأمرٍ شاق ، فتحسبُ تارةً أنه في الشرق وتحسب تارةً أخرى أنه في الغرب .

وهكذا فإننا تعبنا ، ونحن نتتبّع الظلال طوال النهار ، وكذلك تبدّد النهار .

أقول لك الحقيقة ، إنّ الخوف كان لايأتلي يستبدُّ بفكري ، مع مُضيّ النهار ، لقد ارتكبنا خطأً ، إنّ نور الصباح جعل يهمس في آذاننا : «مرحى لكم ، امضوا قُدَماً» ، والآن فإن نورَ السّماء يهزأ بنا .

إنني أخشى أن نكون قد مُنّينا بالخيبة ، وقد شرع يخامرني شعور بإحترام رباعيّات (دادا) أكثر من ذي قبل ، وعمّا قريب سنقتعدَ الأرضَ لننصرف الى نظم رباعيّات .

حينئذ سيقبل الجيران كلّهم ، وسيتحلّقون حولنا ، وسيظفرون بفائدةٍ كبيرةٍ من فطنتنا ، بحيث لن يتخلّوا عنّا أبداً .

وسنرسخُ هنا ، كصخرةٍ كبيرة ، باردة ثابتة .

سيتشبّثون بنا ، كضبابٍ مرزمٍ كثيفٍ ، ونحن جالسون ثمّة .

إنني أتساءل : ترى ماذا يفكّر فينا مرشدنا ، إن تسنّى أن يسمعنا الآن ؟

إنني موقن أنّ مرشدنا هو الذي تركنا نتشرّد ، لقد حملنا على كدحٍ لا طائل فيه ، فيما هو يستمرىء الدعة والكسل .

لننكفئ على أعقابنا ولنكافحه ، سنقول له : لن نتقدّم خطوةً واحدة ، ولكن سنتربّع ، ثانين أرجلنا تحتنا ، إنّ هذه الأرجل هي مشرّداتٌ ، فهي تضربُ دوماً في الدرب .

ستتماسكُ أيدينا ، بقوّةٍ ، خلف ظهورنا ، فليس ثمّة أذى من خلف ، إنّ الإزعاج كلّه يأتي من أمام ، فالظهر هو من بين أعضاء جسمنا كلّه ، أكثرُها استيثاقاً ، إنه يقول : اضطجع على الأرض .

إنّ صدورنا تنتفخ في خيلاء حين نكون شباباً ولكن ، في النهاية لن يكون في وسعنا سوى الاضطجاع على ظهورنا .

ويخطر في ذهني الجدول الصغير المتدفّق الذي يمر بقريتنا ، في هذا الصباح ، لقد مَثُلَ في خاطري أنه يقول لنا : «الى الأمام» ، بيدَ أنه كان يقول في الواقع : «زيفٌ وخداعٌ» ، إنّ العالم كلّه خداع .

فـــــتى : لقد تعوّد حكيمنا أن يقول لنا ذلك .

فتى آخر : سنمضي الى الحكيم حين نعود .

فتى آخر : لن نخطو خطوةً واحدة تتجاوز حدود ما خطّه الحكيم .

فتى آخر : أي خطأ وقعنا فيه ، لقد حسبنا أنّ التحرّك ، في حدّ ذاته ، عمل بطولي .

فتى آخر : ولكنّ عدم التحرّك هو الأمر البطولي حقّاً ، لأنه تحدٍّ للكون المتحرّك كلّه .

فتى آخر : يا لنا من ثائرين شجعان! لن نتحرّك أبداً ، سوف نؤتى الجرأة ، لنمكث هادئين ، ولن نريم بوصةً واحدةً .

فتى آخر : « إنّ الحياة والشباب زائلان » ، كذلك يقول السّفْرُ القديمُ ، لتمضِ الحياةُ والشباب الى الجحيم فلن نتحرّك أبداً .

فتى آخر : « إنّ فكرنا وثروتنا زائلان » ، كذلك يضيف السفر القديم ، ونقول نحن : « دعهما يمضيان ، والزم مجلسك » .

فتى آخر : لنعدْ الى النقطة التي بدأنا منها .

فتى آخر : ولكن هذا قد يتطلّب منّا أن نتحرّك .

فتى آخر : اذن ماذا ؟

فتى آخر : اذن لنلزم مجلسنا ، حيث جئنا .

فتى آخر : ولنتخيّلْ أننا كنّا هنا قبل أن نأتي .

فتى آخر : أجل ، أجل ، إنّ هذا يحمل أذهاننا على الهدوء ، فلو أننا جئنا من مكانٍ آخر ، فإنّ الذهن يحنّ إلى هذا المكان .

فتى آخر : إنّ أرضَ هذا المكان هي أرض خطرة .

فتى آخر : هناكَ يتحرّك أديمها ، بله طرقها ، أمّا نحن...

(ينشدون)

إننا نتشبّث بمجلسنا ولا نتحرّك البتّة .
ونسمحُ لزهورنا بأن تصوّح في أمن ،
ونتجنّب عناءَ حمل الثمار ،
لتنفضْ النجوم المتألّقة جنونها الأبدي ،
فإننا نطفىء شعلتنا ،
لترتعش الغابةُ وليزأر البحر ،
فإننا نجلس صامتين .
ليقبلْ نداءُ الموجةِ الهادرةِ من البحر ،
فإننا نمكث هادئين .

فـــتى : ألا تسمعونَ هذا الضحك ؟

فتى آخر : أجل ، أجل ، إنه ضحك .

فتى آخر : يا لها من سلوى! إننا لم نسمع هذا الصوت منذ عصور .

فتى آخر : لقد كنّا نتشوّف الى لهاث ضحكة .

فتى آخر : إنّ هذا الضحك ينحدر الينا كأنّه ديمة نيسان .

فتى آخر : من يضحك هكذا ؟

فتى آخر : ألم تستطع أن تحزر ؟ إنه صاحبنا (شاندرا) .

فتى آخر : أيّ هبة رائعة أوتيها في ضحكة ، إنه كشلالٍ يجرف الأحجارَ السوداءَ من طريقه .

فتى آخر : إنّه كشعاعِ الشّمس يفري الضبابَ بسيفه ، إرباً إرباً .

فتى آخر : إنّ خطر حمّى الرباعيّات كلّه قد زال الآن ، فلننهض .

فتى آخر : منذ هذه اللحظة ، لن نبلوَ شيئاً غيرَ العمل ، كما يقول السِّفرُ القديم : « إنّ كلّ شيء في هذا العالم زائلٌ ، ولايعيش إلاّ من يقوم بواجبه ويظفر بالشّهرة » .

فتى آخر : لماذا تستشهد بهذا ، ألا تزال تشكو من حمّى الرباعيّات ؟

فتى آخر : ماذا تعني بالشهرة ، تُرى أيكترث النهر بزبده ؟ إنّ الشهرةَ هي الزبدُ المتناثرُ من تيّار الحياة .

(يدخل شاندرا والمنشد الضرير)

حسنٌ يا (شاندرا) ، ما الذي يجعلك جذلانَ ؟

شاندرا : لقد تقصّيت أثرَ الرجل الشيخ .

فتى : من الذي هداك اليه ؟

شاندرا : هذا الشيخ المنشد .

فتى : إنه يبدو أعمى .

شاندرا : أجل ، لهذا فإنه لم يُعْنَ بأن يبحث عن طريقه .

فتى : ماذا تقول ؟ أيكون قادراً على أن يهدينا سواءَ السبيل ؟

المنشد : أجل .

فتى : ولكن كيف ؟

المنشد : لأنني أستطيع أن أسمع خفقَ الخُطا .

فتى : إنّ لنا آذاناً ، ولكن...

المنشد : إنني أسمع بكياني كلّه .

شاندرا : لقد هبّوا جميعاً مذعورين ، حين سألت عن أخبار الرجل الشيخ ، إنّ هذا المنشد وحده يتراءى غيرَ مذعورٍ ، إنه لا يخاف لأنه يستطيع ، فيما أحسب ، أن يرى .

المنشد : أتعلمونَ لِمَ لا أخاف ؟ حينَ أفلتْ شمسُ حياتي وأضحيتُ أعمى فإنّ الليل الداجي قد نَفَضَ لي أنوارَه كلّها ، ومنذ ذلك اليوم ، لم أعدْ أفرَقُ من الظلمة .

فتى : لنمضِ إذن ، لقد ارتفع نجم السّماء .

المنشد : دعوني أغنّ ، وامشوا فيما أنا أغنّي ، واتبعوني . ليس في

مكنتي أن أجد طريقي إنْ لم أغنّي .

فـــتى : ماذا تَغني ؟

المنشـد : إنّ أغنياتي تتقدّمني وأنا أتبعها .

يـنشـــد : ينشد : رويداً ، رويداً ياصاحبي ، امضِ الى غرفتكَ الصّامتة .

إنني لا أعرف الطريقَ ، فليسَ لديّ النور .

إنّ حياتي وعالمي مظلمان .

ليس لديّ سوى خفقِ خُطاك .

يقودني وأنا في هذه العزلة .

رويداً ، رويداً ، ياصاحبي ، امشِ علىٰ الشاطىء المظلم ،

دع نداءَ الطّريق يقبلْ هامساً ، تحتَ جنح الدجى ، محمولاً على نسيم نيسان ،

ليسَ لديّ سوى شذا إكليلك ، يقودني وأنا في هذه العزلة .

الفصل الرابع

(مقدّمة غنائيّة)

(رهط من الفتيان ، يجسّدون الأشياءَ الفَتيّة ، يدخلون ويعرّفون بأنفسهم في النشيد التالي) .

نشيد الشباب العائد

مرّةً إثرَ مرّةٍ ، نردّدُ : «الى اللقاء» ،
لنعودَ مرّةً إثر مرّة .
وأنت من أنت ؟
أنا زهرة (فاكول) .
ومن أنت ؟
أنا زهرة (بارول) .
ومن هذه ؟
نحن براعم المانجو الراسية على شاطئ النور ،

إننا نضحك ونمضي ، حين يومىء لنا الزمن .
إننا نندفع الى ذراعي العودة الأبديّة .
ولكنّ من أنت ؟
أنا زهرة (شيمول) .
ومن أنت ؟
أنا عنقود (كاميني) .
ومن هذه ؟
نحن الجمهرة المحتشدة من الأوراق الفتيّة .

(يتراءى الشتاء في إهاب الربيع ويجيب عن الأسئلة التي تُلقيها جوقة الأشياء الفتيّة)

نشيد الأعباء المطروحة

الا تقرُّ بهزِيمتك بساعد الشباب ؟
بلى .
ألم تلتقِ أخيراً بالشيخ الذي لايقدّر عمره والذي يظلّ دوماً في ريق الشباب .
بلى .
ألم تتخطّ الجدرانَ التي تتداعى وتدفِن كلَّ من يستظلّ بها ؟
بلى .

(جماعة أخرى تنشد)

ألا تقرّ بهزيمتكَ بسواعد الحياة ؟

بلى .
هل مررتَ عبر الموت ، لتمثلَ أخيراً ، وجهاً لوجه أمام الخلود ؟
بلى .
ألم توجّه الضربةَ الى التراب الشيطاني الذي يبتلعُ مدينتكَ الخالدة ؟
بلى .

(تحيط به أزاهير الربيع وتنشد)

نشيد الجمال الغضّ

كنّا ننتظر على حَيْدِ الطريق ، نحصي الاويقات ،
حتّى تجلّيت في صباح نيسان .
أنت تقدم كجندي فتي ظافرٍ بالحياة ، ماثلٍ أمام باب الموت .
إيه ، يالروعة ذلك!
إننا نصغي ، وقد أخذتنا الدهشةُ ، الى موسيقا صوتك الفتي .
إنّ معطفك يخفق في الريح .
كأنه شذا الربيع ،
إنّ الغصنَ الأبيضَ من زهور (المالاتي) المعقودَ
فوق شعرك يتوامض كأنّه عناقيدُ النجوم .
إنّ ناراً تتأجّج خلف قناع ابتسامتك .
اوه ، يالروعة ذلك!
ومن يدري ، أين خُبّئتْ سهامك .
التي تصمي الموت ؟ .

الليل

(المسرح الخلفي مظلم ، والنور في المسرح الرئيسي يعتّم بسواد الحزن وحمرته الأرجوانيّة)

(تدخل جماعة من الفتية)

فتى : لقد مضى (شاندار) من جديد ، مخلّفاً إيّانا .

فتى آخر : إنه لمن الصعب أن يُحمَل على الهدوء .

فتى آخر : إننا نشدُ الراحةَ ونحن جالسون ، بيدَ أنه لا يستمرئها الا وهو ماضٍ .

فتى آخر : لقد جازَ النهرُ مع المنشد الضرير ، ففي غور عمى الضرير حيث يبحث (شاندرا) عن النور الخفي .

فتى آخر : لهذا فإنّ مرشدنا يدعوه بالغوّاص .

فتى آخر : إنّ حياتنا كلّها تضحي فارغةً حين يغادرنا (شاندرا) .

فتى آخر : ألا تشعر ، مع ذلك بشيءٍ ما في الفضاء ؟

فتى آخر : يخيّل إلينا ، أنّ السماء تنظر الى محيانا كرفيقٍ يلتمس الوداع .

فتى آخر : إنّ هذا الجدولَ الصغيرَ من الماء ينساب في دغل نبات (الكازوارينا) ، إنه يتراءى كدموعٍ منتصف الليل .

فتى آخر : إننا لم نراعِ الأرض ، من قبل ، بمثل هذا الإهتمام .

فتى آخر : حين نعدو ، بعدئذ ، بأقصى سرعة ، فإنّ عيوننا تنظر الى أمام ، ولا نرى أيّ شيء الى جانبنا .

فتى آخر : وإن لم تتحرّك الأشياء ولم تغبْ ، فلعلّنا لا نرى جمالاً في أيّما مكان .

فتى آخر : وإن لم يؤتَ الشبابُ سوى حَرارة الحركة ، فلعلّه يجفّ ويضوي ، ولكنْ لديه دوماً الدمعة الخفيّة التي تجعله رطباً نديّاً .

فتى آخر : إنّ صرخة العالم ليست كلمة «عندي» وحسب ، بل كلمة «أعطي» أيضاً ، ففي الفجر الأوّل من الخلق ، كانت كلمة «عندي» قد زُفّتْ الى كلمة «أعطي» ، فلو تراخت هذه الصلة ، الى القطع ، لآل كلّ شيء الى الخراب .

فتى آخر : لا أدري الى أين سيفضي بنا هذا المنشد الضرير ، أخيراً .

فتى آخر : تتراءى هذه النجوم المطلّةُ علينا في السّماء كأنها نظرات العيون التي لاحصر لها والتي التقينا بها في العصور المنسيّة الغابرة كلّها ، وتتراءى زفرة الذين نسيناهم كأنّما تخلص إلينا من خلال الزهور ، قائلةً لنا : «تذكّرونا» .

فتى آخر : سوف تنصدعُ قلوبنا إنْ لم نغنّ .

(ينشدون)

هل خلّفت حبّك وراءك يا قلبي ؟
وهل افتقدتَ الأمنَ طوال أيّامك كلّها ؟
أتكون الطريق التي سعيت فيها قد أصبحت مضيّعةً منسيّةً ؟
جاعلةً عودتَك دون أمل ؟
إنني أمضي ، مطوّفاً ، مصغيّاً الى ثرثرة الجدول ، وحفيف الأوراق ،
ويخيّل إليّ أنني سوف أجد طريقي التي تفضي الى أرض الحب الضائع ،
خلف نجوم السّماء .

فتى : يا لهذا اللحن الغريب! إنه يتناهى من موسيقا الربيع .

فتى آخر : إنه يبدو كلحنِ الأوراق الصفر .
فتى آخر : إنّ الربيع قد ادّخر دموعه لنا ، خفيةً ، أثناء ذلك .
فتى آخر : كان يخشى ألا نفهمه ، لأننا كنّا فتياناً أغراراً .
فتى آخر : كان يريد أن يغرّر بنا بابتساماته .
فتى آخر : ولكننا سوف نرقد قلوبنَا ، الليلةَ ، في كآبة الشاطىء الأخر .
فتى آخر : آه ، أيّتها الأرض العزيزة ، أيّتها الأرض البهيّة ، إنها تريد كلّ ما في حوزتنا ، تريد لمسةَ أيدينا ، أغنية قلوبنا .
فتى آخر : تريد أن تستنبط ما في أعماقنا ، ولو كان ذلك خافياً علينا .
فتى آخر : إنّ حزنها هو أن تعلم ، إذ تعثّر على بعض الأشياء ، إنها لم تعثرْ على كلّ شيء ، إنها تضيّع الشيءَ قبل أن تدركه .
فتى آخر : آه ، أيّتها الأرض العزيزة ، لن نتنكّر لك أبداً .

(ينشدون)

سوف أزيّنكِ بإكليلي
قبلَ أن أغادركِ ،
إنّك تكلّمينني ، دوماً ، في أفراحي وأحزاني كلّها .
والآن ، في نهاية اليوم ، فإنّ قلبي سَيَنْفَطر بالكلام .
إنّ الكلمات توافيني ، دون أن يوافي اللحن . والأغنية التي لم أغنّها لك قط ، تبقى خبيئة ، خلف دموعي .

فتى : ألم تلحظ يا أخي أحداً ما ، قد مرّ ، فيما يبدو من هنا ؟
فتى آخر : إنّ الأمر الوحيد الذي تشعر به ، هو مروره هذا .
فتى آخر : لقد شعرتُ بلمسةِ معطف أحد عابري السبيل .
فتى آخر : لقد مضينا لنأسر شخصاً ، ولكننا نشعر ، الآن ، بتوقنا الى أن نُؤسر نحن .

فتى آخر : آه ، ها هو ذا المُنشـد ، الى أين جئت بنا ؟ إنّ لهاث العالم الرحالة ، لهاثَ السّماء المطرّزة بالنجوم قد لامسنا هنا .

فتى آخر : لقد قدمنا ، باحثين عن شكل مسرحيّة جديد ، ولكننا أنسينا ، الآن ، أيّ مسرحيّة نريد .

فتى آخر : لقد أردنا أن نأسر الشيخ الرجلَ .

فتى آخر : الجميع يقولون إنّ مرآه مرعب ، فهو ذو رأس لا جسمَ له وشدقٍ فاغرٍ ، إنّه تنّينٌ يتّقد رغبةً في التهام قمر شباب العالم ، ولكننا لا نستشعر ، الآن ، أيّ خوف . إنّ الزهور تصوّح والأوراق تذبل ومويجات النهر تحبو ، ولسوف نأخذ نحن بمدرجتها أيضاً . إيهِ أيها المنشد الضرير ، أمسك بمزهركَ وغنّ لنا ، من يعلم في أيّ ساعة نحن من الليل ؟

(المنشد الضرير ينشد)

دعني أهبْ نفسي كلّها ، قبل أن أسألَ ذلكَ ،
لمن يهبُ له العالمُ نفْسَهُ كلّها .
حين جئته للفوز بنواله فإنني لم أخف .
ولن أخاف حين أقدم إليه ،
لأزجي إليه كلّ مافي حوزتي .
إنّ الصباح يتقبّل الذهب الموشّى بالأغاني ،
والمساء يردُّ له ذهبه ، مغتبطاً ، جذلان .
إنّ فرحة الزهرة المنوّرة تفيء الى ثمرة ،
مع تساقط أفوافها .
أسرع ياقلبي ، وبَدّدْ نفسَكَ في الحب ،
قبلَ زوال النهار .

فـــتى : أيّها المنشد ، لِمَ لايزال (شاندار) غائباً حتّى الآن ؟

المنشـد : ألا تعلمون أنه قد مضى ؟

فـــتى : مضى الى أين ؟

المنشـد : لقد قال : «سأمضي لأظفر به» .

فـــتى : من ؟

المنشـد : الذي يخشاه الجميع ، لقد قال : «فيمَ اذن أنا شاب» ؟

فـــتى : آه ، إنه لأمـرٍ رائع ، إنّ (دادا) مـضى ليـتلو رباعـيّـاته على الفلاحين ، و(شاندرا) قد اختفى دون أن يدري أحد أيّ قصدٍ حمله على ذلك .

المنشـد : إنه يقول : «إنّ الرجال قد حاربوا ، دوماً ، في سبيلِ قضيّةٍ ما ، وإنّ التحام هذا الصراع هو الذي يكدّرُ نسيم هذا الربيع» .

فـــتى : التحام ؟

المنشـد : أجل ، إنها الرسالة التي تقول أنّ صراع الرجال لمّا ينته بعد .

فـــتى : أتكون هذه الرسالة هي رسالة الربيع ؟

المنشـد : أجل . أولئك الذين أضحوا بالموت خالدين ، بعثوا برسالتهم في الأوراق الريّا من الربيع ، تقول هذه الرسالة : «إننا لم نشك في الطريق قط ، ولم نحصِ الثمن ، لقد اندفعنا ، لقد تفتّحنا ، فإذا اتّخذنا مجلسنا لنتناقش ، فأين يمكن أن يكون الربيع ؟» .

فـــتى : أتكون هي الرسالة التي جعلت (شاندرا) مجنوناً ؟

المنشـد : إنه يقول :

(المنشد ينشد)

إنّ زهور الربيع قد ضفرت لي اكليل النصر .

إنّ ريح الجنوب تزفر لهاثها الناريّ من دمي ،

إنّ النحيب الذي يتردّد ، دون جدوى ، في ركن البيت ، يتناهى من خلف .
ويمثّل الموت أمامي ، مقدّماً إكليله .
إنه عاصفة الشباب تمسُّ بأناملها معزفَ السّماء ،
وقلبي يرقص على لحنها الوحشي ،
ليس لي أنْ أجني وأختزن .
إنني أنفقُ وأبدّدُ ،
إنّ البصيرة والراحةَ تودّعانني في يأس .

فــتى : ولكن الى أين قد مضى ؟

المنشـد : يقول : «ليس في ميسوري الإنتظار ، على عذار الطريق ، أكثر من ذلك ، يتعيّن عليَّ أن أذهب وأجتمع إليه وأظفر به» .

فــتى : ولكن ، أيّ طريقٍ قد سلك ؟

المنشـد : لقد دخل الغار .

فــتى : كيف فعل ذلك ؟ إنّ في الغار ظلمةً مخيفةً ، تُراه ، دون أن يستوضح قد...

المنشـد : أجل لقد مضى ليستوضح بنفسه .

فــتى : متى سيعود ؟

فتى آخر : أعتقد أنه لن يعود أبداً .

فتى آخر : ولكن إن تركنا (شاندرا) ، فإنّ الحياة تغدو غيرَ جديرة بأن تعاش .

فتى آخر : وماذا تقول لمرشدنا ؟

فتى آخر : سوف يتركنا مرشدنا أيضاً .

فتى آخر : تراه ترك لنا رسالةً ، قبل أن يغيب ؟

المنشـد : لقد قال : « إنتظروني ، سأعود » .

فـــتى : سيعود ؟ ولكن ، أيها المنشد ، أين يجب أن ننتظره ؟

المنشـد : أمام الغار الذي ينبجس منه جدول الماء متدفّقاً .

فـــتى : أيّ طريق قد سلك ليصل الى هناك ؟

فتى آخر : إنّ الظلمة فيه تتراءى كسيفٍ مظلم .

المنشـد : لقد تسمّت صوت رفيفِ أجنحة الطائر الليلي .

فـــتى : لِمَ لم تذهب معه ؟

المنشـد : لقد تركني هنا لأمنحكم الأمل .

الفـــتى : متى ذهب ؟

المنشـد : في الساعة الأولى من الليل .

فـــتى : أحسب أنّ الساعة الثالثة قد مضت ، والفضاء رطيبٌ بارد .

فتى آخر : حلمتُ أنّ ثلاثاً من النساء ، بشعرهنّ المحلول...

فتى آخر : إيه دعنا من حلمك بالنساء ، إنني مُضنىً بأحلامك .

فتى آخر : كلّ شيء يبدو ، نذيراً بشؤم مظلم ، لم أنتبه ، من قبل ، الى نعيق البوم ، ولكن الآن...

فتى آخر : ألا تسمع نباح الكلب ، على العدوة البعيدة من النهر ؟

فتى آخر : يبدو أنّ ساحرةً تركبه ولا تأتلي تجلّده .

فتى آخر : من المؤكّد أنه لو تيسّر لـ (شاندرا) أن يعود لكان قد عاد الآن .

فتى آخر : كم أودّ أن تنقضي هذه الليلة .

فتى آخر : ألا تسمع صرخة إمرأة ؟

فتى آخر : أوه ، النساء ، النساء ، إنّهن ينشجن ويبكين دوماً ، ولكنّهن لايستطعن أن يحملن على العودة أولئك الذين يجب عليهم أن يمضوا قدماً .

فتى آخر : إنّ الجلوسَ في هدوءٍ ، هكذا ، أضحى غير محتملْ ، إنّ الرجال

يتـخـيّلون ألواناً من الأشـيـاء ، حـين يجلسـون هادئين ، دعنا نذهب أيضـاً ، فـإمّـا بدأنا السـيـر في طـريقنا ، فـإن الخـوف يفارِقنا .

فتى آخر : ولكنْ من الذي يرشدنا الى الطريق ؟

فتى آخر : هناك المنشد الضرير .

فتى آخر : ماذا تقول ؟ المنشد ؟ أتستطيع أن ترشدنا الى الطريق ؟

المنشـد : أجل .

فـــتى : ولكن لا نستطيع أن نؤمن في ذلك إلا في صعوبة ، كيف يكون في ميسورك أن تهتدي الى الطريق بغنائك وحده .

فتى آخر : إن لمْ يعد (شاندرا) فلسوف تفعل ذلك أنتَ .

فتى آخر : لم نكن نعرف أننا نحب (شاندرا) على هذا النحو العنيف ، لقد كنّا نقبس منه في تلك الأيام جميعها .

فتى آخر : وحين يواتينا مزاج اللعب ، فإننا ننصرف الى اللعب إنصرافاً هو من القوّة بحيث نهمل رفيق اللعب .

فتى آخر : ولكن ، إن اتّفق وعاد إلينا فلن نهمله أبداً .

فتى آخر : أخشى أن نكون قد آلمناه في أكثر الأحيان .

فتى آخر : ولكنّ حبّـه يرتفع فـوق ذلك كلّه ، إننا لم نعـرف قط ، كم كـان جميلاً وطيّباً ، حين كان في ميسورنا أن نراه كلّ يوم .

(ينشدون)

حينَ كانَ النور يملأ عالمي . . ،
فقد كنتَ تجلس بمنأى عن ناظري ،
أمّا الآن ، وقد تلاشى النور ، فإنّك تقبل إلى قلبي .
حين كان في حوزتي دُمىً ، فقد كنت ،

ألهو بها ، وكنت تبسم لي ، ساهراً عليّ
الى جانب الباب ، والآن وقد تفتّت هذه الدمى ، وأضحت ترابا ، فإنّك تقدم وتجلس الى جانبي .
لم يبقَ لديّ سوى قلبي ، كموسيقا لي ، حين تقطّعت أوتار معزفي .

فـــتى : إنّ المنشد يجلس ، بالغ الهدوء والصمت ، أنا لاأحبّ ذلك .

فتى آخر : إنه يبدو نذير شؤمٍ كسحابة الخريف الثقيلة .

فتى آخر : لنصرفه .

فتى آخر : لا ، لا إنه يهب لنا الشجاعة ، حين يجلس هناك .

فتى آخر : ألا ترون أنّ محيّاه خالٍ من أيّ أمارةِ خوف ؟

فتى آخر : إنه يبدو وكأنّ رسالات كانت تضرب جبهته ، ويتراءى جسمه وكأنه يكشف عن شخصٍ ما ، في المدى البعيد ، ويمثّل في الخاطر وكأنّ له عيوناً في أطراف أنامله .

فتى آخر : إنّ في ميسورنا أن نرى ـ من ملاحظته ليس غير ـ أنّ شخصاً ما بسبيل المجيء عبر الظلمة .

فتى آخر : انظروا ، إنه ينهض واقفاً ويستدير نحو الشرق ويحيّه بولاء .

فتى آخر : ومع ذلك فلا يبين أيّ شيء ، بله أيّ خيط من نور .

فتى آخر : لمَ لا يسأل عمّا يراه ؟

فتى آخر : لا ، لا تزعجه .

فتى آخر : أتعلم ؟ يخيّل إليّ أن فجراً ينبلج فيه .

فتى آخر : كأنّ زورقاً كبيراً من نور قد رسا على شاطىء جبهته .

فتى آخر : إنّ فكره هادىء كسماءِ الصباح .

فتى آخر : إنّ عاصفة أغاني الطيور ستهبّ عمّا قريب .

فتى آخر : إنه ليمسك بمعزفه ، إنّ قلبه ليغنّي .

فتى آخر : صه ، إنه ينشد .

(المنشد ينشد)

النصر لكَ ، النصرُ لكَ دوماً .
أيها القلب الشجاع .
النصر للحياة ، للفرح ، للحب ،
للنور الخالد ،
سينقضي الليل وسينمحي الظلامُ .
تمسّك بالإيمان أيها القلب الشجاع ،
استيقظ من النوم من فتور اليأس ،
واستقبل بالأغاني نور الفجر الجديد .

شعاعٌ من النور يرفّ على الغار

فـــتى : آه ، ها هو ذا (شاندرا) ، (شاندرا) .
فتى آخر : صه ، لا تثر أيّ ضجّة ، لا أستطيع أن أستبينه بوضوح .
فتى آخر : آه ، لا يمكن أن يكون أحد غير (شاندرا) .
فتى آخر : آه ، ياللفرحة!
فتى آخر : (شاندرا) تعال .
فتى آخر : (شاندرا) ، كيف قدرت على فراقنا ، هذا الأمد الطويل ؟
فتى آخر : أكان في مقدورك أن تأسر الرجلَ الشيخَ ؟
شـــاندرا : أجل ، كان في مقدوري ذلك .
فـــتى : ولكننا لا نراه .
شـــاندرا : إنه قادم .
فـــتى : ولكنّ هلاّ قلتَ لنا ماذا رأيت في الغار ؟

شـــاندرا : لا ، لا أستطيع أن أقول لكم .

فـــــتى : ولِمَهْ ؟

شـــاندرا : لو كان عقلي صوتاً لإستطعت أن أقول لكم .

فـــــتى : ولكنْ هل استطعت أن ترى من أسرتْ ؟ أيكون رجلَ العالم الشيخ ؟

فتى آخر : الرجل الشيخ الذي يودّ أن ينهل بحر الشباب ، بظمأه الذي لا يُنقع .

فتى آخر : أيكون ذلك الذي يشبه الليل الحالك ، والذي ثبتت عيناه في صدره ، والذي انحرفت قدماه عن الوضع السوي ، والذي يمشي إلى خلف ؟

فتى آخر : تُرى أيكون ذلك الذي يتوّج رأسه بإكليل من الجماجم ، ويعيش في قاعِ المنية المتأجّج ؟

شـــاندرا : لا أدري ، ليس في مكنتي أن أقول ، ولكنه قادم ، ولسوف ترونه .

المنشد : أجل ، إنني أراه .

(يقوى النور ، شيئاً فشيئاً ، على المسرح ، حتّى يضينه بألقٍ باهر)

فـــــتى : أينْ ؟

المنشد : هنا .

فـــــتى : إنه يخرج من غاره ، ثمّة شخص قادم من الغار .

فتى آخر : ما أجمله!

شـــاندرا : كيف ؟ أهذا أنتْ ؟

فـــــتى : مرشدنا!

فتى آخر : مرشدنا!

فتى آخر : مرشدنا!

فتى آخر : أين الرجل الشيخ ؟

المرشد : غير موجود في أيّ مكان .

فتى : غير موجود في أيّ مكان!

المرشد : أجل ، إنه غير موجود في أيّ مكان .

فتى : إذن من هو ؟

المرشد : إنه حلم .

فتى : إذن أنت الحقيقي .

المرشد : أجل .

فتى : وهل نحن حقيقيّون ؟

المرشد : أجل .

فتى : إنّ الذين رأوك من خلف ، تخيّلوك في أنماطٍ جمّة من الأشكال .

فتى آخر : إننا لم نتعرّفك من تراب الأرض .

فتى آخر : كنت تبدو هرماً .

فتى آخر : ثمّ خرجت من الغار . وأنت تبدو الآن غلاماً .

فتى آخر : يخيّل إلينا ، أننا نراك للمرّة الأولى ، ليس غير .

شاندرا : يخيّل إليكم أنّكم ترونه للمرّة الأولى ، ولسوف يخيّل إليكم ذلك ، المرّة تلو المرّة .

المرشد : (شاندرا) ، ينبغي أن تقرّ بهزيمتكَ ، إنّك لم تستطع أن تأسر الرجلَ الشيخ .

شاندرا : لندعْ مهرجاننا يبدأ ، فقد بزغت الشمس .

فتى : أيها المنشد ، إن مكثت هادئاً هكذا فلسوف يغلبك النوم ، أنشدنا شيئاً .

(المنشد الضرير ينشد)

إنني أفقدكَ ، لأجدك المرّة تلو المرّة .
يا حبيبي .
إنّك تغادرني ليكون في استطاعتي أن أعدَّ لكَ مزيداً من حسنِ اللقاء ،
حين تعود
أنت لا تستطيع أن تتوارى خلف شاشة الزمن ، إلاّ لأنّك لي وحدي ، الى الأبد .
يا حبيبي .
حين أمضي ، باحثاً عنك ، فإنّ قلبي يخفق ، ممّجاً غضوناً عبر حبّي .
إنّك تبتسم ، متنكّراً في لبوس الغائب .
ودموعي تفعم ابتسامتك عذوبة

فتى : أتسمعون هذا الدوي ؟

فتى آخر : أجل .

فتى آخر : ليس بطنين النحل ، إنه لغط الناس في الساحة .

فتى آخر : ينبغي ، إذن ، أن يكونَ (دادا) مع رباعيّاته ، قريباً ، على قيد ذراع .

دادا : أيكون هذا هو المنشد ؟

فتى : أجل يا (دادا) .

دادا : أوه ، إنني لسعيدٌ بأنّك قدمت ، يجب عليّ أن أقرأ مجموعة رباعيّاتي .

فتى : لا ، لا تقرأ ، المجموعة كلّها . بل واحدة منها .

دادا : حسنٌ ، هاكم واحدةً :

إنّ الشمس ماثلة أمام باب المشرق .

إن درداب طبل نصرها يدوي في السّماء .

يقول الليل : إنني مباركٌ ، وموتي هناءةٌ .

إنه يتلقّي صدقته الذهبيّة ، ويملأ جرابه منها ثمّ يرحل .

فـــتى : هذا يعني...

فتى آخر : لا ، لا نريد أن تفسّر لنا .

دادا : إنه يعني...

فـــتى : مهما يكن مايعنيه ، فقد اعتزمنا ألا نعرفه .

دادا : ما الذي يجعلكم قانطين هكذا ؟

فـــتى : إنه يوم مهرجاننا .

دادا : آهِ هل الأمر كذلك ؟ إذن دعوني أمضي الى الجيران كلّهم .

فـــتى : لا ، يجب عليك ألاّ تمضي الى هناك .

دادا : أتوجد حاجة إليّ هنا ؟

فـــتى : أجل .

دادا : إذن فإنّ رباعيّاتي...

شـــاندرا : سوف نلوّن رباعيّاتك بفرشاةٍ ثخينة ، بحيث لا يعرف أيّما إنسان إن كانت تتضمّن معنىً ما .

فـــتى : وعندئذ ستضحي أنت مجرّداً من أيّ معنى .

فتى آخر : وسيهجرك جيرانك .

فتى آخر : وسينظر إليك الحارس الليلي على أنّك مجنون .

فتى آخر : وسينظر إليك الحكيم على أنّك أبله .

فتى آخر : وسيعتبرك أقرب الناس إليك عديم النفع .

فتى آخر : وسيعتبرك الأغراب عجيباً .

شـــاندرا : ولكننا سنتوّجك يا (دادا) بإكليلٍ من الأوراق الغضّة .

فـــــتى : وسنطوّق جيدك بعقدٍ من ياسمين .

فتى آخر : وسنكون وحدنا الذين يعرفون قيمتك الحقيقية .

نشيد مهرجان الربيع

(يجتمع في المسرح الرئيسي أشخاص المسرحية كلّهم ، دون أن يستثنى (سروتي بوشان) ، ليرقصوا رقصة الربيع)

تعالوا واستمتعوا ،
فإنّ نيسان يستيقظ ،
وأرموا بأنفسكم في تيّار الوجود ،
وحطّموا قيد الماضي .
إنّ نيسان يستيقظ ،
وبحر الحياة غير المتناهي .
يجيش ، أمامك ، تحت أشعّة الشمس .
كل ما هو مضيّع قد ضاع ،
والموت قد غرق بين أمواجه ،
فغص في أعماقه ، دون خوف .
وغبطة نيسان تملأ حنايا قلبك .

شيترا

مقدمة

تتكئ هذه المسرحية الغنائية المكتوبة عام ١٨٨٩ على القصة التالية المأخوذة عن (المهابهاراتا) :

بينما كان (أرجونا) يسعى في مضطربه ، استجابةً لنذر له ، توقّف في ، (مانيبور) وبصر ثمّة بالحسناء (شيترا نفادا) ابنة (شيترا فاهانا) ملك المقاطعة ، ففتن بقسماتها وخطبها الى أبيها واستوضحه (شيترا فاهانا) عن شخصه . ولمّا عرف أنّ الماثل أمامه هو (أرجونا باندااما) قال له :

- إنّ (برابهانجانا) أحد أجدادي ، من الأسرة الملكية في (مانيبور) ظلّ أمداً طويلاً دون عقب . فتكلّف أنواعاً من النذور القاسية ليرزق بوريثٍ ، وسرّ الرب (شيفا) بما بلا به الملك نفسه من الجهد فحقّق له رغبته ، على أن يقدر له ولكل من أعقابه طفل وحيد . وقد حدث إنّ كلّ طفل موعود من سلالته كان غلاماً . غير انني كنت أول من رزق بانثى هي (شيترا نفادا) التي سيدوم بها نسبي . وقد ربّيتها كما لو كانت غلاماً وجعلتها وريثةً لي .

وتابع الملك كلامه قائلاً

- إنّ الغلام الذي سيولد منها ينبغي أن تنحدر منه سلالتي ، هذا الغلام هو الثمن الذي سأطالب به لقاء هذا الزواج ، فلك أن تبني بها ، إن شئت ، بهذا الشرط .

فوعده (ارجونا) بذلك ، واتّخذ (شيترانفادا) زوجاً له ، وعاش معها في عاصمة أبيها ثلاثة أعوام ، ولمّا رزق منها بغلام ، عانقها في حنانٍ ، وودّعها ثمّ ودّع أباها ، وانصرف عائداً الى تجواله .

الأشخاص

الآلهة :

مادانا (ايروس) : إله الحب .

فازانتا (ليكوريس) : إله الربيع .

الفانون :

شيترا : ابنة ملك (مانيبور) .

أرجونا : أمير من أسرة (كوروس) وهو من طائفة (كشاتريا) المحاربة ، يسيم في المسرحيّة حياة ناسكٍ في الغابة .

قرويون : من ضواحي مقاطعة (مانيبور)

ملاحظة :

مثّلت هذه المسرحيّة الشعرية في الهند ، دون أيّ تزويق مسرحي (ديكور) فكان الممثّلون يلعبون ، يتحلّقهم النظارة .
وقد وجهت ، حول عرض المسرحيّة ، اقتراحات إلى المؤلّف ، فأضاف الى هذه الترجمة (التي أدّاها المؤلّف نفسه بالإنكليزية) بعض الإيضاحات ، بيد أنه رغب في أن تحذف ، حين تطبع المسرحية في كتاب .

المنظر الأوّل

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شـيـتـرا : أأنت الاله ذو السهام الخمسة ؟ أأنت إله الحب ؟

مـــادانـا : أنا أوّل من ولد في قلب الخـالـق ، أنا من يشـدّ بقـيـود العناء والهناء ، حياة الرجال الى حياة النسـاء .

شـيـتـرا : أجل ، إنّ قلبي ليعرف هذه القيود ويبلو هذا العناء ، وأنت ، من أنت يا مولاي ؟

فـازانتـا : أنا صديقه (فازانتا) ملك الفصول . إنّ الموت والفناء موكّلان بالدنيا يكادان ينخران عظامها ، لولا إنّي ألاحقهما ولا أني عن مهاجمتهما حيث ثقفتهما ، فأنا الشاب الخالد .

شـيـتـرا : مولاي (فازانتا) لك أحني هامتي .

مـــادانـا : ولكن أيّ نذرٍ عتيٍّ تكلّفته ؟ أيّتها المجهولة الرقيقة ، لِمَ تضوين صباك الفنيان ، بالتّقشّف والزهد ؟ إنّ تضحيةً كهذه ، لا تأتلف مع عبادة الحب ، فمن أنت ؟ وأيّ صلاة يرتّل فوك ؟

شـيـتـرا : أنا (شيترا) سليلة الأسرة الملكية في (مانيپور) لقد وعد الرب (شيفا) بنعمته الخيّرة وعوداً كريمةً لجدّي الملك ، بذرّيةٍ متّصلةٍ من الذكور بيد أنّ الكلمة الآلـهية لم يتـأتَ لها أن تغيّـر قبس الحياة في بطن أمّي ، لئن خلقني ربّي امرأة ، لقد أوتيت طبعاً عصيّ القياد .

مــــادانـا : أعلم ذلك ، لهذا فإنّ أباك أنشأك كما لو كنت غلاماً ، فعلمكِ النزع[1] في القوس ، ولقّنك واجبات الملوك .

شــيــتــرا : أجل ، لهذا فقد اتّخذت دثار الرجال ، وعزفت عن خدور النساء ، وإنّي لأجهل حياة المرأة في قنص القلوب ، إنّ يديّ القويّتين لقادرتان على عطف القوس ، أمّا سهام (كيوبيد) فلم أفوّقها قط ، ولم أحذق لعبة لحظ العيون .

مــــادانـا : لغة العيون لاتلقّن أيّتها الشابة الفاتنة ، إنها تريش سهامها وتجرح بلحاظها دون أن تدري ، ولايبلو وقعها إلا من يتلقى طعنتها في فؤاده .

شــيــتــرا : ذهبت الى القنص ذات نهارٍ ، ، وهمت وحدي في الغابة على شاطئ نهر (بورنا) ، وعقدت عنان جوادي بجذع شجرة ، وغبتُ في دغلٍ كثيفٍ ، خلف غزالٍ ، فإذا بدربٍ ضيّقةٍ تتلوّى في فيء غصونٍ متواشجةٍ ، وترتعش أوراقها على غناء الجداجد ، شغفاً ووجداً . وفجأة . . رأيت على الدرب شخصاً مستلقياً فوق الهشيم . طلبت إليه في صلفٍ ، بأن يتنحّى ، ولكنه لم يرم . وحينئذ ، همزته بسية[2] قوسي ، فهبّ ، كأنّه لسانٌ من النار شبّت بكون رمادي ، واستوى ، قائماً ، مشيقاً ، ونسمت على شفتيه ابتسامةٌ مستظرفةٌ ، لعلّ مردّها سيماء الفتى التي كنت أبدو فيها . عندئذ ، شعرتُ ، لأوّل مرّة في حياتي ، بأنّي امرأة ، وأنّ أمامي رجلاً تتمثّل فيه الرجولة الحقّة .

مــــادانـا : متى آن الأوان ، فإنّي ألقّن هذا الدرس السامي : ينبغي لكلّ امرأةٍ ورجلٍ أن يعرف كلّ منهما حقيقة نفسه ، وماذا جرى بعد ذلك ؟

---

(١) نزع في القوس : مدها وجذب وترها .

(٢) سية القوس : طرفها

شـيـتـرا : سألت ، في خوفٍ يمازجه عجب : ترى من تكون ؟ فأجاب : أنا (ارجونا) من قبيلة (كوروس) العظيمة ، عندئذ جمعت وتحجّرت كتمثال ، وانعقد لساني ، ونسيت أن أؤدّي له واجب الإحترام ، أحقّاً أراه ؟ أرى (ارجونا) معبود أحلامي ، أجل ، لقد سمعت ، منذ زمنٍ بعيد ، أنه آلى على نفسه التبتّل مدى اثني عشر عاماً . لطالما هاج قلبي طموح الصبا ، فتمنّيت أن يتكسّر رمحي على رمحه ، فأستثيره ، وأنا متنكّرة الى القتال ، لأريه حذقي في المصاولة بالسلاح . آه ياقلبي المجنون ، أين غابت كبرياؤك ؟ لقد كان يتراءى لي ، كأثمن نعمة أفوز بها ، أن أبادل بتعلات شبابي كلّها ذرّةً من التراب تطؤها قدمه ، ولم أدر في أيّ دوّامة تهت ، حين توارى عن ناظري خلف الأشجار ، يالكِ من امرأة حمقاء! لم تقابليه بالتحيّة ، ولم تعتذري إليه ، وظللت ثمّة واقفة كريفيّةٍ ساذجة ، فيما كان ينأى عنك مستخفّاً بك ، ساخراً ، وفي الغد عفت ثياب الرجال ، تزيّنت بأساورَ وقلادةٍ وتمنطقتُ بزنار وارتديت غلالةً أرجوانيّةً ، وداخلني الخجل من دثاري الجديد الذي لم أعتده ، وانكفأتُ مسرعةً ، أسعى الى طلاب (ارجونا) فوجدته في الغابةِ قريباً من معبد (شيفا) .

مـــادانا : تابعي قصّتك حتّى غايتها ، أنا ربّ القلوب ، وإنني لأعلم أسرار نزوتها .

شـيـتـرا : إنني أذكر على نحوٍ مبهمٍ ، ماقلت وماسمعت . فلا تسلني أن أروي لك كلّ شيء ، إنّ الخجل قد انقضّ عليّ كالصاعقة ، ولكن دون أن يتأتّى له تمزيقي ، لصلابة جبلت عليها تماثل صلابة الرجال ، ولمّا اتّخذت سمتي ، عائدةً ، الى الدار جعلت كلماته الأخيرة تنفذ الى أذني كإبرٍ ملتهبةٍ .

«لايمكن أن أضحى زوجاً لك فقد نذرت نفسي على التبتّل»
آه ، يالنذر الرجال ، أنت تعلم يا إله الحب . إنّ الكثيرين من القديسين والحكماء قد أزجوا إلى قدمي امرأة ، كلّ ما نالوا من اعتبارٍ وتقديرٍ ، في حياة ملأى بالتّقشف ، وقصفت قوسي ، ونبذت سهامي الى النار ، وكرهت ذراعي الفتيّة المدرّبة على شرعة[1] القوس . إيهٍ يا رب الحب ، لقد استنزلت الى التراب ، كبريائي العقيمة ، كبرياء قوّتي الفحلة ، إنّ مراستي كلّها تقبع محطّمةً ، عند قدميك . زوّدني الآن بدروسك . هب لي بأس الضعيف ، وامنحني السلاح الغلاب ، سلاحَ اليد العزلاء .

مـــادانا : سأكون صديقاً لك ، وسأسوق إليك فاتح العالم (أرجونا) أسيراً ، ليلقى على يديك جزاء تمرّده .

شـيـتـرا : لو انفسح لي الوقت لأتيح لي أن أظفر شيئاً فشيئاً بقلبه ، دون أن أستمدّ عون الآلهة ، فأقف الى جانبه ، كرفيقٍ له ، وأقود جياده العارمة التي تجرّ مركبته المحاربة وأرافقه في رحلاته الى الطراد ، فأحرسه وأسهر عليه ، ليلاً ، أمام باب خيمته ، وأعينه على أداء واجبه كرجلٍ من طائفة (كشاتريا) ، ليحمي الضعيف ، وينتصف للحق ، ويقيم العدل ، وأخيراً سوف يقبل يوم يلمحني فيه ، فجأةً ، وسوف يتساءل : «من هذا الفتى ؟ تراه عبداً رقيقاً من عبيدي قد لزمني من قبل وتبعني في مضطربي هذا ؟» .
لا ، لست كتلك المرأة التي تغذو يأسها بالصمت والعزلة ، وتنضجه بعبرات الليالي ، وتواريه بالبسمة الصابرة ، نهاراً ، ولا كتلك المرأة الأيم التي فطرت على الترمّل ، منذ مولدها . إنّ

---

(١) شرعة القوس : وترها .

زهرة رغباتي لن تتهاوى إلى التراب قبل أن تؤتي أكلها . إنّ كدح الحياة كلّها هو الذي يمكّننا من معرفة ذاتنا الحقيقيّة وإكبارها . ولهذا قصدت بابك أيها الحب . يا من قهرت العالم ، وأنتَ (فازانتا) ياسيّد الفصول الشاب ، أجتث من جسمي عيبه الأوّل : فقدان الملاحة الآسرة . هبْ لي في يومٍ واحدٍ فقط ، جمالاً ذا أسرٍ يماثل أسر هذا الحب الوليد المفاجىء في قلبي ، إيهٍ يا إله الحب امنحني يوماً قصيراً أهنأ فيه بالجمال الكامل ، اتبعك ملبّيةً ، في جميع الأيام التي تليه .

مادانا : أيّتها الفتاة ، لقد استجيب دعاؤك .

فازانتا : إنّ سحر براعم الربيع الطلق ، سوف يسربل جسمك الناضر ، لا في أمدٍ قصيرٍ من يومٍ عابرٍ ، بل في مدى عام كامل .

المنظر الثاني

(ارجونا ، شيترا)

ارجــونـا : تراني كنت أحلم ؟ أمْ أنّ مـا رأيت على ضـفـاف البـحـيـرة كـان حقيقة ؟ . كنت قد اقتعدتُ الأرض المكسوّة بالطحلب ، ناعماً بالظلال المتطامنة من السّماء ، مفكّراً في الأيام الخالية ، حين انساب ، رويداً ، رويداً ، من غور عتمة الأوراق ، طيفٌ من الجمال كاملٌ نقيٌ ، طيف امرأة . وقفت على سيف الماء ، فوق بلاطةٍ بيضاءَ من حجر ، فكأنّ قلب الأرض كان يخفق ، جذلانَ ، تحت قدميها العاريّتين . وكان يخيّل إليَ أنّ الغلالة الهفهافة التي تلفّ جسدها ، تذوب نشوةً في الفضاء ، كما تذوب غمامة الفجر الذهبية المنزاحة عن قمّة الرابية الشرقية المكلّلة بالثلج . وانحنت على المرآة المتلألئة من ماء البحيرة ، وجعلت تديم النظر في وجهها المنعكس على صقال الماء ، وانتصبت واقفةً ، في وجل . وخفقت على شفتيها ابتسامةٌ عذبةٌ ، ثمّ حلّت يدها اليسرى غدائرَ فرعها ، في هينة ومهلٍ ، فانسابت ، أثيثةً ، حتّى لامست قدميها ، وكشفت عن صدرها ، وأمعنت النظر في ذراعيها اللتين تحدوهما الغريزة الى المداعبة الحلوة . وأخذت ترنو ، حانية الرأس ، إلى تفتّح صباها الطري ، وتتطلّع الى حمرة الحياة اليانعة المترقرقة في إهابها الغض . وكانت تشعُ بجذوةٍ مفاجئةٍ سارةٍ ، كما لو أنَ برعماً

من زهر اللوتس الأبيض فتح عينه ، عند منبلج الفجر ، ثمّ لوى جيده ، ليرامق ظلّه ، على صفحة الماء ، وظلّ ، سحابة يومه ، مأخوذاً بنفسه ، منتشياً . بيد أنّ الابتسامة لم تلبث أن تلاشت ، بعد لحظة ، من محياها ، وغام في عينيها ظلّ كآبةٍ ، فعقصت غدائرها ، وغطّت ذراعيها بغلالتها ، وآبت وهي تتنهّد في ونى ، وغابت ، كمساءٍ جميلٍ يمحى في الليل ، وهكذا خيّل إليّ أنّ التحقيق الأسمى للرغبة ، قد تجلّى ، كاملاً ، في ومضة . ثمّ لم يلبث أن اختفى . ولكن من ذا الذي يدفع الباب ؟

(تدخل شيترا الى المعبد ، في زي امرأة)

ارجونا : إنّها هي ، مهلاً ، أيها القلب ، لاتخافي أيّتها الفتاة ، فأنا من طائفة (كشاتريا) .

شيترا : أنت ضيفي ، يا مولاي المبجّل ، إنني أسكن هذا المعبد . كيف أستطيع أن أحوطك بالإكرام الجدير بك ؟

ارجونا : أيّتها الغادة الحسناء ، إنّ مرآك هو في الحق ، أسنى إكرام . ترى أأقدر أن أتّجه اليك بسؤال ، إن لم يسؤك ذلك ؟

شيترا : لك أن تسأل .

ارجونا : أيّ نذرٍ يلزمك أن تظلّي حبيسةً في هذا المعبد المنعزل ويحرم الناس الفانين اجتلاءَ هذا السناء البهي ؟

شيترا : تكمن في قلبيّ رغبةٌ خفيّةٌ ، وأن أتّجه ، كلّ يوم ، بصلاتي إلى الاله (شيفا) لتحقيق هذه الرغبة .

ارجونا : واأسفاه ، أيّ رغبة تتشوّفين إليها أنتِ يارغبة الكون كلّه ؟ لقد ضربتُ أيّتها الفتاة ، في كلّ مرادٍ من الأرض ، سائحاً ، متجوّلاً ، من أقصى الجبال في المشرق ، حيث تطبع ، على ذراها شمس

الصباح أقدامها النارية ، حتّى منتهى أرض المغرب ، ورأيت أنّي سعيت أسمى كلّ شيء وأثمنه وأحلاه ، وإنّي لأضع خبرتي تحت تصرّفك ، وماعليك إلا أن تذكري لي عمّ تبحثين وعمّن تبحثين .

شيترا : إنّ من أبحث عنه معروفٌ من الناس كلّهم .

ارجونا : حقّاً ؟ من هو صفي الآلهة ، هذا الذي اكتسح مجده قلبك ؟

شيترا : إنه سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ، إنه أعظم الأبطال كلّهم .

ارجونا : سيّدتي ، لاتضحّي بكنز جمالك هذا ، على مذبح مجدٍ زائف ، إنّ الشهرة المزوّرة تنتقل من شفةٍ الى شفةٍ ، كضباب الفجر الذي يسبق مطلع الشمس . هلاّ قلت لي : من هذا البطل العظيم ، سليل أكرم الأسر الملكية نجاراً ؟

شيترا : أيها الناسك ، إنّك لغيورٌ من صيت الرجال الآخرين ، أتجهل أنّ أسرة (كوروس) هي أشهر أسرة ملكية في الدنيا .

ارجونا : أسرة (كوروس) ؟

شيترا : ألم يتّصل بسمعك اسم أروع أسماء هذه الأسرة الملكية ؟

ارجونا : ذريني اسمعه من شفتيك .

شيترا : إنه (أرجونا) فاتح العالم ، لقد تلقّفت هذا الاسم الخالد من شفاه الناس ، وخبّأته في قلبي الكبر ، حَفيةً به ، حريصةً عليه . أيها الناسك ، ما بالك تبدو مضطرباً ؟ أيكون تألّق هذا الاسم خدّاعاً ؟ أجب فلن أتوانى عن كسر سفط قلبي[1] ، لأقذف منه الى التراب بهذه الجوهرة الزائفة .

ارجونا : لتكن مآثره وشجاعته واسمه حقيقةً أو زائفةً ، حنانيك ، لاتقصيه عن قلبك ، إنه جاثٍ ، الآن ، أمام قدميك .

---

(١) السفط : وعاء تضع فيه المرأة حلاها .

شـيـتـرا : أنت أرجونا ؟

ارجـونـا : أجل ، أنا هو الضيف الجائع الى الحب ، جاء يقرع بابك .

شـيـتـرا : إذن ليس بصحيح أنّ (أرجونا) قد نذر التبتّل على نفسه طوال اثنى عشر عاماً .

ارجـونـا : لقد نسخت أنتِ نذري ، كما ينسخ القمرُ الظلمةَ التي نذرها الليل على نفسه .

شـيـتـرا : آه ، يا للعار! ماذا وجدت لديّ ، لتنقض نذرك وتخدع نفسك ؟ ماذا تبغي من هاتين العينين السوداوين وهاتين الذراعين البيضاوين كاللبن ؟ أجل ، أنا أعلم أنّك لا تنشد حقيقة روحي ، مادمتَ مهيّأ لأن تضحّي بإخلاصك في سبيل عيني وذراعي ، لا يمكن أن يكون هذا هو الحب ، ولا أسمى ثناءٍ يسوقه رجلٌ الى امرأة . واأسفاه ، إنّ الجسد هذا القناع الزائل ، قد يعمي الانسان عن اجتلاء الروح الخالدة . إنني أدري ، الآن ، إنّ صيت بطولتك ، يا (أرجونا) هو ، في الحق ، زائف .

ارجـونـا : آه ، كلّ شيء ، يتجلّى لي بسبيلٍ الى الحلم ، يالهذا المجد من مجدٍ عقيم ، ويا لهذه الشجاعة المزهوّة من شجاعةٍ باطلة ، أنتِ وحدك ، أيّتها المرأة الفريدة قد استشرفت الكمال ، أنتِ ، ياغنى الكون . يا نهاية كلّ متربة ، يا مطمح كلّ جهد! من الناس من تُستجلى معرفة نفوسهم ، في أمدٍ متمهّلٍ ونيدٍ ، أمّا رؤيتك ، في لحظة خاطفةٍ ، فإنها استجلاء الكمال ، مرّةً واحدةً ، تستغرق الدهرَ كلّه .

شـيـتـرا : واأسفاه ، لست تراني أنا يا (أرجونا) ، بل ترى خدعة رب ، امضِ يابطلي ، امضِ ، لا تتعلّق بطيفٍ مضلّلٍ ، ولا تقدّم قلبك الكريم الى وهمٍ . امضِ .

المنظر الثالث

(شيترا ، مادانا ، فازانتا)

شيترا : لا ليس هذا ممكناً ، ليس في مقدوري أن أقاوم هذه النظرة المتقدة التي تستبدّ بي ، كأنها الأيدي الناشبة التي تمدّها الروح الجائعة ، في باطني ، وأن أشعر وجيب هذا القلب وهو يناضل ، ليحطِّم أغلاله ، مستثيراً صرخته المشبوبة في الجسد كلّه ، ثمّ أن أصرفه عنّي ، بعد ذلك ، كما لو كان شحّاذاً ؟ لا ، ليس هذا ممكناً .

(يدخل مادانا وفازانتا)

شيترا : آه يا إله الحب ، أيّ لهبٍ مخيفٍ هذا الذي زملتني به! إنني احترق وأحرق كلّ شيء ألمسه .

مادانا : وددت أن أعلم ماذا جرى ليلة أمس ؟

شيترا : لقد اضطجعت فوق فراش من العشب ، تتخلله أفوافٌ من زهر الربيع ، وأخذت أستعيد كلمات الغزل التي سمعت (أرجونا) يطري بها جمالي ، مشبباً . وكنت أرتشف الشهد الذي جنيته نهاراً : قطرةً فقطرة... أمّا حياتي الماضية فقد أنسيتها مع كل ماسبقها من وجودٍ ، وشعرت وكأنني زهرةٌ لم يبقَ لديها سوى ساعاتٍ منقضيةٍ معدودةٍ ، لتصغي الى الثناء العذب الذي تهمس

به الغابة ، ثمّ تحدّر نظرتها من السماء وتغضّ طرفها ، وتطرق برأسها وتفيء الى صمتها وتستسلم ، في زفرةٍ ، الى التراب ، خاتمةً بذلك قصة صغيرةً ، للحظةٍ كاملةٍ ، ليس لها ماضٍ ولا مستقبل .

فازانتا : إنّ حياةً مديدةً ثرّةً بالمجد ، يمكن أن تنوّر ثمّ تصوّح في يوم واحد .

مادانا : كمعنى لا نهائي تضمنته أغنية صغيرة .

شيترا : وكان نسيم الجنوب يداعبني ويسلس لي النوم ، ومن خميلةِ ياسمين مزهرة دانيةٍ ، كانت تتهاوى قبلاتٌ صامتةٌ فوق جسدي ، وشعري وصدري وقدمي . كانت كلّ زهرة تنتقي عشّاً لتموت فيه . وأخلدت إلى الكرى ، وأحسست ، فجأةً ، وأنا مستغرقةٌ في سباتٍ عميقٍ بنظرةٍ ماضيةٍ ثاقبةٍ ، كأنامل النار الدقيقة ، تلذع جسمي الراقد . ونهضت... فإذا بالناسك يبدو ماثلاً أمامي ، وكان القمر ، وهو يجنح الى المغرب ، يسارق النظر من فرجات الأغصان أعجوبةَ الفن الإلهي : هذا المخلوق الانساني المتهافت . وكان الفضاءُ عابقاً بالشذا ، وكان صمت الدجى قد استعار صرير الجداجد صوتاً له ، وكانت ظلال الأشجار ، تنداح ، رهوةً ساكنةً ، فوق ماء البحيرة . وبدا الناسك ، وعصاه في يده ، فارعَ الطول ، ساكنَ الجنانِ ، كأنه إحدى شجرات الغابة ، ومَثلَ في وهمي وأنا أفتح جفني ، أنني متُّ في واقع الحياة ، ثمّ بعثت في أرضٍ حالمةٍ خياليّةٍ . وشعرت بالحياء ينزلق حتّى قدمي كأنه ثوبٌ منسدلٌ ، وسمعت نداءه : إيّ ياحبيبتي ، يا أحبّ الناس إليّ ، وائتلفت لحظات حياتي الماضية المنسيّة في كلٍّ واحدٍ ، للتجاوب مع ندائه ، وهتفت له خذني ، خذني كلّي . وبسطت ذراعي له .

واحتجب القمر خلف الأشجار ، وغلّف ستارٌ من الظلام كلّ شيء .
واندمجت الأرض والسماء والمدى والزمن والهناءة والحياة والمنية ، في نشوةٍ عتيّةٍ . وحين هلّت بشائر الفجر ، وهتفت الطيور أولى تغاريدها ، استيقظت ، وانحنيت ، فوق وجهه ، وجلست متّكئةً على ساعدي الأيسر ، وكان مستلقياً غافياً ، وعلى شفتيهِ كانت تسمو ابتسامةٌ مبهمةٌ ، كأنها الهلال في سماء الفجر ، وكان نور الصباح الوردي يحبو على جبينه النبيل ، وتنهّدت ثمّ نهضت . وجمعت الغصون المعرّشة المورقة ، لأظلله بها وأدرأ عنه أشعّة الشّمس .
وأجلت طرفي حولي فصافح عيني الربيع القديم نفسه ، وتذكّرت حالي ، من قبل ، وكغزالٍ يفرق من ظلّه ، أخذت أعدو ثمّ أعدو في درب الغابةِ الممرعة بزهر الشيفالي .
وجلست ، منزويةً ، ودفنت وجهي براحتي ، وأردت أن أنشج وانتحب ، فلم تستهلّ عيناي بأي عبرة .

مادانا : وأسفاه ، يا ابنة الإنسان الفاني ، لقد استللت لك من القبو المقدّس ، سلافةَ السماء الشذيّة ، وأترعت منها كأس ليلةٍ واحدةٍ من ليالي الأرض وناولتكِ الكأس لتنهلي منها ومع هذا فإنني أسمع صرخة اليأس .

شيترا : (بمرارة) : ولكن من الذي بلّ صداه منها ؟ إنّ اكتمال لذّة الحياة النادر ، المتمثّل في الوصال الأوّل للحب ، قد أتيح لي ، ولكنه انتزع من يدي ، إنّ الحسن المجلوب ، هذا السربال الخدّاع الذي يلفّني ، سوف ينزاح عنّي ، حاملاً ذكرى الوصال الشهيّة ، متساقطاً ، كالأفواف المتهاوية من الزهرة المنوّرة ، حين تعصف بها الريح ، وعندئذ تقعد المرأة ، خجلى من عريها

المعدم ، منتحبةً ، ليلَ نهار ، يارب الحب إنّ هذا التصوّر اللعين الذي جلوته لك يلازمني كأنه الشيطان ، ناهباً منّي كلّ متع الهوى ، كلّ القبل التي يظمأ إليها قلبي .

مادانا : واأسفاه ، كيف ضاعت ليلتكِ الفريدة هذه ، سدى ، إن زورق الهناء يبدو مقترباً من شاطئك ، بيد أنّ الأمواج لم تدع له سبيلاً ، ليرسو عند مرفئك .

شيترا : لقد تطامنت السّماء ودنت منّي ، الى مدى نسيت فيه ، لحظةً ، أنها بعيدة عن متناول يدي ولكن... حين أفقت صباحاً ، من حلمي ، عرفت أنّ جسمي هو خصمي ، وأضحت مشغلتي البغيضة : أن أزيّن جسدي كلّ يوم ، لأوافي به حبيبي ، وأرى إليه يحظى بإعجابه ، ربّاه هلاّ استعدت نعمتك .

مادانا : ولكن ، إن استعدتها ، فكيف تلقين حبيبك ؟ ألا ترين أنها قسوةٌ بالغةٌ أن أنتزع كأس الهناء من شفتيه ، وهو لم يكد يفرغ من حسو النهلة الأولى ، ترى بأيّ وجه غضوبٍ ممتعضٍ سوف يلقاك بعد ذلك ؟

شيترا : لأن يلقاني غضوباً ممتعاً ، خيرٌ عندي من هذه الحال . سوف أكشف له عن حقيقة نفسي التي هي أنبل من هذا القناع ، فإن صرفني وازدراني وصدع قلبي فلسوف ألوذ بحزني ، ساكتةً راضيةً .

فازانتا : أعيري سمعك نصيحتي : حين يهلّ الخريف ، ينعدم موسم الأزهار ، ويحلُّ ، عندئذ مجد الفاكهة ، سيأزف الوقت الذي تذبل فيه زهرة الجسد المشبعة بالحرارة ، وعندئذ سوف يرضى (أرجونا) مغتبطاً ، بالحقيقة الأزليّة الناضجة ، الكامنة فيك ، والآن... هيّا ياطفلتي ، استأنفي وليمتك المجنونة .

المنظر الرابع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا : إيهٍ يا فارسي ، لِمَ تنظر إليّ هكذا ؟

ارجونا : إنني أتأمّل ، كيف تضفرين إكليلك . إنّ الرشاقة والرقّة ، هذين التوأمين ، يرقصان على أطراف أناملك ، إنني أرمقك وأفكّر .

شيترا : في أيّ شيء تفكّر يا سيّدي ؟

ارجونا : أفكّر في أنّك تضفرين أيّام غربتي ، بالرقة نفسها ، برشاقة اللمسة نفسها ، في إكليلٍ خالدٍ تتوّجينني به ، حين نعود الى البيت .

شيترا : الى البيت ؟ ولكنّ حبّنا لم يخلق للبيت .

ارجونا : لم يخلق للبيت ؟

شيترا : أجل .

ارجونا : لماذا ؟

شيترا : لا تتحدّث إليّ بهذا أبداً ، انقل الى بيتك القوّة والإستقرار ، دع الزهرة الوحشيّة حيث ولدت ، ذرها تمت نضيرةً في العشيّة ، بين الأزهار الذابلة والأوراق الجافة ، لاتأخذها الى قصرك ، لتحبسها في قاعاتك الحجريّة ، قاعاتك التي لاتعرف الرأفة بالأشياء الذاوية المنسيّة .

ارجونا : تُرى ؟ أيكون حبّنا كهذا النمط ؟

شـيـتـرا : أجل إنه لكذلك ، فلِمَ الحسرة عليه ؟ إنّ ما أعدّ لأيّام الفراغ . ينبغي ألا يدوم أكثر ممّا تدوم . إنّ الفرحة تنقلب الى ألم . حين يغلق عليها الباب الذي كان في ميسورها أن تمضي منه . فأمسك بالفرحة واقتنصها حين تسنح لك ، ولكن... لا تدع بشم مسانك يطالب لذّة صباحك بأكثر ممّا تستطيع أن تبذل وتعطي . لقد ولّى النهار ، فضع هذا الاكليل على رأسك ، أشعر بإعياء يا حبيبي ، فخذني بين ذراعك ودع جدلنا الفارغ يتبدّد في اللقاء العذب من شفاهنا .

ارجـونـا : صه ، اصغي يا حبيبتي ، إنّ رنين الأجراس المبتهلة ، يخلص الى سمعنا من معبد القرية النائية على أجنحة نسيم الماء ، عبر الأشجار الصامتة .

المنظر الخامس

(فازانتا ، مادانا)

فـازانتـا : أنا لا أستطيع أن أتابعك ياصاحبي ، فأنا متعب ، إنّ تأريث النار التي أضـرمتـهـا لعـملٌ ناصبٌ شـاق ، إنني أهومُ من النعـاس ، والمروحة تنزلق من يدي ، والرماد البارد يكسو وهج الجمر ، وأستيقظ ، وأحاول بجماع قوتي ، أن أذكي النار الوانية ، ولكن هذه الحال لايمكن أن تستمر .

مـادانا : أنت طَرِفٌ[1] ملولٌ كطفلٍ ، إنّك لاتني تلهـــو في الأرض والسّماء ، وماتعنى ببنائه في تؤدّةٍ ومهلٍ ، في أيّام ، تقوّضه ، غير آسفٍ ، في هنيهةٍ . غير أنّ مهمّتنا تكاد تشارف الانتهاء . فالأيام المجنّحة بالسرور ، سرعان ماترفرف ، ماضيةً ، والعام الذي شارف ختامه ، ينقضي في هناءة غامرة .

---

(١) الطرف : المتقلّب .

المنظر السادس

(ارجونا ، شيترا)

ارجــونــا : وأفقت صباحاً ، فألفيت أحلامي قد استصفت جوهرةً ، ولم يكن بحوزتي سفطٌ أحفظها فيه ، ولا تاجٌ أرصّعه بهـا ، ولا سلسلة أنوطها بها ، وعلى رغم هذا فإنّ قلبي يأبى أن أرمي بها بعيداً ، إنّ ساعدي الأيمن ، ساعد رجل من (كشاتريا) ، ساعدي الذي يحملها في كسلٍ وتراخٍ ، ليتخلّف عن أداء واجبه .

(تدخل شيترا)

شـيـتـرا : فيمَ تفكّر ياسيّدي ؟

ارجــونــا : تغازل خاطري رحلة صيدٍ أقوم بها ، اليوم ، انظري الى المطر كيف يسحُّ غزيراً ، كأنه السيل ، ويجلد جانب الأكمـة ، في ضراوةٍ ، إنّ الظلّ الأسود المتطاول من السحب يجثم ، بوطأته على الغابة ، والجدول المتدفّق كالشباب المغامر يتخطّى السدود ، في ضحكة ساخرة ، لقد تعوّدت أن أذهب وإخوتي الأربعة ، الى غابة (شيتراكا) في الأيام المطيرة ، كهذا اليوم ، لطراد الوحوش ، تلك أيّام خلت . . كانت قلوبنا ترقص على هزيم الرعد ، في السحب المتوعّدة . وكانت الغابات تتجاوب بصياح الطواويس ، وكان هدير الشّلال وهمس المطر يحجبان

عن سمع الظبي النفور ، خفق خطانا القادمة وكانت الفهود تترك على الأرض الوحلة ، آثار براثنها الواشية بدروب أوجرتها . وكنّا نتبارى في أوبتنا الى البيت ، بخوض السيول المعربدة ، في النهر ، سابحين . إنّ هذه الروح القلقة ماتزال كامنةً في نفسي وإنني لاضطرم شوقاً الى الطراد .

شيترا : اعدُ ، أولاً ، خلف طريدتك التي تنشدها ، الآن ، ولكن قل لي أواثقٌ أنت ، بأنّ ظبيك الساحر الذي تتقصّاه ، لابدّ أن يقنص ؟ لا . ليس الآن... إنّ هذا المخلوق الوحشي ليروغ منك ويسنح كحلم . في حين يتراءى لك أنه دانٍ قريبٍ . انظر الى المطر المجنون كيف يطارد الريح ، ويلاحقها ، مصوّباً إليها ألف سهم ، ومع هذا ، فإنها تأبى الغلبة ، وتهبّ حرّةً ؟ كذلك طرادنا نحن ، ياحبيبي ، إنّك لتلاحق روح الجمال الشرود ، مسدّداً إليه سهامك كلّها ، ومع هذا فإنّ هذا الظبي الساحر ليعدو ويظلّ دوماً ، حرّاً ، سليماً .

ارجونا : حبيبتي ، أليس لديك بيتٌ ، تنتظر فيه قلوبٌ برّةٌ عودتك إليه ؟ بيتٌ ملأته بعنايتك الحلوة رقّةً وليناً ؟ بيت قد انطفأ نوره ، بعد أن هجرته لتعوذي بعزلتك هذه ؟

شيترا : فيمَ هذه الأسئلة كلّها ؟ ترى أتكون ساعات الهناءة الغافلة قد انقضت . ألا تعلم أنني لست سوى تلك التي تراها أمامك ؟ وأرى أنه ليس خلف ذلك خيال أو صورة . إنّ قطرة الندى المعلّقة على فوف زهرة (الكينسوكا) لاتملك اسماً ولامصيراً ومن ثمّ فليس في طوقها أن تجيب عن أيّ سؤال . إنّ تلك التي تحبّها وتكلّف بها تشابه هذه القطرة من الندى مشابهةً تامّةً .

ارجونا : أليست لها صلةٌ تشدّها الى هذا الكون ؟ أليست ، في الحق ،

سوى ذرّةٍ من السّمـاء تـهـامت على الأرض ، في غـفـلةٍ من ربّ عابثٍ ؟

شـيـتـرا : بلى .

ارجـونـا : آه ، لهذا فإنه يخيّل إليّ دوماً أنني أوشك أن أفقدك . إنّ قلبي لم يألف الرضى وفكري لم يجد الطمـأنينة والهدوء . ادني منّي أيّتها الأبية العصيّ نوالها ، واستسلمي الى قيود الاسم والبيت والنسب ، وادعي قلبي يشعـر بك كلّك وينعم معك بحبٍّ قـريرٍ آمن .

شـيـتـرا : فيمَ هذه الجهود المبـذولة عبثاً ، للإمساك بشيات الغيوم ، برقص الأمواج ، بأريج الزهور ؟

ارجـونـا : سيّدتي ، لا تأملي ، بهذه الكلمات الخفيفة الطائرة ، أن تحدّي من غلواء الحي ، امنحيني شيئاً أمسك به ، شيئاً ، يبقى أكثر من اللذّة العابرة ، شيئاً يدوم ولو أتى عبر الألم .

شـيـتـرا : يا بطلي ، إنّ العالم لم يستوف ختامه بعد ، ومع هذا فقد برمت وتعبتَ ، إنها لنعمة من السماء ، أفهم معناها ، الآن ، أن تكون حياة الزهرة قصيرةً ، لو كتب لجسدي أن يذوي ويموت ، مع زهور الربيع الأخير ، لقضي محفوفاً بالاكبار ، غيـر أنّ أيّامه معدودةٌ ياحبيبي ، مع ذلك ، لاتفلته ، استصف منه شهده كلّه لئلا يعود إليه قلبك المستجدي ، برغبته المستوفزة ، كما تعود نحلةٌ ظمأى ، الى أزاهير الصيف الذابلة المطروحة على التراب .

المنظر السابع

(مادانا ، فازانتا ، شيترا)

مـــادانا : هذه الليلة هي ليلتك الأخيرة ؟

فـازانتـا : غداً سوف تؤوب مفاتن جسدك الى ثروات الربيع المختزنة التي لاتنفد ، وإمّا تحرّرت أثارة شفتيك من ذكرى قبلات (ارجونا) فلسوف تبرعم زوجين من أفواف زهرة (الآسوكا) الريّا ، وسوف تبعث نضرة إهابك اللدن الناعم في مئات من زهور الياسمين الفاغمة .

شـيـتـرا : إيهِ أيّتها الآلهة لبّي هذا الدعاء : دعي جمالي ، الليلةَ ، يبذل في ساعاته الأخيرة ، أروع بريقه ، كأنه الألق الأخير من شعلةٍ محتضرةٍ .

مـــادانا : لقد استجيب دعاؤك .

المنظر الثامن

(الفلاحون ، ارجونا ، شيترا)

الفلاحون : تُرى من الذي يحمينا الآن ؟

ارجــونا : أيّ خطر يتهدّدكم ؟

الفلاحون : إنّ عصابة من اللصوص ، تندفع نحونا من الهضاب الشماليّة ، منحدرةً كالسّيل العارم لتخرب قريتنا .

ارجــونا : أليس لمملكتكم هذه حاكمٌ ؟

الفلاحون : لقد كانت الأميرة (شيترا) حاكمةً مرهوبةً من جميع الأشرار ، ولم نكن نخشى ، حين كانت بين ظهرانينا ، أيّ بأس ، فيما عدا الموت المعهود .

ارجــونا : أتكون حاكمة بلدكم امرأة ؟

الفلاحون : أجل ، امرأة ، لقد كانت لنا أمّاً وأباً .

(ينصرف الفلاحون ، تدخل شيترا)

شــيتــرا : لماذا تجلس منفرداً ؟

ارجــونا : إنني أحاول أن أتمثّل أيّ طرازٍ من النّساء ، يمكن أن تكون الأميرة (شيترا) . لقد أنهى إليّ كثيرٌ من الرجال قصصاً جمّةً عنها .

شــيتــرا : آه ، ولكنّها ليست رفافةَ الحسن ، وليس لها عينان ساحرتان

كعينيّ ، عينان سوداوان كالمنية . إنّ في مكنتها أن تصيب أيّ هدفٍ ، ولكنّها لا تستطيع أن تصيب قلب بطلي .

ارجــونـا : يقال إنّها رجلٌ في شجاعتها وامرأةٌ في حنانها .

شــيـتـرا : هذه هي ، في الحق ، مصيبتها الكبرى ، حين تكون المرأة امرأة بكيانها كلّه ، حين ترود حول قلوب الرجال ، بابتساماتها ، بعبراتها ، بعنايتها ، بعطفها الرقيق ، فإنها تكون سعيدة ، فماذا تفيد من العلم والمآثر العظيمة ؟ لو أنّك التقيت بشيترا ، مصادفةً ، في درب الغابة ، أمس ، قرب معبد (شيفا) ، لتجاوزتها دون أن تحبوها بنظرة ، ولكن... تراك عفت جمال المرأة ، الى حدٍّ يحملك على أن تنشد لديها قوّة الرجل ؟ لقد أعددت في غارٍ مظلم كالليل فراشنا الذي نأوي إليه ، في الظهيرة ، من أغصانٍ خضرٍ مخضلةٍ برذاذ الشلال المزبد هناك تسري ، من الطحلب الطري الأخضر الذي يكسو الحجر الأسود النديّ ـ تسري رطوبةٌ عذبةٌ لتلثم عينيك وتهب لهما النوم . دعني أقُدك الى هناك .

ارجــونـا : لا يا حبيبتي ، دعي ذلك الى يومٍ غير هذا .

شــيـتـرا : لِمَ غير هذا اليوم ؟

ارجــونـا : لقد تأدّى إليّ أنّ عصابةً من اللصوص ، تقترب من السهل ، عليّ أن أمضي وأعدّ سلاحي لأحمي الفلاحين .

شــيـتـرا : لا تخشَ بأساً عليهم ، فإنّ الأميرة (شيترا) قد نصبت ، قبل أن تفزع إلى هجرتها ، حرّاساً أشدّاءَ على الحدود كلّها .

ارجــونـا : دعيني أذهب لفترةٍ قصيرة أؤدّي فيها شعائر (كشاتريا) . إنّ ساعدي العاطل سيضحي إمّا تحلّى بمجدٍ جديدٍ خيرَ وسادٍ لرأسك .

شـيتـرا : وإذا أبيت عليك المضي وتشبّثت بك بين ذراعي ، فهل تفلت من ضمّتي قسراً ، وتدعني ؟! اذهب اذن ، ولكن . . اعلم أنّ غصن العريشة ، لاسبيل الى التنامه ، بعد أن ينقصف .

إذا كان ظمأكَ قد ارتوى فامضِ ، وإلاّ يكن فاذكر أنّ ربّة اللذّة متقلّبة ، لاتنتظر أيّ رجل . إبقَ لحظةً ياسيّدي ، قلْ لي أيّ أفكار قلقة تضنيك ؟ من يشغل ذهنك ؟ تراها (شيترا) ؟

ارجـونـا : أجل ، إنّها (شيترا) إنني أتساءل ، أيّ نذرٍ غريبٍ قد حملها على الهجرة ، تُرى أيّ رغبةٍ يمكن أن تصبو إليها ؟

شـيتـرا : أيّ رغبة ؟ ؟ ولكن أيّ شيء ظفرت به هذه المخلوقة التعسة ؟ إنّ خصالها الحقيقية هي جدران سجنٍ يحبس قلبها ، قلب امرأةٍ ، في زنزانةٍ خاويةٍ . إنّها غامضة ، إنّها غير كاملة ، ومادامت عاطلةً عن الجمال ، فإنّ حبّها الأنثوي ليقنع بالتستّر خلف ثياب خلقةٍ . إنّ الجمال ليتنكّر لها ، إنّها أشبه بصباحٍ جهمٍ ، يتّكئ على قنّة جبلٍ صخريٍّ ، قد محت السحب الداكنة كلّ ضيائه ، لاتسلني عن حياتها ، فحديث حياتها لايحلو في سمع الرجل .

ارجـونـا : أنا توّاق الى سماع كلّ شيءٍ عنها ، إنني كرائدٍ قادمٍ في موهنٍ من الليل ، إلى مدينة غريبةٍ ، فالقباب والأبراج ، والحدائق الغُلب ، تتراءى له ، غائمةً ظليلةً ، وتتردّد زفرة البحر ، كئيبةً ، بين الفينة والفينة ، عبر صمت الكرى ، وإنه لينتظر ، بصبرٍ نافذ ، منبَلج الفجر ، لينفض له الروائع العجيبة كلّها ، إيهٍ هلاّ سردتِ لي قصّة (شيترا) .

شـيتـرا : ليس ثمّة شيء أقصّه عنها .

ارجـونـا : يخيّل إليّ أنني أراها بعين فكري ، ممتطيةً صهوة جوادٍ أبيضَ ،

يدُها اليسرى تمسك ، تياهةً ، بعنانه ، ويدها اليمنى تجذب قوساً ، إنها تريق الأمل الرغيد حولها ، كربّةٍ من ربّات النصر ، وتحمي بشغفٍ مفترسٍ كلبوةٍ يقظى أشبالها الراضعة من ضروعها . إنّ ذراعي المرأة جميلتان ، إن ازدانتا بالقوّة الظافرة . إنّ قلبي ليهتزّ ويجب ، كثعبانٍ يستيقظ من غفوته الشتويّة ، تعالي ولنمتطِ جوادين سريعين ، يخبّان بنا ، جنباً الى جنب ، كنجمين وضيئين يشقّان الفضاء ، لنهجر هذا لسجن الهاجع من الكابة الخضراء ، لنحسر هذا الستار الرطب الصفيق من التّسمم العابق الضاغط على الأنفاس .

شيترا : أرجونا ، قل لي الحقيقة ، لو قُدّر لي ، الآن ، بأعجوبةٍ ما ، بأن أتحرّر من هذه الرّقة المثيرة ، من هذه الوسامة الخجلى التي تفزع من لمسة الكون المترعة قوّةً وعافيةً ، ثمّ انزعها من جسدي كما أنزع ثياباً معارة ، تُراكَ تحتمل ذلك ؟ لو قُدّر لي أن أنتصب مشيقةً ، مدلّةً بقلبٍ جسورٍ ، مستهينةً بحيلِ الضعف الساحر وفنونه ، وأن أرفع رأسي شامخاً كشجرة التنوب السّحوق الفتيّة الجبليّة ، غير زاحفة على التراب كالعريشة تُراني اجتذب نظرات الرجال ؟ لا ، لا ، يا (ارجونا) لن تستطيع احتمال ذلك إنني أؤثر أن أدع كلّ الدمى الحلوة ، دمى الشباب الهيمان ، منثورةً حولي ، وأن أنتظركَ صابرةً... وحين يروق لك أن تؤوب ، فلسوف أهرق لك ، وأنا أبتسم ، خمر اللذة في كأس هذا الجسد البديع وحين تروى من هذه الخمر وتملّها ، فلسوف تستطيع العودة إلى عملك أو إلى لهوك ، وحين أضحي عجوزاً ، فلسوف أنتبذ ، شاكرةً ، راضيةً ، أيّ ركنٍ باقٍ لي ، أفلا يحلو لروحك الباسلة ، أن تتشوّف خدينة ليلك أن تصبح

رفيقة نهارك ؟ وأن تتمنّى الذراع اليسرى مشاركةَ الذراع اليمنى القويّة بحمل عبئها ؟

ارجــونا : أحسب أنه لن تتّسق لي معرفتك أبداً ، تتراءين ، ربّةً خبيئةً في تمـثـالٍ ذهبي ، لاأجرؤ على لمـسك ، لا أقـدر على أن أفي بمـا يجب عليّ نحوك لقـاء هبـاتك الثـمـينة ، لهـذا فـإنّ حبّي يظلّ دومـاً ، ناقـصـاً ، وألمح أحيـانـاً في الأغـوار الدفـينة من نـظرتك الحزينة ، وفي كلمـاتك اللـعوب السـاخرة من معانيـها نفسـهـا ، ألمح مخلوقة جديدةً تحاول أن تدمّر رقّة جسدها المضنيّة ، ثمّ تشرئب ، مغلّفة بالبسمات الطّلية ، وتطفو في نار الألم النقيّة . إنّ الوهم هوَ أوّل مظاهر الحقـيـقـة ، فـإنهـا تدنو مـتنكّرة من الحـبـيب ، ولكـن... يقـبل يوم تجـفـو فـيـه زينتـهـا وقناعـهـا ، وتنتصب ، واقفةً ، متلفّعةً بأنفتـهـا الكشيفة ، إنني استـقرىء الحقيقة العارية ، استقرئ... بساطتها العارية ، استقرىء كمـالها النهائي فيك أنت ، (شيترا) ، فيمَ تنهمر هذه الدموع ؟ لمـاذا توارين وجـهك براحتـيك ؟ تُراني آلمـتك أيّتـهـا العـزيزة ؟ إنسـي مـاقلت لكِ ، سـأرضى بمـا لـديّ ، دعي كلّ لحظة من لحظات الجمـال تقبل نحوي . كعصفورٍ مبهَم يهفو من عشّه الخفي ، حاملاً رسالته المجنّحة بالنغم ، دعيني استمسك بأمنيتي دوماً ، فلعلّها أن تتحقّق يوماً وأنهي بها أيّامي .

المنظر التاسع

(شيترا ، ارجونا)

شيترا (مرتدية معطفاً) : إيهٍ يا رب ، أتكون الكأس قد فرغت ، حتّى آخر قطرة من ثمالتها ؟ أهذه هي النهاية حقّاً ؟ لا ، حين يولّي كلّ شيء ، فإنّ بعضاً منه يبقى ، إنه آخر تضحيةٍ أزجيها الى قدميك . لقد قطفت من حديقة السّماء زهوراً لا مثيل لروائها ، لأرفعها إليك يا مليكَ قلبي ، فإن انتهت العبادة .

(تنضو شيترا معطفها وتبدو في دثّار رجل)

انظر ، الآن ، بعينِ الرفق الى معبودتكَ ، لست أملك الجمال الكامل الذي ترتع به الزهور المقدّمة الى العبادة . إنّ في بُرديّ عيوباً ونقائصَ ، إنني كرائدٍ يهيم في طريق الكون المنفسحة الكبرى . ثيابي ملوّثةٌ وقدماي داميتان بالأشواك . تُرى أين أظفر بزهرة الجمال ؟ بالألقة الصافية ، ألقة لحظة الحياة ؟ إنّ الهديّة التي أقدّمها إليك ، في خيلاء ، هي قلب امرأة ، قد ائتلفت فيه الآلام والهناءات ، والتقى في حناياه خفر فتاةِ الأرض وتعلاّتها ومخاوفها . وانبجس منه الحب الذي يتوق الى الحياة الخالدة ، وانساب فيه النقص ، ولكنه النقص النبيل السامي . سيدي ، إن انتهت صلاة الزهر ، فأقبل هذه الزهرة ، كخادمٍ

للأيام المقبلة . أنا (شيترا) ، ابنة الملك... لعلّكَ أن تتذكّر تلكَ المرأة التي قدمت اليك في معبد (شيفا) وكانت رافلةً بحليها وزينتها . لقد سعتْ إليكَ هذه المرأة الجريئة ، تطارحكَ الحب كما لو كانت رجلاً فصددتها . وحسناً فعلتْ . إيهٍ ياسيّدي ، إنني تلك المرأة ، لقد كانت لي قناعاً ، ولقد تمتّعت بفضل الآلهة ، في مدى عامٍ واحد ، بأروع جمال حظي به أيّ إنسانٍ فانٍ . بيد أنّ قلب بطلي قد ناء بعبء هذه الخدعة . وفي الحقيقة ، لستُ تلكَ المرأة . أنا (شيترا)...

لستُ ربّةً تُعبد ، ولاشيئاً جديراً بالرأفة ، يطرح دون اكتراث كأنه فراشة . فإن شئت أن تقبلني الى جانبك في درب الخطر والإقدام ، وسمحتَ لي بأنْ أشاركَ في واجبات حياتكَ الجسام فلسوف تدرك آنذاك حقيقة ذاتي ، وإنّ جنينكَ الذي أحمله وأغذوه في رحمي صبيّاً ، سوف أعلّمه أن يصبح (أرجونا) الثاني... وسوف تتمُّ لك حينذاك معرفة نفسي . ليس لديّ ، اليوم ، ما أقدّمه إليك سوى (شيترا) ، (شيترا) ابنة ملك...

ارجـونا : إيهٍ يا حبيبتي لقد أترعتِ كأسَ حياتي .

اليراعات



خواطرُ شعرية

في رحلة الشاعر الهندي العظيم (رابندرانات طاغور) إلى الصين واليابان ، كان يطلب إليه بعض المعجبين ، أبياتاً من الشعر ، لتطرَّز على مناديلَ حريريةٍ أو تنقش على مراوح اليد .

وكذلك ولدت هذه الأبيات الشعرية الرقيقة ، التي ضمَّنها ديوانه (اليراعات) وهي فراشات تضيء ليلاً (ويسميها العرب أيضاً : الحُباحِب) وتأتلف هذه الأبيات في صورٍ رائعةٍ ، وحكمٍ وخواطرَ ، تتلامح ومضاتها خاطفةً ، كأنها شرارات اليراعة المضيئة في الليل ، وتجلو كلماتها الموجزة ، ومعانيها العميقة ، فلسفةَ الشاعر الإنسانية ، وخيالَه المبدع .

المعرِّب

د. بديع حقي



أيتها اليراعات ، يا بدوات فكري
أيتها الشرارات الحية ،
المتوامضة في حَلَك الليل .

* * *

إن رِكْز الأزهار الزائلة ،
التي تنوِّر على عِذار الطريق ،
والتي تقتحمها الأنظار ، دون مبالاة ،
يهمس ، خلال هذه السطور المترادفة ، بلا رابط .

* * *

في الكهوف المظلمة من الفكر الغافي ،
يبني طائر الحلم عشَّه ،

على حطام قافلة النهار .

* * *

إن الفرحةَ المتحرِّرةَ من عرى الأرض الهاجعة ،
تنطلق ، عبر مدى الأوراق الرحب ،
وترقص في الفضاء ، سحابة نهارٍ بأكمله .

* * *

ينثر الربيعُ أفوافَ أزهاره ، خليَّ البال ، غير مبالٍ بثمار المستقبل ،
متتبعاً نزوتَه ، في الحاضر .

* * *

حين تغرق مؤلفاتي المثقلة بالمعاني ،
فلعل كلماتي الخفيفة ،
تظل متراقصةً ، طافيةً فوق مويجات الزمن .

* * *

تبسط فراشاتُ الفكر الخبيئةُ ،
أجنحتَها الضبابيةَ ،
وتهفو برفرفةٍ مودِّعةٍ نحو سماء الغروب .

* * *

تحصي الفراشات ، باللحظات لا بالأشهر ،
وهذا يكفيها .

* * *

تكشف الشرارةُ في انطلاقتها ،
إيقاعاً زائلاً ،
تلك هي فرحتها .

* * *

ترامق الشجرةُ ، بشغفٍ ،
ظلّها الرائع الذي تسفحه
ولكنها لا تستطيع البتة ، أن تضمَّه .

* * *

الأيَّام هي فقاعاتٌ ذات شِياتٍ قزحية ،
تتطاير على سطح الليل الذي لا يمكن أن يسبر غِوره .

* * *

ألا فليؤت حبي القدرةَ على أن يسربلك ، كالشمس ، بالنور ،
وأن يترك لك ، مع ذلك ، حريةً متلألئةً .

* * *

ان قرابيني هي جدُّ ضئيلة ،
بحيث لا تملك الزعم بأنك ستذكرها ،
فلعلها أن تمرَّ ببالك .

* * *

إذا كان اسمي ، ينهض عبئاً عليك ،
فامحُه من قرباني ،
ولا تحتفظ لديك إلا بأغنيتي .

* * *

يخطُّ نيسان ، كأنه طفل غرير ،
يخطُّ بالأزهار ، نقوشاً هيروغليفيةً ، فوق التراب ،
ثم يمحوها وينساها .

* * *

الذاكرةُ ، هي الراهبة التي تقتل الحاضر ،
وتقدِّم قلبَها قرباناً على مذبح الماضي الميت .

* * *

يلعب الأطفال في فناء المَعبد ،
وينسى الربُّ الكاهنَ ،

فيما هو يرامقهم يلعبون .

* * *

ما يكاد يتلامحُ برقٌ على مويجة فكري ،
حتى يرتعش ، كما يرتعش جدولٌ على نغمٍ مفاجىءٍ طليٍ ،
لم يترددْ قط ، من قبل .

* * *

تنتصب السكينةُ ، على الجبل ،
ليتسنى لها أن تتقرَّى ، مدى ارتفاعها نفسِه ،
تتوقف الحركةُ ، فوق البحيرة ،
ليتسنى لها ، أن تتملَّى مدى عمقها نفسِه .

* * *

إن وميض نجمة الصبح ،
هو القبلة التي يطبعها الليلُ الهاربُ ،
على عيون الفجر المغتمضة .

* * *

إيه أيتها الفتاة ،
إن جمالك هو كالثمرة التي ينبغي لها أن تنتظرَ أوانَ نضجها ،

مفعمةً بسرٍ ، ما يزال متوارياً .

* * *

الألم ، بلا ذاكرة ،
هو كتلك الأويقات القاتمة المضنية ،
التي حرمت تغريدَ الطير ،
ولم يبقَ لديها سوى صرير الجداجد .

* * *

إن التعصبَ ، في حفاظه على الحقيقة ،
يهتصرها ، بقوةٍ ، على نحوٍ يفضي بها الى الموت .

* * *

حتى يتأتى للّيل الرَّحب ، أن يشجع سراجاً خجولاً ،
فإنه يشعل نجومَه كلَّها .

* * *

يظل الفضاء ، رغم احتضانه لزوجته الأرض ،
يظل دوماً ، بعيداً عنها بعداً لا نهاية له .

* * *

يبحث الرب عن مرافقين ، ويطالبهم بالمحبة ،
أما الشيطان الذي يبحث عن أرقاء ، فإنه يتطلب منهم الطاعة .

* * *

تتمسكُ الأرضُ ، بالشجرة المنتصبة فوقها ،
لما تزجيه إليها من خدماتٍ ،
أما السماء فتدع الشجرة حرةً ، ولا تطلب إليها أيَّ شيء .

* * *

إن الخلودَ ، هذه الجوهرة
التي تُزهى لا بأعوامها المديدة ،
بل بألقة لحظةٍ واحدةٍ خاطفةٍ .

* * *

يظل الطفل قابعاً ، دوماً ،
ضمن لغز الأزمنة التي لا عمر لها ،
والتي لا يجعلها غبار التاريخ قاتمةً .

* * *

إن ضحكةً رقيقةً ،
تنسرب في إثر خُطا الإبداع ،

لا تلبث أن تتجاوزه ، سريعاً ، على مدى الزمن .

* * *

حين يعتزم السلامُ ،
أن يكنس أدرانَه ،
تهبُّ العاصفة .

* * *

تنكفىء الغائبة ، عند منبلج الفجر ،
إلى جواري ،
ويجعلها الليل ، إذ يحملها إليَّ ، أكثرَ قرباً .

* * *

في حديقتك ، تُزْهِرُ شجرات غارٍ أبيضَ ،
في حديقتي ، تُزهر شجرات غارٍ قرمزية ،
وفي صمتٍ ، تتبادل التحايا ،
حين يضع نيسان خاتمةً لرقادِهما .

* * *

على سفح الجبل ، تمتد البحيرةُ
كأنها التماسٌ مضنٍ ، يبسطه الحب ،

أمام أقدام المتعنت ،
الذي لا يمكن أن يلين .

* * *

يبتسم الطفل الرباني ، بين دُماه ،
التي هي أنوارٌ زائلةٌ وظلالٌ عابرةٌ ،
وقواربُ من غيومٍ تنطلق ، نحو السماء .

* * *

همس النسيم لزهرة اللوتس :
ـ تُرى ما هو سرك ؟
وأجابت زهرة اللوتس :
ـ إنه نفسي ذاتُها ،
خبِّىءْ هذا السرَّ ، أغِبْ أنا .

* * *

إن حرية العاصفة ،
وعبودية ساق الشجرة ،
يتدانيان في رقصة الأغصان المتحركة .

* * *

يبث الياسمين ، بزهراته ،
حبَّه للشمس .

* * *

يريد الطاغية ، أن يكون حراً ،
في وأده للحرية ،
محتفظاً بها لنفسه ، في الوقتِ ذاتِه .

* * *

تغبط الآلهة الناسَ ،
إمَّا برمت وضاقت بفردوسها .

* * *

الغيومُ هي هضابٌ من بخار ،
والهضاب هي غيومٌ من حجر ،
هي توقٌ إلى عناقٍ ،
لا يني ينساب في حلم الزمن .

* * *

يأمل الله أن يبني له الحبُّ ، معبدَه

وألا يجلب له الإنسان سوى الحجارة .

* * *

إنني أصل إلى الله بغنائي ،
كما يصل الجبل إلى الأوقيانوس القصي ،
بشلالاته .

* * *

يعثر النورُ على كنزِ ألوانه
عبر معارضة السحب ، لبعضها بعضاً .

* * *

في هذا الصباح ، يبتسم قلبي لليلتي المخضلّة بالدمع .
كالشجرة الرطبة الريّا ، التي تتوامض للشمس ،
غِبَّ المطر .

* * *

إن زلات حياتي ، تتوسل ، ضارعةً إلى الجمالِ الرؤوف ،
الذي يستطيع ، وحدَه ، أن يذيب عزلتَها .
في مؤالفةٍ متناغمةٍ مع الكل .

* * *

إنني أسدِّد ، بالحب ، الدينَ غير المحدود ،
الذي ينبغي لي أن أفيه لك ، مقابلَ أن تظلَّ أنت نفسك

* * *

إن الأشجار التي جعلت حياتي غنيةً بالثمار ،
قد أزجيت إليها شكري ،
أما العشب الذي حفظت لحياتي ندواتها المخضوضرة ،
فلم أتذكر قط ، ما أسداه إليَّ .

* * *

إن المنفرد المنعزل ، ليس سوى العدم ،
والغير هو الذي يجعله موجوداً حقاً .

* * *

إنه ليطلب الى الطير المنفيَّةِ المهجَّرة من الأعشاش ؛
أن تؤديَ عرفانَها ،
لأنها تجد ملاذَها ، في قفصٍ جميل .

* * *

يا زهورَ النيلوفر ،
أيتها القصائد التي تفجِّرها بركة الماء من أعماقها القاتمة ،

وتتطلّع إيها الشمس ، معجبةً .

* * *

إنه لجحود أن يبسط المرء لسانه في النيل من عظام الناس ،
لأن في ذلك إساءةً إلى نفسه ،
وإنها لدناءةٌ أن يبسط لسانَه في النيل من صغارهم ،
لأنَّ في ذلك إساءةً إلى الآخرين .

* * *

الأشجار هي الجهود الأزلية ،
التي تبذلها الأرض ،
لتناجي السماءَ المصغيةَ إليها .

* * *

إنني أضحك من نفسي ،
فأتخفَّف من عبءِ ذاتي .

* * *

يمكن أن يضحي الضعيف رهيباً
لأنه يجهد ، بضراوةٍ ، ليتراءى قوياً .

* * *

لعبة الحياة سريعة ،

أما دُمى الحياة ،

فإنها تتهاوى ، خلفها منسيةً ،

دميةً في إثر دميةٍ .

* * *

إيه أيتها الزهرة لا تبحثي عن فردوسك ،

فوق عروة سترة أحمق .

* * *

إيه يا هلالي لقد أطللتَ ، متأخِّراً

ولكن طائر ليلي ما يزال ساهراً ، ليلقي إليك بتحيته .

* * *

الليل ، هذه الزوجة المحجَّبة ،

التي تنتظر ، بصمتٍ ، أن يؤوب النهار الشارد ،

ويفيءَ إليها ، جاثياً ، في كنف قلبها .

* * *

إن الزهرة الأولى المتفتِّحة ، على هذه الأرض ،

قد دعت الأغنيةَ ، لتهلّ وتولد .

* * *

حين يشحب الفجر ، هذه الزهرة المتآلفة الألوان ،
تتراءى ، كما لو أنها ثمرةُ النور الدانيةُ البسيطة .

* * *

إن العضل الذي يرتاب في حكمة نفسه ،
يخنق الصوتَ الذي يودُّ أن يجأرَ ، صارخاً .

* * *

تتوق الريح إلى الشعلة ،
بيد أنها تطفئها إمّا أمسكتْ بها .

* * *

تزأر ريح السماء ،
وتتشبَّث المرساة يائسةً ، بذراعها ،
غير أن قاربي الذي نفد صبرُه ،
يبغي أن يحلّ سلسلته ويطلقها .

* * *

تتَّقد زرقة السماء رغبةً في خضرة الأرض ،
وتتنهَّد الريح ، فيما بينهما ، مرددةً : واأسفاه .

* * *

إن الألمَ المسربلَ بألَق النهار ،
يتضوَّع ، فاغماً ، في الليل ، بين النجوم .

* * *

يبذل السحابُ ، ذهَبه كلَّه ، للشمس الغاربة ،
ولا يستقبل القمرَ إلا بابتسامةٍ شاحبةٍ .

* * *

من يفعل الخيرَ ، يصِلْ إلى باب المعبد ،
أما من يحب فإنه يفضي إلى المحراب .

* * *

أيتها الزهرة ، هلاَّ أشفقت على الدودةِ ،
إنها غير النحلة ،
لأن شغفها بك هو زلَّةٌ وخطأ .

* * *

من أنقاض الطغيان المنتصر ،
يبني الأطفال بيتَ دميتهم .

* * *

ينتظر السراجُ المهملُ ، طوالَ النهار ،
قبلةَ الشعلةِ التي تسوق إليه الليل .

* * *

إن الريشات المطروحةَ على التراب ، متعطلةٌ ، قانعةٌ ،
قد أُنسيتْ كيف تطير ، في السماء .

* * *

ليس للزهرة المنزوية ،
أن تغبطَ الأشواكَ الجمةَ .

* * *

يتألم الناس ، بصورة خاصة ، من الطغيان اللامبالي ،
الذي يبديه من يريد لهم الخير .

* * *

إننا لا نظفر بالحرية ،

إلا بعد أن نسدِّدَ تماماً ، حقَّنا بالحياة .

* * *

إن هباتك الشاردةَ ، والساهمةَ ،
المماثلةَ للشُهُب في ليلة خريفية ،
تتضرَّم ، متَّقدة ، في أغوار كياني .

* * *

إن الإيمان الذي يكمن ، منتظراً ، في لباب بذرةٍ ما ،
يَعِدُ بمعجزة حياة ،
لا يتأتَّى له أن يثبتها ، إلا فيما بعد .

* * *

يتردَّد الربيع ، أمام باب الشتاء ،
بيد أن زهرة العنباء (المانغا) تهفو إليه ،
وتعثر ، قبل الأوان ، على قدرها .

* * *

أيها الكون ، أيها الزبد المتغيِّر ،
الذي يطفو على سطح بحر الصمت .

* * *

يمزج الشاطئان المنفصلان أصواتَهما ،
في نغمٍ حزينٍ لا يمكن أن يُسبَر غورُه .

* * *

إن العمل ، كالنهر المفضي الى البحر ،
يحقِّق إنجازه ،
في طيَّات الفراغ .

* * *

لقد تأخرتُ فيما كنت أضرب في الدرب ،
حتى تفقد شجرتك ، شجرة الكرز ، زهراتها ،
بيد أن زهرة (الصحراوية) ، يا حبيبي ،
تنقل إليَّ ، صفحَك عني .

* * *

إيه يا برعم الرمانة الغض الخجول ،
المتضرِّج ، اليوم ، حمرةً ، خلف قناعك ،
سوف تنوِّر ، في زهرة جُلنار ، مشبوبةِ العاطفة ،
حين أغيب ، غداً ، عن الوجود .

* * *

الولادة ، هي ممرٌ من لغز الليل ،

الى لغزٍ مبهمٍ ، من النهار ، أكثر عمقاً .

* * *

إن القوةَ الرعناءَ تزيِّف المفتاحَ ،
وتفزع إلى معول الهدم .

* * *

قد صنعتُ قواربي الورقية ،
لتتراقصَ فوق مويجات ساعات الزمن ،
لا لتشارفَ هدفاً ما .

* * *

تطير من كياني أغنياتٌ مهاجرةٌ ،
ساعيةٌ ، لتبني عشَّها على صوتك العاشق .

* * *

إن بحر الخطر والريبة والجحود ،
الذي يغمر جزيرةَ اليقين ،
يدعو الإنسانَ إلى ارتياد المجهول .

* * *

يعاقب الحبُّ المهانُ بصفحه ،
ويعاقب الجمالُ المهانُ بصمته النبيل .

* * *

إنك تعيش ، منفرداً ، وحيداً ، دون أجرٍ أو تجزية ،
لأنهم يخشونَ قيمتَك المرموقةَ العالية .

* * *

إن الشمس نفسها ، لا تألو تلد فوق أراضٍ جديدةٍ ،
في دورة من الأصباح متصلةٍ ، دون انقطاع .

* * *

ان عالم الله ، لا يني يتجدد بالموت ،
أما عالم الطاغية فإنه مسحوقٌ بوجوده نفسه .

* * *

إن دودة القطرب[١] المضيئةَ التي تتقرَّى الترابَ ،
تجهل أن في السماء نجوماً .

* * *

الشجرةُ هي بنت اليوم ،

---

(١) دويبة تضيء ليلاً .

أما الزهرة فقديمةٌ ،
إنها تحمل رسالةَ البذرة ،
التي لا تعيها الذاكرة .

* * *

تحمل إليَّ ، كلُّ وردةٍ جديدةٍ ،
تحيةَ وردة الربيع الأزلي الخالد .

* * *

يشرفني اللّه ، حين أعمل ،
ويحبني حين أغني .

* * *

إن الحب الجديد ، لا يجد البتة ، ملجأً له ،
في العش الذي هجره الحب السابق ، من قبل .

* * *

تشقُّ نارُ العذاب ، من أجل روحي ،
درباً مضيئاً ، عبر وجعها .

* * *

يبقى العشب ويعيش ، أكثر مما تعيش الربوة ،

عبر ميتاتٍ لا عدادَ لها .

* * *

لقد تواريت ، وأضحيتِ بمنأى عني ،
دون أن تخلِّفي شيئاً ، سوى لمسةٍ رقيقةٍ في زرقة السماء ،
وصورةٍ خفيةٍ ، في الريح التي تلعب ، بين الظلال .

* * *

إن الربيع ، في رأفته بالغصن المقفر المهجور ،
يدع له قبلةً ،
ترتعش فوق ورقته المنعزلة ، المنزوية .

* * *

في الحديقة ، يشغف الظلُّ الخجولُ بالنور ، في صمت .
وتحسر الأوراقُ عن السر ،
وتبتسم الأزهار .

* * *

لا أخلِّف أيَّ أثارة من الجناح ، في الفضاء ،
ولكنني سعيدٌ ، لأنني قد انطلقت طائراً .

* * *

اليراعات التي تتوامضُ ، في ثنايا الأوراق ،
تبهر النجوم ، دهشةً .

* * *

الانتصار الظاهر للضباب ،
يدع الجبلَ ، غير آبهٍ ، مكترث .

* * *

بينا تردد الوردةُ للشمس :
- لن أنساك أبداً .
تتهاوى أفوافها ، على التراب .

* * *

الجبالُ هي الحركاتُ اليائسةُ التي تقوم بها الأرض ،
أمام ما لا يمكن النفوذُ إلى كنهه .

* * *

إيه أيها الجمالَ ،
على الرغم من أن شوك زهرتك قد جرحني ،
فإنني معترفٌ ، مقرٌ بفضلك .

* * *

يعرف الناس جميعاً ، أن العدد اليسير ،

أكثر اعتباراً من الحشد الكبير .

* * *

يا صديقي ، لا يكن حبي لك عبئاً عليك ،
واعلم أنه يجزي نفسَه بنفسه .

* * *

يضرب الفجر ، على مزهره أمام أبواب الليل ،
ويرضى بأن يتوارى ، حين تبزغ الشمس .

* * *

يتراءى الجمال ابتسامةً للحقيقة ،
حين تلمح الحقيقةُ محياها ،
في صقال مرآةٍ كاملة .

* * *

إن قطرة الندى ، لا تعرف الشمس ،
إلا ضمن فلكها الدقيق الصغير .

* * *

إن سرباً من الخواطر اليتيمة ،
هارباً ، منطلقاً ، من خلايا الأعمار ،

يدندن ، هازجاً حول قلبي ،
فيما هو يبحث عن صوتي .

* * *

الصحراء هي حبيسةٌ ،
ضمن سور من جدبها الذي لا حدَّ له .

* * *

في ثنايا رعشة الأوراق الغضة ،
ألمح رقصةَ الهواء المتوارية ،
وفي وميضها ،
أستجلي نبضات السماء الخفية .

* * *

كشجرةٍ منوَّرةٍ مزهرةٍ ،
تدهشين ، حين أطري عطاياكِ .

* * *

إن النار المقدسة ، نارَ الأرض ، تشتعل بين الأشجار ،
مذرذرةً شراراتها ، خلال الأزهار .

* * *

إن الغابات ، هذه الغيومَ الأرضيةَ ،

تبسط للسماء صمتَها ، وتتطامن ، من عل ،
وتهمي وتصوبُ ، في ديمٍ مرنانةٍ .

* * *

يخاطبني الكونُ بالصور ،
وتجيب روحي بالأغاني .

النجومُ الجمَّةُ ، هي لآلىء المسبحة ،
التي تسلسل السماءُ حباتها ، طوال الليل ،
إحياءً لذكرى الشمس .

* * *

ظلمةُ الليل الداجية ، خرساءُ كالألم ،
أما سدفة الفجر فصامتةٌ كالسلام .

* * *

ينقش الغرور تهديدَه ووعيدَه ، على الحجر ،
ويبسط الحب استسلامَه ، في الأزهار .

* * *

إن ريشة التصوير الذليلةَ ، تشوِّه الحقيقةَ ،

في تكيُّفها ومراعاتها للوحة الضيقة .

* * *

حتى يسوِّغوا تبديدَهم للمداد ،

فإنهم يسجلون الليلَ نهاراً .

* * *

إن الجبل ، في حنينه إلى السماء القصيَّة ،

ينفس على السحاب انطلاقَته العاجلةَ في بحثه الخالد .

* * *

تبتسمُ المصلحة للطيبة ،

حين تلفي لديها ربحَها .

* * *

إن الفقاعةَ ، المنفوخةَ صلفاً ،

تشكُّ في وجود البحر ، مستضحكةً ، ثم تنفجر في العدم .

* * *

أيها الحب ، أيها اللغز الخالد ،

الذي لا يتأتَّى لغيرك أن يجلوَه ويفسرَه .

* * *

إن غيومي التي تضنيها الظلمات .
تنسى أنها هي نفسها التي حجبت الشمس .

* * *

يكتشف الإنسانُ غناه ذاتَه ،
حين يطلب اللّه إليه قرباناً .

* * *

إنك تخلِّف ذكراك ، كشعلةٍ ،
تتألف في سراج فراقنا .

* * *

لقد قدمت إليك ، منذ أمد قريب ، زهرةً ،
ولكن ، خذْ حديقتي كلَّها ،
فإنها لك .

* * *

التصوير هو ذكرى النور ،
التي اكتنزها الظل .

* * *

إنه لمن السهل على المرء ان يعابث الشمسَ ، بمحياه المكشِّر ،
فإن نورها نفسَه ، يكشفه ويعرضه من جميع جوانبه .

* * *

يظلُّ الحب سراً مستغلقاً ، حتى بعد البوح به ،
لأن العاشق ، وحده ، يعرف أنه محبوبٌ حقاً .

* * *

يخنق التاريخُ ، ببطءٍ ، حقيقتَه نفسَها ،
بيد أنه يجهد أن يبعثَها ، سريعاً ، حيةً ،
ضمن توبة الألم الرهيبة .

* * *

يستوفي كدحي أجره ، بضماناتٍ يوميةٍ ،
وانتظر من الحب ، تقديرَه النهائي لهذا الأجر .

* * *

يطيب للرب أن يجد بشخصي ، لا خادمه ،
بل ذاته نفسها ، هو المولى الكلي الشامل .

* * *

تأتلف ظلمة الليل ، مع النهار ،
أما الفجر الغائم بالضباب فهو نشازٌ وتنافر .

* * *

الحب هو الخمر ، في زمن الورود الكريم ،
هو القوت في زمن المجاعة ،
حين تنتثر أفواف الورد ، مبدَّدةً .

* * *

على أرضٍ مجهولةٍ غريبةٍ ،
تفضي زهرة مجهولة للشاعر قائلة :
ـ إيه يا حبيبي ، ألسنا نحن من بلد واحد ؟

* * *

ان معزفي غير المضبوط (المدوزن) يلحف في طلب الموسيقا ،
بنداءاتٍ من الخزي ، جزعةً ، مرتاعةً .

* * *

تجد الأَرَضَةُ ، أنه من المستغرب المنافي للمعقول ،
ألا يقرض الإنسانُ كتبَه ويأكلَها .

* * *

تتراءى ، اليوم ، السماء الغائمة ،
كأنها ظلُّ الحزن الرباني ،
المترقرقِ على جبهة الخلود الحالم .

* * *

ظل أشجاري ممدود ، مبذول لمن يمرون ،
أما ثمارها فمبذولةٌ لتلك التي أنتظرها .

* * *

إن الأرضَ المتضرِّجةَ حمرةً ، في بريق الشمس الغاربة ،
تتراءى ثمرةً ناضجةً ،
مهيَّأةً ، معدَّةً ، لأن يقطفها الليل .

* * *

يرضى النهار بالظل زوجةً له ،
لمصلحة الإبداع والخلق .

* * *

تنتظر شبَّابة الراعي لهاثَه لينسمَ فيها ،
فيما ينتظر صاحبها ، بحثاً عنها .

* * *

يخيَّل إلى القلم الأعمى ، أن التي تكتب به ،
هي وهمٌ لا حقيقة له ،
وأن الكتابة خاويةٌ من أي معنى .

* * *

يضرب البحرُ نهدَه العقيمَ ،
لأنه لا يملك أزهاراً يزجيها إلى القمر .

* * *

يزدري الجشعُ الزهرةَ ،
إيثاراً منه للثمرة .

* * *

ينتظر الربُّ ، في معبده الزاخر بالنجوم ،
أن يجلب له الإنسانُ سراجَه .

* * *

تصوغ النارُ ، الحبيسةُ في الشجرة ، الزهرةَ ،
فإذا ما انعتقت وأضحت حرةً ، تحركت شعلتُها الوقاحُ ،
وانتفضت رماداً عقيماً .

* * *

تنصب السماءُ فخاً لتأسر القمرَ ،
إن حريتها نفسَها هي التي تستدرجه وتشدُّه إليها .

* * *

إن النور الذي يملأ السماء ،
يبحث عن حدوده في قطرة الندى .

* * *

إن الألقةَ القاسيةَ المتوامضةَ من النصل الفولاذي ،
تستهزىء بالشمس .

* * *

تتمتع الفراشة بأويقات الفراغ ،
لتصبو فيها إلى زهرة اللوتس ،
ولا يتاح ذلكِ للنحلةِ المشغولة باختزان شهدها .

* * *

أيها الطفل ، إنك تنقل إلى قلبي ،
لغوَ الريح والماء ،
وأحلامَ السحاب ، وأسرارَ الأزهار الخبيئة بلا كلمات ،
ونظرةَ السماءِ الصاحيةِ ، الخرساءِ من عجبٍ ودهشة .

* * *

يمكن أن يضحي قوس قزح كبيراً بين رُكام الغيوم ،
بيد أن الفراشة تظل أكبر منه ، بين الأدغال .

* * *

ينسج الضبابُ شبكتَه حول الصباح ،
ثم يحبسه ، ويحميه .

* * *

همست نجمة الصبح للفجر :
هلاَّ قلت لي : إنك ستكون لي وحدي ،
وأجاب الفجر :
ـ أجل ، وسأكون أيضاً لتلك الزهرة المجهولة .

* * *

لربما ابتسم الهلال ، مرتاباً ، متشككاً ، حين يقال له :
ـ لست سوى جزء ينتظر أن يكتمل .

* * *

ألا فليغفر المساء للنهار ذنوبَه ،
ليتأتَّى له أن يظفر بالأمن والسلام .

* * *

يبتسم الجمال ، الى جوار البرعم ،

في لب تناقصٍ ، ناعمٍ عذبٍ .

* * *

يلامس حبُّك الشاردُ ، بأجنحته ،

زهرتي ، زهرةِ عباد الشمس ، ملامسةً رفيقةً ،

دون أن يسألها عما إذا كانت مستعدة لتجود له بشهدها

* * *

الأوراق هي هنيهاتٌ من الصمت ،

تسربل الأزهارَ وتحيط بها ، الأزهارَ التي هي لغو وكلام .

* * *

تحمل الشجرةُ ألوف أعوامها ،

كما لو أنها مؤتلفةٌ في لحظةٍ واحدةٍ ، مهيبةٍ .

* * *

إن قرابيني ليست مقدمةً الى المعبد الضخم القائم في نهاية الدرب

بل إلى المعابد الصغيرة القائمة على حَيْد الدرب ،

التي تفاجئني ، في كلِّ منعطف .

* * *

مثل أريج زهرةٍ غريبةٍ ،
تظل ابتسامتك ، يا حبيبي ،
بسيطةً ، تستعصي على التفسير .

* * *

حين يسرف الناس في إيراد مآثر الفقيد ،
يتهانف الموتُ ، ضاحكاً ،
لأن ذلك ، يضيف إلى ذخائره ،
مزيداً يفيض عما يستطيع أن يدعيه .

* * *

إن زفرة الشاطىء ، تتعقَّب عبثاً ،
النسيمَ الذي يدفع بالسفينة ،
في خضمِّ الأوقيانوس الرحيب .

* * *

تحب الحقيقةُ حدودَها ،
لأنها تلتقي ، ثمة ، بالجمال .

* * *

ما بين شطآني أنا ، وشطآنك أنت ،

يمتد أوقاينوس ذاتي ، الذي يمور هادراً ،
والذي أتشوف أنا الى عبوره .

* * *

إن حق التملك يُزهى ، بصفاقةٍ ،
بحقه في التمتع .

* * *

الوردة هي أكبر من أن تكون ،
ثناءً مخضباً بالحمرة ، مُزْجىً من أجل الشوك فحسب .

* * *

يقدِّم النهارُ معزفَه الذهبي إلى صمت النجوم ،
ليتاحَ له أن يضبط أوتاره ويؤالِفها مع الحياة الأزلية .

* * *

يعرف الحكيم كيف يعلِّم ،
في مركز دوائر الرقصة الخالدة .

* * *

لا يملك السراجُ ، في النهار ، سوى زيته ،

فلا تتطلب منه نوراً ، ليس في وسعه أن يبذله ،
إلا في الليل .

* * *

إن الزهرةً الأسيرةَ المعقودةَ فوق تاج الملك ،
تبتسم ، بمرارةٍ ، لزهرة الحقل التي تغبطها وتنفس عليها منزلتّها .

* * *

يُشكِّل رُكامُ الثلوج ،
العبءَ الوحيدَ الذي ينهض به الجبل ،
بيد أن مياهَها المتدفقةَ ،
تنهض الأرضُ كلُّها بعبء حملها .

* * *

تتوسل براعم الغابة الى الشمس ، هاتفة :
ـ هلاَّ فتحت عيوننا للنور .

* * *

إلا فليؤت حبُّك القدرةَ على رؤيتي
ولو تمَّت ، عبر جدار الإلفة .

* * *

إن روحِ العملِ في الإبداع ،
تظل ثمة ، ماثلةً ،
لتساعدَ روحَ اللعبةِ المبدعةِ ، وتجتذبَها .

* * *

أن ينهض المرءُ بعبء الآلة الموسيقية ،
مقوِّماً ثمنَ مادتها فحسب ،
جاهلاً ، دوماً ، أنها صنعت لتهتزَّ ، عازفةً ،
تلك هي مأساة أولئك الذين يعيشون دون أن يحسنوا الإستماع .

* * *

الإيمان هو ذلك الطائر الذي يتوقَّع مطلعَ النور ،
فيغرِّد والفجر مظلمٌ ، لم ينشقَّ بعد .

* * *

إيه أيها الليل ،
إنني أقدِّم إليك كأسَ نهاري الفارغةَ ،
نقِّها وطهِّرْها بظلماتك الرطيبة ،
من أجل عيد فجرٍ جديد .

* * *

تنسِّق صنوبرةُ الجبلِ ، وتؤالف برعشتها ،
ذكرياتِ نضالها ضد الإعصار ،
في نشيدٍ هازجٍ بالسلام .

* * *

يشرفني الله بنضاله ،
حين أثور ،
ويتجاهلني حين أقبع ، غير مكترث بشيء .

* * *

يخيَّل إلى المتعصِّب أن البحرَ الواسعَ قد تمَّ عبوره ضمن مستنقعه الخاص به .

* * *

في الأغوار الظليلة من الحياة ،
تختبىء الأعشاشُ المنعزلةُ ،
أعشاشُ الذكريات التي تجتوي الكلام .

* * *

ألا فليستمدَّ حبي قوتَه ،
من الكدْح ، في النهار ،

وسلامَه من اتحاده بالليل .

* * *

تعطو الحياة ، بحزمة أعشابٍ ،
تسبيحَها المؤتلفَ من المدائح الصامتة ،
الى النور الهامد .

* * *

تتراءى لي نجومُ الليل ،
ذكرى الأزهار المصوِّحة من نهاري .

* * *

ينبغي لمن يبغي أن ينسلخ ، خارجاً من الروح ،
ألا يضع أيَّ عائق ،
فإن الإكراه يجعل الدمارَ أشدَّ خطراً .

* * *

النهايةُ الحقيقيَّة ليست في استشراف الحد الأقصى ،
بل في بلوغ كمالٍ لا حدَّ له .

* * *

الشكل هو ضمن المادة ،
والإيقاع هو ضمن القوة ،
والمعنى هو ضمن الشخص .

* * *

يبحث بعضُهم عن المعرفة ، وبعضُهم الآخر عن الثروة ،
بيد أنني لا أرغب إلا في حضورك ،
ليتسنى لي أن أغني .

* * *

كما تنثر الشجرةُ أوراقَها ،
فإنني أزرع كلماتي في أديم الأرض ،
وأدع خواطري غيرَ المعبَّر عنها ،
تُزْهِر في صمتك .

* * *

إيه أيها المعلم ،
إن إيماني بالحقيقة ، ورؤيتي للكمال ،
تعينانك في إبداعك .

* * *

يهمس الشاطىء للبحر :
أكتب لي ما تجهد أمواجُك أن تقولَه ،
ويسطر البحرُ كلماته ، زبداً ،
ثم يمحو السطورَ ، في يأسٍ هادرٍ صاخبٍ .

* * *

ألا فلتهتز أوتارُ حياتي ،
بلمسةٍ من أناملك ،
مؤتلفةٍ في موسيقا ، تمتح من ذاتي وذاتك ، في آنٍ .

* * *

ان العالمَ الداخليَّ ، المصوغَ ، المسوَّى ضمن حياتي ،
والمماثلَ لثمرة أنضجها الفرح والألم ،
سوف ينهار ، متداعياً ، ضمن دياجير ظلمة الأرض الأصلية ،
ليتابع ، من ثم ، سلسلةً جديدةً من الإبداع والخلق .

* * *

دعني أقوِّمْ جميعَ اللذاذات التي تخلص إليَّ ،
من ثمار الحياة وأزهارها ـ
دعني أقدِّمْها إليك ، في نهاية العيد ،

في اتحادٍ كاملٍ مع الحب .

* * *

لقد تسنَّى لبعض كبار المفكرين أن يسبروا معنى الحقيقة ،
تلك هي عظمتهم ،
ولقد أصغيت إليك ، ليتسنى لي أن أدرك انسجام عزفك ،
تلك هي فرحتي .

* * *

تضحي الشجرة ،
إمَّا تحرَّرتْ من رق البذرة ، روحاً مجنَّحةً ،
لا تني تتابع مخاطرةَ حياتها ، عبر المجهول .

* * *

تقدِّم زهرة اللوتس سناءها الى السماء ،
وتقدِّم حزمة العشب ، خدماتها الى الأرض .

* * *

إن قبلة الشمس تحيل شحَّ الثمرة الفجَّة ،
المتعلقةِ بجذع شجرتها ،

الى عطاءٍ طيِّعٍ عذبٍ .

* * *

تلتقي الشعلة ، بالسراج الفخاري ، ضمن كياني ،
يا لها من معجزةٍ نورانيةٍ كبري ، تتحقق ، آنذاك .

* * *

في الليل الصامت ،
أسمع أمنيات الصباح ، المشردة ،
تنكفىء ، لتقرعَ قلبي .

* * *

تتراءى السحابةُ للنهر المشغول بجريانه ،
كما لو أنها نافلةُ النفع ، عقيمة .

* * *

بعضُهم يعبر الحياةَ ،
كالطفل الذي يقلِّب صفحات كتاب ،
مقتنعاً بأنه يقرأ فيه .

* * *

كان الزمن خلال رحلتي ،
يتراءى لي سلسلةً من الأيام القادمة ،
أما الآن ، وقد اجتمعت إليك ،
فلم يعد يتَّسق ، إلا في حاضري .

* * *

في صبابتي وحبي لك ،
وعيت معنى الفرح المتجلي في معرفة الحقيقة .

* * *

يقول لي الحب :
إن الموت ليس إلا سوءَ تفاهم .

* * *

سخر السحابُ من قوس قزح قائلاً :
ـ لست سوى وصوليٍ تيَّاهٍ مترفٍ ، في فراغه ،
فأجاب قوس قزح بهدوء :
ـ أنا ، لا محالة ، حقيقي ، كالشمس نفسها .

* * *

جلب لي الحب الجديد :

الثروةَ الخالدةَ التي خلّفها الحب الراحل .

* * *

لا تدعني أتقرَّى ، باحثاً ، في الليل ، عبثاً ،
ولكن دعْ فكري يؤمنْ بأن النهار سوف يولد ،
وأن الحقيقة سوف تتجلّى ،
في بساطتها .

* * *

إن المدينة التي حسرت في نور الشمس ،
عن عمرٍ جديدٍ لها ،
تحمر خجلاً ، لأنها أضاعت أغنياتها كلّها .

* * *

إن نايَ حياتي ، الخاوي كالظلمات الأولى ،
المنتشرة ، قبل مطلع النجوم ،
ينتظر أغنيتَه النهائية .

* * *

لن تتمتع الشجرة بحرية أكبر ،

حين تنعتق من رق التراب .

* * *

يتجلّى تاريخ الحياة ، على النحو التالي :
بساطٌ منسوجٌ من أواصر الحياة ،
وخيوطٌ لا تأتلي ، تتصل وتنقطع .

* * *

إن أفكاري التي لا يتّسق للكلمات أن تحبسها ضمنها ،
تحطُّ على أغنياتي ، لِتتراقصَ فوقها .

* * *

القواقع اللؤلؤية التي لفظها البحر ،
على الشاطىء المجدب من الموت ،
هي البذلُ المعطاء الذي تسخو به الحياة المبدعة .

* * *

يفتح لي نورُ الشمس بابَ الكون ،
ويفتح لي نورُ الحب بابَ كنوزه .

* * *

تماثل حياتي ، النايَ المليءَ بالثقوب ،
في تلاعبه بالألوان ،
عبر فواصل تعلأّته وفرحاته .

* * *

فلتعمل كلمات شكري ،
على ألا تحرم صمتي البتة ،
من إزجاء تقدير إليك ، أكثر كمالاً .

* * *

تنطلق تطلعات الحياة ،
كفوجٍ من الأطفال .

* * *

تتنهّد الزهرةُ الذابلةُ قائلةً :
ـ لقد ولّى الربيعُ ومضى الى الأبد .

* * *

إن كنوزَ حديقة حياتي ،
قد ائتلفت في الظلال والأضواء ،

التي لم تقتطف ولم تُحتجنْ قط .

* * *

إن الثمرةَ التي فزت بها واستصفيتها لي دوماً ،
هي الثمرةُ نفسُها التي رضيتَ بها أنت .

* * *

يعرف الياسمينُ أن الشمسَ ،
هي شقيقته في السماوات .

* * *

إن النورَ ، النورَ القديم ،
هو دوماً غضٌّ فتيٌّ ،
أما الظلال ، فهي وليدة اللحظة الحاضرة ،
ولكنها تولد ، هرمةً .

* * *

أشعر بأن قاربَ أغنياتي ،
سوف ينقلني ، عند انقضاء النهار ،
إلى الشاطىء الآخر ،

حيث استمرىء العيش .

* * *

إن الفراشةَ التي تهيم ، متنقلةً من زهرةٍ الى أخرى ،
تظلُّ ، في حوزتي ، دوماً ،
ولكنني أضيِّع الفراشةَ التي تقتنصها شبكتي .

* * *

توافي أغنيتُك ، كعصفورٍ خفيفٍ ، الى عش راحتي ،
وتحلم أجنحتي المطويَّةُ ،
برحلةٍ نحو النور ،
فوق الغيوم .

* * *

إذا التوى على فهمي ،
معنى الدور الذي أنهضُ به في لعبة الحياة ،
فذلك لأنني أجهل الدور ،
الذي يقوم به ويلعبه الآخرون .

* * *

إنني أهجر أغنياتي وأدعها خلفي ،
إمَّا شرع نباتُ (زهر العسل) ينوِّر ، في تفتحٍ متجدِّدٍ ،
وإمَّا هلَّتْ فرحةُ نسيم الجنوب .

* * *

تخسر الزهرةُ جميعَ أفوافها ،
لتظفرَ بالثمرة .

* * *

كالسماء ، في ظلماتها وضيائها ،
يبحث الفكرُ عن كلماته دوماً ،
بين الأنغام والصمت .

* * *

ينفخ الظلامُ المتواريُ الخفي ، في نايه ،
ويتهزَّم إيقاع النور ، عاصفاً ،
مبدداً نجوماً وشموساً ،
منتفضاً خواطرَ ورؤىً .

* * *

لا أتغنى في أناشيدي ،
إلا بعبادتي لغنائك .

* * *

حين يلامس صوتُ الصامتِ ، كلامي ،
فإنني أتعرَّف عليه ، وهكذا أتعرف على نفسي ذاتها .

* * *

سينحو وداعي الأخير ،
إلى من يعرفون نقائصي ،
ويكنُّون لي المحبةَ ، في آنٍ .

* * *

يقول النجم :
ـ دعوني أشعلْ سراجي ،
دون أن يستوضحَ البتة ،
عما إذا كان نوره سيبدِّد الظلمةَ .

* * *

تُراني أستطيع ، قبل أن أختم رحلتي ،
أن أستشرف ، في أعماق ذاتي ، ذاك الذي يتَّسقُ في الكل ،
تاركاً الغلاف ، يطوف ،
منساقاً في التيار ،
غائباً في شتيت الأشكال ،
على سطح نهر المصادفة والتحول .

* * *

حين يوافي الموت ، ويفضي إليَّ بصوتٍ خفيضٍ :
ـ إن أيامك في الحياة قد شارفت نهايتها ،
تُراني أستطيع أن أجيب :
ـ إنني لم أعشْ فحسب ،
بل عشتُ في الحب ،
سيطلب إليَّ :
ـ تُرى أوتي لأغانيك أن تبقى ، وتعيش من بعدك ؟
سأجيب :
ـ أجهل ذلك ، ولكنني أعرف ،
أنني ظفرتُ ، أكثر الأحيان ،
بالخلود ، فيما كنت أغني .

* * *

الفهرس

رابندرانات طاغور

نوبل ١٩١٣

- ولد في ٧ أيار ١٨٦١ .
- عاش طاغور في أسرة اشتهرت بالعلم والتقوى ، ونشأ في بيئة ثقافية ابداعية ، حيث كان أبوه واخوته يؤلفون المسرحيات الشعرية والموسيقية ويتسلون بتمثيلها في فناء منزلهم .
- في الرابعة عشرة من عمره بدأ نشاطه الابداعي حيث نشر أعمالاً شعرية ونثرية . وانقطع عن الدراسة الى حيث مدرسة الحياة .
- في عام ١٨٧٧ ألف أول تمثيلية ميلودرامية تقدم على المغامرة والغناء ولم يكن حينها سوى حدث صغير .
- درس الأدب الانكليزي في جامعة لندن .
- في عام ١٨٨٠ كتب قصة « القلب الكسير » بعد أن عاد من انكلترا الى موطنه .
- في العشرين نشر ديوانه الأول « أغاني السماء » . ثم نشر ديوان « أشعار الصباح » و« الملك والملكة » ومسرحية « الضحية » و« ملكة الغرفة المظلمة » و« مكتب البريد » .
- في عام ١٩١٠ أصدر « عهد طاغور » وهو كتاب عرض فيه ، تأملاته في الحياة والوجود وآرائه في الكون .
- توفي في آب ١٩٤١ .

تصميم الغلاف : محمد سعيد الصكار



ISBN => 2-84305-092-8
EAN => 9782843050923